فـن الحيــاة

أندريه موروا

◆ المؤلف: أندريه موروا
◆ العنوان: فن الحياة
◆ ترجمة: يوسف مظهر بك
◆ طبعة آفاق الأولى 2020
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٩ / ٢٠٤٢٩
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 246 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

أندريه موروا

فـــن الحيـــاة

ترجمة

يوسف مظهر بك

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

موروا، أندريه

فن الحياة – أندريه موروا

ترجمة: يوسف مظهر بك

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2020

224 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20429 / 2019

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 246 – 9

1 – فلسفة وعلم نفس

2 – العنوان

المحتويات

ترجمة المؤلف.. ملخصة عن مذكراته	٧
أسرته	٧
نشأته وحياته	٨
مؤلفاته	١٤
أسلوبه	١٥
١- الكـــون والفكـــر	١٧
٢- التفكير بالجسم	٢٠
٣- التفكير بكلمات	٢٢
٤- المنطق والتدليل العقلي	٢٦
٥- طريقة ديكارت	٢٩
٦- الطريقة التجريبية	٣٤
٧- وجوه النقص في الطريقة التجريبية	٣٩
٨- الفكرة والعمل	٤٥
فـن الحـب	٥١
١- اختيار المحبوب	٥٢
٢- مولد الحب	٥٦
٣- التودد	٦٠
٤- المغازلة	٦٤
٥- تجنب الملل	٧١
٦- تقديس الرغبة	٧٧
فـن العمـل	٨٣
١- إرشادات للعاملين	٨٤

٢- الوكلاء والمساعدون والأمناء ٩٢
٣- العمل اليدوي والعمل العقلي- ربة المنزل ٩٨
٤- عمل التلميذ ١٠٣
٥- فن القراءة ١٠٦
٦- عمل الفنان ١١٠
٧- فن الراحة ١١٣
٨- خاتمة ١١٨
فن القيادة ١٢١
١- كيف يُختار الرئيس ١٢٣
٢- صفات الرئيس ١٢٩
٣- ذكاء الرئيس ١٣٦
٤- فن القيادة ١٣٩
٥- فن الحكم ١٤٥
٦- حقوق الرئيس وواجباته ١٥٠
فن الشيخوخة ١٥٣
١- خط الظل ١٥٥
متى تبدأ الشيخوخة؟ ١٥٥
٢- الشرط الطبيعي للشيخوخة ١٥٩
٣- أمراض الشيخوخة ١٦٤
٤- أيستطيع المرء ألا يشيخ؟ ١٧٢
٥- هل نستطيع أن نحسن الشيخوخة ١٧٥
٦- طريقتان مختلفتان لقضاء شيخوخة طيبة ١٨٢
٧- فن الموت ١٨٨
٨- خطاب لبعض الشبان ١٩١
معجم الأعلام ١٩٥

ترجمة المؤلف

ملخصة عن مذكراته

أسرته

أبوه إرنست هِرْزوج، وهو ألزاسي حضر حرب السبعين وهو في السادسة عشرة، وكانت أبرز صفاته الشجاعة والكتمان والتواضع والأمانة والبعد عن التحيُّز. لم يكن يتعلق إلا بأربع: وطنه فرنسا، ومسقط رأسه الألزاس، وصناعته، وأسرته. اشتغل منذ حداثته بصناعة الصوف في مصنع لأخواله في بيشڤلر من أعمال الألزاس كان به ٤٠٠ عامل.

وفي سنة ١٨٧١ -عندما ضُمَّت الألزاس إلى ألمانيا- أصبحت الأسرة في موقف مؤلم، فنقل آل هِرْزوج مصنعهم بآلاته وعماله إلى مدينة إلبوف عاصمة مقاطعة السين السفلى بالقرب من مدينة روان ليحتفظوا بفرنسيتهم. وسمع المتَرجم وهو صبي في السادسة من رفيق له أن أسرتهم كانت على دين اليهود، فسأل أباه في ذلك فأجابه: «حقًّا

يا ولدي قد كان أجدادنا يهودًا، ولكن راعيًا بروتستانتيًّا -كان صاحب عقيدة جميلة تَمُتّ بالقرابة والبنوة إلى اليهودية- دعاهم إلى النصرانية فتنصروا على المذهب البروتستانتي ونشأنا على دينهم». وكانت جدتهم على مذهب المتطهرين (البيوريتان) فأخذوا عنها مذهبها، فكان إرنست وإخوته على خلق عظيم مع ميل إلى الجد والصرامة.

لم يكن إرنست وأخوه إدمون شركاء في المصنع، ولكنهما كانا روحه وعماده. واختصّ إرنست بإدارة المصنع، وتفرغ إدمون لتصريف منتجاته. وفي سنة ١٨٨٠ وُعدا بإشراكهما في ملكية المصنع، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد زمن طويل. وكان إرنست مهيبًا محبوبًا يرجع إليه العمال في شؤونهم المهنية والخاصة، وتُوفِّي سنة ١٩٢٥ بعد أن أصبح من الشركاء في المصنع.

نشأته وحياته

كان اسمه الأصلي إميل هرزوج، وُلد في مدينة إلبوف سنة ١٨٨٥، وتعلَّم القراءة والكتابة والتاريخ المقدس من أمه، ثم قرأ كل قصص الأطفال الشهيرة، كما قرأ قصص جول فرن، ثم انضم إلى بضعة رفقاء من سنه كانوا يتمُّون دراستهم الأولية عند سيدتين في مدرسة خاصة، ورتَّب له والداه في نفس الوقت دروسًا في الموسيقى على يد معلِّم خاص ليعلمه العزف على البيانو، فلم يُظهر مهارة في العزف فكان المعلم يقضي معه وقت الدرس في عزف ألحان شوبان وباخ، فحبب إليه الاستماع إلى الموسيقى، وكان في نفس الوقت

يتلقى دروسًا في مبادئ اللغتين الإنجليزية والألمانية، كما تعلم ركوب الخيل على مدرب خاص، ثم دخل مدرسة إلبوف الابتدائية الملحقة بمدرسة الليسيه بروان، فبدأ ميله للإنشاء والأدب يرتسم فيما يعالجه من الموضوعات، وتنبأ له معلمه بأنه سيكون مؤلفًا يومًا ما. وأخذ يتعلم مبادئ اللاتينية، ولما بلغ الثانية عشرة انتقل إلى الليسيه بروان، وكان قد قرأ كثيرًا مما في مكتبة الأسرة من كتب الاتباعيين «الكلاسيك» والابتداعيين «الرومانتيك»، فضلًا عما كان يهديه إليه والداه في مختلف المناسبات من الكتب الأدبية والتاريخية، فاطَّلع على الكثير مما وضعه أعلام الكتاب من القصص، فأثارت أحاسيسه قصص الحب، ولما كان والداه محافظين لم يكن يجرؤ على سؤالهما عن شيء مما أهاجه، فاضطر أن يكوِّن لنفسه صورة خاصة عن علاقة الرجل بالمرأة، وأخذت طبيعته الروائية تتفتح شيئًا فشيئًا.

كان الأول في الليسيه في جميع العلوم بين أربعين طالبًا، وتغلب على ضعف بنيته بمزاولة الألعاب الرياضية حتى نال فيها ميدالية كان سروره بها أعظم من سروره بنجاحه بتفوق في البكالوريا. وكان أثناء دراسته برُوان يذهب أيام الإجازة إلى باريس عند خالاته، وكنّ شغوفات بالشعر والتمثيل، فشهد معهن التمثيل وحفلات الغناء والموسيقى، فزاده التمثيل تثقيفًا في الأدب، وتعاونت الموسيقى والشعر على تهذيب خياله وشعوره.

وانتقل إلى السنة النهائية من تعليمه الثانوي بقسم الفلسفة، وكان أستاذه إميل شارتييه -الذي اتخذ لتوقيع مؤلفاته اسم «آلان»- يميل

إلى طريقة سقراط ويطبقها ليثير عقول تلاميذه ويدفعهم إلى التفكير ودقة البحث، فتأثر المترجم به في تفكيره وذوقه الأدبي، قال: «لقد علمني بغض النفاق والرغبة في الفهم واحترام الخصوم». ونال المترجم جائزتين في مسابقتين متتاليتين في الأدب والفلسفة، وتعشق مهنة التدريس فأراد أن يلتحق بمدرسة المعلمين العليا في باريس، فنصحه أستاذه آلان ألا يفعل؛ لأن له في الأدب مستقبل زاهر، ومهنة التدريس تجعله في عزلة لا تمكنه من دراسة أخلاق الناس، وأشار عليه أن يشتغل بالصناعة مع والده حتى يختلط بالناس، ويدرس طبائعهم وميولهم، فوافق أبوه على هذه الخطة، وأذِن له في إرضاء ميوله الأدبية في ساعات الفراغ، ولكنه فضّل قبل دخول ميدان الصناعة أن يفوز بفترة تغيير، وكان في استطاعة الشاب المتعلِّم وقتئذ أن يلتحق بالجيش فيما يُسمَّى فرقة «المعافين» إذا كان في سن الثامنة عشرة لمدة سنة واحدة، بشرط أن يكون حاصلًا على درجة جامعية، فاستعد لامتحان الليسانس في الآداب «قسم الفلسفة» ونجح بتفوق، فكافأه والداه بسياحة مع عمه إلى إنجلترا.

ولما أتمَّ تدريبه العسكري في فرقة المعافين بمدينة روان، التحق بالمصنع وتمرَّن في جميع أدوار العمل، كما تدرَّب على تصريف المنتجات. وكان المصنع يمنحه إجازة شهر كل سنة يقضيه في السياحة، فتعرف بفتاة روسية في جنيف، وتوثقت بينهما الروابط فتزوجها ورزق منها ببنت وصبيين.

وعندما أُعلنت التعبئة العامة في أغسطس سنة ١٩١٤، أُلحِق

بالحملة البريطانية بمهمة مترجم اتصال بين القيادة البريطانية والسلطات الفرنسية، فتعرَّف بكثيرين من الضباط البريطانيين ودرس أخلاقهم، واستمد من محاوراتهم موضوع قصة سماها «صمت الكولونيل بِرَامْبل» أذنت له السلطات البريطانية في نشرها بشرط أن يتخذ اسمًا مستعارًا، فاتخذ اسم ابن عم له قُتل في الحرب يُدعى أندريه، وتلقب بموروا وهو اسم قرية صغيرة بالقرب من كمبريه، فصار اسمه أندريه موروا، وقُوبل الكتاب بالترحيب والثناء في فرنسا وإنجلترا، وتلقَّى المؤلف خطابات التشجيع من كثير من رجال الأدب منهم أناتول فرانس وكپلنج، ومن قائد الحملة البريطانية والمارشال ليوتي والمسيو كليمنصو وغيرهم، وعلى إثر عقد الصلح عاد إلى عمله بالمصنع مع عكوفه على الاشتغال بالأدب، ولكن الأحوال الاقتصادية العالمية ما لبثت أن اضطربت، كما تزعزعت أسس النقد وحلت الأزمات المالية.

وفيما بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢١ دعاه أصدقاؤه من الضباط الإنجليز إلى زيارة طويلة لإنجلترا ليتعرف إلى الشعب الإنجليزي، فتهيأت له دراسة الحياة الإنجليزية والعقلية الإنجليزية والنظم الإنجليزية، واتصل بالكثيرين من أعلام الأدب ورجال السياسة والبحرية، ووقف على أسرار ثبات النظم والقوانين الإنجليزية، وفي سنة ١٩٢٣ أخرج كتابًا عن شللي الشاعر الإنجليزي، وفي تلك السنة توفيت زوجته فحزن عليها حزنًا شديدًا، فعطف عليه أصدقاؤه الإنجليز مرة أخرى فدعوه إلى زيارة قصيرة، وكان بسبيل هجر الصناعة

والتفرغ للأدب. حيث أخرج كتاب «محاورات عن الحكم والقيادة»، فكان لظهوره أثر في اتصاله بكثير من رجال الحكم في فرنسا. وفي يوم من أيام نوفمبر سنة ١٩٢٤ ابتدره ناشر كتبه جراسيه بقوله: «هل لك في مقابلة المارشال بيتان والتحدث إليه؟ فقد قرأ المارشال كتابك «المحاورات» وأُعجب به، وسنتناول العشاء معًا يوم ٢ ديسمبر على مائدة صديقتنا مدام كايافيه، وسيكون معنا أيضًا بول فاليري، وقد طلبت إليَّ السيدة أن أدعوك». ولم يكن اسم مدام كايافيه غريبًا عن موروا؛ فهي الصديقة القديمة لأناتول فرانس، ولكنه في يوم الدعوة قُدم إلى شابة جميلة ذكرته كثيرًا بزوجته ولو لم تكن تشبهها، ثم اتضح له أنها حفيدة السيدة صديقة فرانس، وهي شابة كاملة الثقافة تزوجت أثناء انعقاد مؤتمر الصلح بأحد رجال السلك السياسي الأجنبي ورزقت منه بابنة، ولكنها طُلقت منه بعد أن عاشرته ٣ سنوات. كانت هذه المقابلة فاتحة تعارف وتآلف وحب انتهى بزواجها بموروا في أواخر سنة ١٩٢٦.

إلى هنا اقتصرت معرفة موروا على إنجلترا.

أما أمريكا فلم يكن زارها، ولكنه عرف فيها بكتبه: «برامبل»، «أرييل»، و«حياة دزرائيلي»، فزارها ومكث بها شهرين تعرف في خلالهما ببعض الجمعيات الأدبية الفرنسية الأمريكية، وألقى بها بعض محاضرات أدبية.

وفي سنة ١٩٢٧ دعاه المسيو رينيه دوميك، عضو الأكاديمية

الفرنسية ومدير مجلة العالَمَيْن، إلى إلقاء محاضرات أدبية عن ديكنز الروائي الإنجليزي. ثم زار إنجلترا زيارة طويلة خرج منها بكتاب ممتع عن بيرون الشاعر الإنجليزي. وُدعِي إلى أمريكا سنة ١٩٣٠ ليشغل كرسي اللغة الفرنسية بجامعة برنستون، ولما كانت إقامته ستطول رافقته زوجته في هذه الرحلة وعاد إلى فرنسا بعد انتهاء مهمته. وفي الفترة من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٧ أخرج كتابه تاريخ إنجلترا، ولكنه شكا في مذكراته من أن أوقاته في تلك الفترة كانت موزعة بين جمعية المحاضرات التي يرأسها المسيو دوميك وجماعة مجلة الأَنَّال التي ترأسها مدام بريسون ابنة فرنسيسك سرسيه، ويأسف لعدم استطاعته التفرغ لإخراج مؤلفات باقية. حقًّا لقد كانت أوقاته ومجهوداته مبعثرة موزعة بين الجمعيات الثقافية والجامعات الشعبية. وفي تلك الفترة زار مصر وألقى سلسلة من المحاضرات بمدرسة الليسيه الفرنسية بالإسكندرية.

وفي سنة ١٩٣٨ نال أعظم شرف يتمناه رجال القلم؛ حيث انتُخب عضوًا بالأكاديمية الفرنسية.

وفي سنة ١٩٣٩ سافر إلى الولايات المتحدة برًّا بما وعد به من الطواف بالمدن الكبيرة وإلقاء محاضرات بها، ثم عاد في نفس السنة إلى فرنسا، وكان الجو السياسي في أوروبا قد تسمم، فلما بدأت الحرب العالمية الثانية تقدم ليكون ضابطًا في الجيش الاحتياطي، ولكنهم ألحقوه بقوميسارية الاستعلامات، وهي هيئة فرنسية للدعاية لم تكن لها ميزانية، فما كاد يشكو من عقم أعمال هذه القوميسارية،

حتى تسلم خطابًا من القيادة البريطانية تدعوه إلى الالتحاق بالقوة الإنجليزية في فرنسا ليقوم بمهمة شاهد عيان فرنسي رسمي.

وبعد كارثة دنكرك انتقل إلى إنجلترا، حيث اشتغل بالإذاعة للجمهور الإنجليزي وسكان الدومنيون ليوقفهم على حقيقة الحال.

ولما كان قد تعهد بأن يلقي في أكتوبر سنة ١٩٤٠ سلسلة محاضرات في مدينة بوسطن بالولايات المتحدة حتى ولو لم تنته الحرب في ذلك التاريخ، ولما كان ذلك التعهد قد تم بالاتفاق مع وزارة الحرب الإنجليزية، فقد سافر إلى الولايات المتحدة لهذا الغرض. ولما ساءت الأحوال في فرنسا من جرَّاء الاحتلال الألماني، ظل موروا يتنقل في مدن الولايات المتحدة الشهيرة للتدريس أو إلقاء المحاضرات، وعاد إلى وطنه عقب انتهاء الحرب.

مؤلفاته

أخرج أندريه موروا أكثر من عشر قصص طويلة تُرجمت منها إلى اللغة العربية قصة «وازن الأرواح».

ومن التراجم أكثر من ست، تُرجم منها إلى اللغة العربية «حياة دزرائيلي».

ومن الرسائل أكثر من اثنتي عشرة غير هذا الكتاب.

ومن التاريخ كتابًا واحدًا وهو تاريخ إنجلترا، وقد تُرجم أخيرًا إلى اللغة العربية.

أسلوبه

أندريه موروا أديب ومؤرخ وفيلسوف. عبارته سهلة، ولكنها ليست خالية من الدقة والتعمق. أسلوبه رقيق محبب إلى النفس «كتب في التراجم والتاريخ كتبًا تفيض بالحياة لما تتضمنه من صور الحياة، وكتب قصصًا خيالية هي صور صادقة من الواقع، وهو في تراجمه وكتاباته التاريخية يصوغ بعض أحاديثه في قوالب قصصية خيالية تصور ما يريد قوله أصدق تصوير، ولو أنه أرسل هذه الآراء في عبارات صريحة واقعية، لأثار الخواطر وآلم بعض الأمزجة، ومن هنا كان من الحق أن نقرر أن قصصه تشتمل على فلسفة عميقة مستورة بستار ناعم شفاف».

* * *

١- الكـون والفكــر

أراني في هذه اللحظة أدير عينيَّ إلى نافذة مكتبي فيختلط فكري برهة بهذه الصور التي تبدو كأنها منقوشة على زجاج النافذة، ومن وراء هذه الشبكة الهندسية الحديدية التي تحيط بشرفة نافذتي أرى أمواج الغابة الخضراء تسبح في الضباب الرقيق اللا زوردي: ضباب أصباح باريس، ويبدو في الأفق صف من التلال، وعلى جبل فاليريان المغطاة جوانبه بأشجار داكنة يقوم مستشفى يذكرنا بدير فلورنتيني قديم تحيط به أشجار السرو القاتمة، وفي الجو الحائل تسبح سحب شفافة وتمر أسراب من عصافير السنونو. وهناك في الفضاء البعيد من ناحية فرساي تدور وتئز طائرات تثير في ذهني أفكارًا عن الحرب وقذف القنابل من الجو، وتذكرني بالمنذرات التي تخور في سكون الليل، ثم تغيب عن نظري صور تلك الأشجار كما تغيب عن سمعي أصوات تلك الطيور المغردة، ثم ينصرف ذهني إلى التفكير في حضارة زالت، ثم في نهاية الدولة الرومانية، ثم في مدينة صغيرة على ساحل بلاد الجزائر كانت حوالي القرن الثالث بعد الميلاد ثرية فاتنة، وبعد مائة عام لم تكن سوى خرائب حزينة مهجورة، فأفكر فيما عسى أن

تكون أطلال عواصمنا يومًا ما. وهكذا ليس المنظر الحالي للعالم هو وحده مادة هواجسي، بل تتداعى إلى صور هذا الحاضر صور من بلاد بعيدة وذكريات من أحداث قديمة، وتتصل بهذا كله فروض ونظريات عن مستقبل هو في طيات الغيب، فيبدو أن عقلي في تلك اللحظة هو عالم باطني ينعكس عليه العالم الخارجي الفسيح الذي لا يحده زمان ولا مكان.

يطلق الفلاسفة اسم «ميكروكُسم» على هذا المثال المصغر وهو عقلي، واسم «ماكروكُسم» على العالم الحقيقي الجبار الذي نعيش فيه ونتطلع إلى فهمه واستغلاله لمصلحتنا، وقديمًا كتب رجل من المشتغلين بعلم الكيمياء القديم في العصور الوسطى يقول: «مَثَل العقل كمَثَل الملاك يحيط بكل شيء في الماكروكسم» يريد أن العقل يحاول أن يلم بكل شيء وأن العالم ينعكس في ذهننا مشوهًا كما تنعكس صور السماء والأزهار على صفحة كرة معدنية، غير أن فرقًا واضحًا يفسد هذا التشبيه ويشوشه وهو أن المرآة (الميكروكسم) والمرئي (الماكروكسم) كلاهما في حركة دائمة؛ وليس هناك سوى صورة واحدة يلوح أنها واضحة بعض الوضوح وهي صورة سياج شرفتي، وهذه الأشجار وهذه التلال وهذه الطيور التي تكون الوضع الحالي من حيث الزمان والمكان. أما ما كان مجرد ذكرى أو توقعًا أو تدليلًا عقليًّا، فكلها صور تتماوج على هوى أمواج ذلك البحر الباطن وهو العقل. إن جهالاتي وشهواتي وأخطائي كل هذه تشوه حقائق الأشياء، على حين أن هذه الأشياء نفسها تتخذ في ذاتها في

كل لحظة أشكالًا جديدة عجيبة؛ فما الكون الفسيح في ذهننا سوى خريطة قد تشوهت أطرافها واعوجت خطوطها، ومع هذا لا بد لنا في كل لحظة من أن نتخذ على هذه الخريطة اتجاهًا معينًا. إن رغبتنا في التفكير تفرض علينا وقفة طويلة وبحثًا دائمًا ولكن حاجتنا إلى العمل تتعجلنا؛ فإذا لاحظنا مثلًا أن أحد أبنائنا آخذ في الضعف والذبول، قلنا: «ما مرضه؟ أجسماني هو أم نفساني؟ ومَنْ مِنَ الأطباء يجب علينا أن نستشيره؟ وما قيمة الطب؟ أهو علم حقيقي؟ وما العلم».

إن دراسة هذه المسائل دراسة جدية تستغرق العمر كله، ولكن ماذا نصنع؟ لا بد من الإجابة فإن مريضنا يخطو إلى الموت، ليس لدينا من الوقت ما يكفي لارتياد العالم الخارجي، والصورة الوحيدة التي نستطيع أن نسترشد بها هي تلك الصورة الضئيلة المضطربة التي يقدمها لنا العقل.

إن ما نسميه تفكيرًا هو ما نبذله من جهد حين نزاوج بين الصور والرموز؛ لنميز ونتوقع آثار أعمالنا في الأشياء الواقعية. فكل فكرة إن هي إلا صورة تخطيطية لعمل من الأعمال، وعلى هدي هذه الصورة نرسم برامج حياتنا. فلكي نُصوِّب أعمالنا يجب علينا كما قال بسكال: «يجب أن نجوِّد تفكيرنا بأن نجعل من مثالنا الباطني الصغير للعالم صورة أكثر ما تكون مطابقة للعالم الخارجي الحقيقي. فإذا طابقت قوانين عالمنا الباطن الصغير قوانين العالم الحقيقي الكبير على وجه التقريب؛ أي إذا كانت خريطتنا الداخلية قد رُسمت بدقة نسبية للبلدان التي قُدِّر لنا أن نجوس خلالها ونمشي في مناكبها، كان من حظنا أن

تجيء أعمالنا منطبقة على حاجاتنا ورغباتنا ومخاوفنا. فهل هناك طرق تسمح للإنسان بأن يوجه تفكيره بحيث تجد أعماله طريقًا ممهدًا لها بين الناس والأشياء؟ وهل في طاقة الإنسان أن يرسم في ذهنه خريطة صحيحة للعالم، وأن يقود سفينته طبقًا لهذه الخريطة نحو أهداف محددة حتى يصل سالمًا إلى المرفأ المختار؟ هذا هو موضوعنا.

٢- التفكير بالجسم

يظهر أن أكثر الأفكار انطباقًا على عالم الأشياء هي تلك الأفكار المنقوشة في الأجسام الحية على شكل غرائز وعادات، فالقط يثب على منضدة عليها أشياء كثيرة ويستقر عليها برشاقة ومن غير مجهود ظاهر، فلا يكسر فنجانًا ولا يهز آنية، مع أن هذه المجموعة من الحركات تتطلب حسابًا صارمًا للمجهود اللازم واختبارًا دقيقًا لنقطة الوصول، ولكن لا هذا الحساب ولا ذلك الاختبار كان من عمل الوعي، فإن القط قد فكر بعضلاته وبعينيه وتخيل -على هدي هذه الصورة الماثلة أمامه- حركات جسمه المقبلة، فأثارت صور هذه الحركات بدورها جميع الأوضاع التي يجب أن يتخذها رأسه وظهره وأرجله في كل لحظة. إنه يفكر بجسمه بنفس الطريقة التي يفكر بها لاعب التنس ولاعب الكرة ولاعب الشيش والبهلوان. فإن لاعب الشيش مثلًا ليس لديه الوقت الكافي لأن يحدِّث نفسه فيقول: «يهجم مبارزي مرتين ثم يتنحى فأرد عليه بالمفاداة مرتين ثم بالهجوم

مرة أو مرتين، بل إنه يفكر بسلاحه وأصابعه. لعبت في صباي الجمباز على الآلات، وكنت أعرف أنني لن أستطيع أن أقوم بتنفيذ تمرين على العقلة أو على المتوازيين إلا إذا تخيلته بدقة تامة؛ أي إذا رأيت بعين الخيال جسمي وهو يتأرجح وقست مدى تأرجحه، فإذا عرفت من خلال هذا التفكير الذي يسبق العمل الجزء من الثانية الذي يستغرقه انقباض عضل الذراع أو رفع الساق نحو العقلة حتى تكون الوثبة مدعمة، صارت جميع هذه الحركات سهلة كأنما حدثت بمعجزة. أما إذا وُجِدَتْ على هذا الشريط المصور أقل فرجة أو إذا كانت الصورة غير واضحة ولو في بضعة مليمترات، فإن توافق الحركات يضطرب ويبدو التنفيذ مستحيلًا. والمثَّال لا يعمد إلى زيادة تحديب قوس الفخذ مثلًا بعد تدليل عقلي، ولكن بين عينيه المركزتين على مثاله وبين أصابعه التي تداعب التمثال يحدث اتصال مباشر. وشبيه بهذا ما يحدث للاعب الجمباز والصانع الماهر والفنان. بل إن بعض الكائنات الحية تفكر بأجسام غيرها، فكل حيوان في القطيع يفكر بأجسام أترابه، فعندما يتولى الذعر قطيعًا من الغنم أو الخيل يتبع كل منها الفرد الذي أمامه، لا لأنه يعرف سبب الذعر أو يفهمه، ولكن لأن تجربة النوع المنقوشة على صفحة غرائزه علمته أن الفرد الذي لا يتبع باقي القطيع سيكون تحت رحمة أعدائه.

وعلى مثال هذه الحيوانات نرى الآدميين الذين ظلوا قريبين من حالة الوحشية، وكذا الأطفال والجماهير، كل هؤلاء خاضعون لتفكير غريزي جسمي.

رأيت على باخرة كانت تجتاز بنا الأطلنطي صبيًّا في الرابعة أو الخامسة من عمره عُهِدَ به إلى ربان السفينة، وأذكر أني لا أعرف فتى مراهقًا كانت له قدرة هذا الصبي على التمييز بكل إحكام بين ما يكنه له البعض من المحبة، وما يساور البعض الآخر من الضيق به، فكان يحب من يجب أن يحبهم ويجانب من يجب أن يبتعد عنهم، ولا شك في أنه كانت لديه علامات تخفى علينا هي التي تهديه في تصرفاته. راقب حبيبين يتصالحان بعد خصام، فلن تسمع منهما إيضاحات شفوية تهدئ من غضبهما، وإنما تصعد فجأة زفرة تتولد عنها ابتسامة، وتتلاقى النظرتان ويتقارب الجسمان، وإذا كل منهما بين ذراعي الآخر، وكل منهما موقن بهذا الوفاق أكثر مما لو جاء الصلح على إثر مناقشات وخطب طويلة.

٣- التفكير بكلمات

نخرج مما تقدم بأن هناك تفكيرًا جسديًّا يوجه أعمالنا توجيهًا عجيب الإحكام، ولكن المدى الذي يصل إليه هذا التفكير ليس بعيدًا، فالخلد (الفأرة العمياء) يفكر جيدًا بأرجله، ولكن تفكيره هذا لا يصل إلى أبعد من المدى الذي تصل إليه هذه الأرجل، فهو لا يعرف ولا يفهم أن أكوام التراب المتعددة البشعة التي تتكون على الحشائش الخضراء إنما هي نتيجة لحفره هو في أرض البستان، كما لا يفطن إلى حقد البستاتي عليه ولا يتصور عواقب هذا الحقد على

أبناء جنسه. ويأتي الطيار بأعمال غير إرادية في منتهى الدقة ترشده إلى وقت النزول، وتمكنه من الهبوط إلى الأرض سالمًا. هذا إلى أنه من المؤكد أن أيدي الطيار ليست هي التي اخترعت الطائرة.

أما رجل الدولة المكلف إدارة شؤونها المالية، فإنه لا يستطيع أن يفكر بجسمه، ولا يستطيع أن يكتفي بتكوين صور في ذهنه لما سيقوم به من الأعمال، كما فعل لاعب الجمباز؛ لأن الصور التي تثار في الذهن في هذه الحالة لا يكون لعددها حصر، فإذا كان عليه أن يقوم بتحسين الحالة الاقتصادية لملايين من الناس، فلن يستطيع أن يقول: «سأعمل كذا لأجل التاجر الفلاني أو الفلاح الفلاني أو العاطل الفلاني، بل لا بد له أن يستعيض عن هذه الصور المعينة المحدودة للناس والحقول والبيوت والأعمال برموز وإشارات، تمثل تارة إنسانًا أو شيئًا، وتارة طبقة بأكملها من الناس، هذه الرموز والإشارات هي الألفاظ والأرقام.

إن الرجل الذي يفكر بيديه -كالصانع والحاوي ولاعب الجمباز- إنما ينقل أشياء ثقيلة ذات مقاومة كالأحجار والكرات، أو ينقل جسمه بالذات، أما الرجل الذي يفكر بكلمات، فإنه لا ينقل سوى أصوات أو إشارات، مما يجعل عمله الجسماني يسيرًا إلى درجة عجيبة. خذ مثلًا: أنت جالس في الفندق صباحًا، فتدق الجرس وتنطق بكلمة «شاي» فلا تمضي بضع دقائق حتى يكون أمامك فنجان وصحن وملعقة وخبز ولبن وشيء من المربى وإبريق الشاي وماء ساخن. فكر في تلك الأعمال الواقعية المعقدة التي استلزمها تقديم

كل هذه الأشياء إليك، واستحضر في ذهنك صور أولئك الصينيين يزرعون الشاي وينتقون أوراقه، والسفينة التي حملت الشاي إلى بلدك، وربان هذه السفينة وبحارته وسط إعصار من أعاصير المحيط الهندي صمدوا له وجالدوه، ثم صورة ذلك الفلاح الذي قاد أبقاره إلى المرعى، وجامعي اللبن من القرى، ثم الخباز الذي صنع لك ذلك الخبز، والقرويات اللائي جمعن البرتقال الذي صنع منه هذا المربى. إنه كلمة مركبة من مقطع واحد جعلت كل هذه المخلوقات في خدمتك. إن أثر الرجل الذي يفكر بيديه في الكون محدود؛ فهو لا يستطيع أن يؤثر إلا فيما يلمسه، أما الرجل الذي يفكر بكلمات، فإنه يستطيع بغير مجهود أن يحرك جيوشًا، بل أممًا، بل قارات بأكملها. فينطق رئيس دولة من الدول أو رئيس حكومة من الحكومات بكلمة «تعبئة»، وإذا بهذا المجهود الضئيل الذي لم يتطلب سوى حركة من شفتيه لا تكاد تلحظ، قد أخرج رجال أوروبا من ديارهم وانتزعهم من أسراتهم، وإذا به قد أطلق في الجو أسرابًا من قاذفات القنابل تدمر مدنا عاشت ألوف السنين، فكأنه بذلك قد قضى بدمار عالم وعمل على فناء مدنية. فإذا ما فكرنا فيما يستطيع الإنسان أن يحدثه بكلمة واحدة من الآثار البعيدة، عرفنا لِمَ كان للغة عند الشعوب البدائية تأثير سحري.

كان الهنود -الذين رسمهم كپلنج في قصصه- يبحثون عن الكلمة التي تكون لها السيادة والتي تمنحهم السلطان على الناس والأشياء. وكان فاوست يتصفح كتب الكيمياء القديمة ليعثر على التعاويذ

السحرية التي تُستحضر أو تُصرف بها الشياطين. ويحدثنا القصاص في كتاب ألف ليلة أن كلمة «سمسم» كانت كفيلة بفتح الأبواب المغلقة الضخمة. نعم إن هذه مجرد أسطورة ولكنها أسطورة تمثل الواقع، ففي كل جماعة بشرية توجد كلمات تفتح الأبواب المغلقة وكلمات تطلق أبالسة الشر من عقالها. فالخطيب يهيج سامعيه بكلمة من طراز كلمة «سمسم»، وتوقظ الفتنة النائمة بكلمة من كلمات السيطرة ذات السر العظيم.

إن الرجل الذي يفكر بيديه ينقل أشياء ثقيلة -كما قدمنا- فهو ينقلها حجرًا حجرًا وحركة في إثر حركة، فحرصه مضمون بصعوبة أعماله نفسها وحاجته إلى ضمان هذا الحرص في إنجازها. ولا مفر له من مراعاة ذلك التوافق بين عالمه الباطني والعالم الخارجي الذي رأينا أنه الضمان لسلامة التفكير؛ لأنه إذا لم يلتزم مراعاة هذا التوافق تهشمت يداه بثقل الأحجار، أو أفلتت الكرة من يديه، أو سقط من العقلة التي يلعب عليها. أما الرجل الذي يفكر بألفاظ فإن الأعمال بالنسبة له سهلة، والفترة التي تنقضي بين خطئه وظهور نتائج هذا الخطأ عادة طويلة لا تجعله يقدر مسؤولياته؛ فهو إذ يلعب بهذه الرموز الخفيفة لا تخطر بباله الأثقال الرهيبة التي يجرها وراءه كل رمز من هذه الرموز، فهو كما قال ليبنتز: «تصرفه سهولة النطق بالكلمات عن إدراك حقائق الأمور»، ويحسب أنه متى نطق بتلك الكلمات فقد تم كل شيء، وعلى أحسن حال. ومصدر بلائه كله أن الأشياء تأبى أن تخضع خضوعًا مطلقًا للكلام، والقول أمر يسير على كل حال، فقد

قال نابليون الثالث: «لا بد أن يحترم مبدأ القوميات»، ولم تكن هذه سوى قالة، ولكن هذه القالة المطلقة -التي كانت تبدو كأنها حق لأنها لم تكن تثير في الذهن صورة دقيقة- قد مزقت أوروبا الحديثة.

وقد يجلس الاقتصادي إلى مكتبه ويتناول قلمه ويكتب: «زيادة الأجور تستتبع زيادة قوة الشراء وتقضي على الأزمة». هذه ألفاظ تنسجم فيما بينها انسجامًا كاملًا، ويبدو عليها طابع الأفكار السليمة، فينطق بها ذلك الاقتصادي في أتم اقتناع. ولكن الحركات التي استتبعتها هذه الكلمات لم تضع في الواقع حدًّا لهذا الاضطراب الاقتصادي. لماذا؟ لأن الميكروكسم (العالم الباطني) الذي صدرت عنه، لم يستطع أن يرغم الماكروكسم (العالم الخارجي) على متابعته إذ كان هناك خلاف بين الكلمات والواقع؛ إذ كانت الكلمات بسيطة مسرفة في البساطة، في حين كان الواقع معقدًا تعقيدًا لا يتفق مع بساطتها.

٤- المنطق والتدليل العقلي

إذا كانت وسيلتنا إلى الحكم على صحة الأحكام والقوانين هي انتظار ما يترتب عليها من السعد أو النحس، فإن ذلك يكون في منتهى الخطورة، لذلك كان من الطبيعي منذ بدء الحضارة أن يبحث العقلاء عن طريقة مأمونة لتناول هذه الرموز (أي الكلمات) القابلة للانفجار، فعمد الناس إلى تنظيم حركة الألفاظ كما ينظمون اليوم حركة المرور.

هذه الطريقة هي ما سموه فيما بعد علم المنطق. أرادوا أن يكون هذا المنطق هو الفن الذي يتبع عند تحريك الكلمات على مقتضى قواعد معينة تكون في ذاتها هي طريق الأمان؛ لأنها قواعد العالم الباطني التي تتفق مع قواعد العالم الخارجي. فما نسميه قواعد العقل الإنساني هي بضعة ضوابط للفكر تكون صحيحة بالنسبة لجميع الناس في جميع الأزمنة، وبعض هذه القواعد بديهي كقاعدة عدم التناقض: فالشيء وضده لا يمكن أن يكونا في نفس الوقت شيئًا واحدًا، فلا يمكن أن يقال: «إن اثنين واثنين أربعة»، ثم «إن اثنين واثنين خمسة»، ولا يمكن أن يقال: «إن هذا الثوب أبيض وأسود في نفس الوقت»، أو: «أريد أن يكون هذا البلد حرًّا» وفي نفس الوقت: «أريده أن يكون مستعبدًا».

وقد اتجهت آمال الإنسانية زمنًا طويلًا إلى استنباط «نحو» للفكر يعصمه من الخطأ، هذا «النحو» هو الذي عُرف في العصور القديمة باسم منطق أرسطو، وفي العصور الوسطى باسم منطق المدرسيين، وقد كان في ذاته علمًا جديرًا بالاعتبار؛ لأنه يعصم تفكيرنا من بعض الأخطاء، ولكنه لا يكفي وحده لأنه يكون فنًّا للتفكير وإليك السبب:

لن يستطيع المنطق أن يخلق شيئًا جديدًا، فقد قضى عليه أن يكرر إلى الأبد أن «أ» هي «أ»، وإذا أضاف شيئًا، فلن يستطيع أن يستعير هذا الشيء إلا من التجربة أو من الإلهام وكلاهما لا يخضع لسلطانه؛ لأن هذا المنطق يجعلك قادرًا على أن تقول «إن هذا ثوب» ولكن التجربة وحدها هي التي تمكنك من أن تقول: «إن هذا الثوب مثني» أو «إنه سريع البلى». أما أن تنتظر أن العقل المجرد يستطيع أن يستغني عن التجربة،

فهذه خرافة قضى عليها الفيلسوف كانط بقوله: «لما كان العقل مدفوعًا بميله إلى توسيع أفق معلوماته لثقته في قدرته الذاتية، فقد خيل إليه أنه محيط بعالم اللا نهاية الذي ينفسح أمامه. فمثله كمثل الحمامة، وهي الخفيفة الوزن عندما تشق الهواء بطيرانها السريع وتشعر بمقاومة ذلك الهواء لها، فيخيل لها أن طيرانها في الفراغ سيكون أسهل». وعلى نحو شبيه بذلك، ضاق أفلاطون بعالم الحس الذي يحصر العقل في حدود ضيقة، فاندفع مخاطرًا فيما وراء ذلك من آفاق التفكير المطلق، ولم يدرك أنه لن يتقدم برغم مجهوداته؛ إذ تنقصه نقطة الارتكاز اللازمة التي لا مفر له من الاعتماد عليها، ومنها يمكن أن ينتقل إلى مجال العقل المطلق. ويضطرب الكثيرون من مصلحينا السياسيين بغير جدوى في فضاء العقل المطلق وهو ليس في الواقع سوى فراغ.

لا جدال في أن المنطق قد روض العقول وألانها وأكسبها سرعة لم تكن لها من قبل، ولكنه أورثها في الوقت نفسه عادة خطرة، وهي أنها اعتقدت أنها تستطيع أن تكسب كل شيء متى جاءت بدليل عليه مظاهر الصدق. ولكن تاريخ المذاهب يدلنا على أن الناس قد استطاعوا على توالي العصور أن يبرهنوا على صحة كل شيء تقريبًا، فقد أثبتوا صحة فلسفات متناقضة، ثم أثبتوا خطأها، كما أثبتوا لزوم الديموقراطية، ثم أثبتوا استحالتها، وأثبتوا تميز الأجناس البشرية ثم أثبتوا اختلاطها. قال الفيلسوف آلان: «ليس عندي لأي دليل قيمة أو اعتبار»، وفي الواقع يمكن إقامة الدليل على صحة أي شيء متى كانت الكلمات المستعملة لم تحدد معانيها بوضوح.

في علم الجبر يكون البرهان دقيقًا لا ينقض؛ لأن كل تعبير محدد بدقة تجعل المدلِّل لا يستطيع أن يضيف شيئًا من عنده إلى ما يفهمه السامع من هذا التعبير، فالمتطابقات هي متطابقات صحيحة حقًّا. ولكن الألفاظ التي تصلح للتعبير عن المشاعر وعن سياسة الدول وعن شؤون الاقتصاد، هي ألفاظ مبهمة يمكن استعمالها عند التدليل بمعان مختلفة، فمثل التعبير بلغة غير محكمة الوضع كمثل القياس بأوزان مزيفة.

٥- طريقة ديكارت

هي محاولة لتخليص التدليل المنطقي من بعض أسباب الخطأ.

قال ديكارت: «كانت لي رغبة شديدة في أن أتعلم كيف أميز الخطأ والصواب؛ لأتبين أعمالي بوضوح، فأسير بأمان في هذه الحياة».

فلنستعرض الآن تلك القواعد الشهيرة التي هي جماع فن تفكير هذا الفيلسوف.

أولى هذه القواعد هي: «لا تقبل شيئًا على أنه حقيقة ما لم تتبين بداهة أنه كذلك». ربما خُيِّل إليك أن هذه القاعدة غاية في البساطة فقلت: «كيف أقبل شيئًا على أنه حقيقة إذا كنت لا أعتقد أنه كذلك؟».

فيجيبك ديكارت بقاعدة أخرى وهي: «إياك والتسرع ثم إياك والتحيز». أما عن التسرع فلأن الإنسان لا يستطيع أن يفهم الصعب

بسهولة، فالطالب الذي يتخطى صفحات بأكملها من كتاب في الهندسة سيظل جاهلًا بعلم الهندسة. ولكن الناس خلقوا عجلين: بعضهم بضغط الضرورة، فهؤلاء طلبة عليهم أن يؤدوا امتحانًا في ميعاد معين، فعليهم أن ينتهوا من دراسة علم من العلوم أو عصر من عصور التاريخ من الآن إلى أن يجيء يوم الامتحان؛ وهذا خبير حدد لتقديم تقريره يومًا معينًا، والحكومة في انتظار هذا التقرير، فإذا تأخر تقديمه اضطر رجال الدولة إلى اتخاذ قرارات مرتجلة، فالأفضل في هذه الحالة أن يقدم تقرير ناقص عن ألا يقدم تقرير بالمرة. وهذا صحفي يود لو يفسح له في الوقت بضع ساعات لدراسة موضوع جديد غامض، ولكن عمال المطبعة يستعجلون مقالته عن هذا الموضوع، ويجب أن تدرك الجريدة القطار في وقت معين. وبعض الناس يتسرع بدافع الغرور، يكبر عليهم أن يعترفوا بجهلهم للأمور: هذا إحصائي يرى العار أن يقول: «سأبحث» أو «سأستعلم».

أنصت إلى ما يجري في المجالس النيابية وفي الصالونات وفي مجالس النقابات، تَرَ كيف يحكم الناس على الأمور بلهجة الاقتناع، فواحد يحدثك عن تشيكوسلوفاكيا أو أثيوبيا أو المجر، وهو لم يزرها، بل لم يطَّلع على تاريخها ولم يدرس أخلاق أهلها. وثان يحقِّر من شأن سلاح الطيران في بلاده ولا يعلم عنه سوى ما سمعه من أقاويل استقاها ممن لا يُوثق بهم. وثالث يقع في عرض امرأة، فيحدثك عنها بكل ثقة أحاديث ويقص عليك روايات كلها كذب وبهتان، مع أنه من الميسور أن ترتفع هذه الأحاديث عن مستوى هذا الإسفاف باستعمال

كلمتين اثنتين: «لا أعرف»، أو تلك العبارة الأثيرة عند لويس الرابع عشر: «سأرى»، فلو أننا عاهدنا أنفسنا على ألا نتخذ قرارًا على إثر دهشة، أو نندفع في إصدار حكم جريء، لخطونا خطوات واسعة نحو حكمة ديكارت. وليس الاندفاع وحده هو سبب الخطأ، بل هناك سبق الظن أو التعصب أو الميل مع الهوى، فنفوسنا ليست مرايا مستوية، بل هي مرايا مشوهة لا تستقبل الأمور بصفحة نقية، بل بصفحة قد اختلطت عليها تقاليد الأسرة والنعرة الحزبية، ثم هناك الطبع والوراثة والتربية وكلها تفرض علينا أحاسيس معينة.

أتحب أن تقف على مدى تأثير الأهواء الحزبية في عقلك؟ استعرض لنفسك تلك الأحكام المتتالية التي كنت تصدرها على كليمنصو وكايو ودلادييه، تبعًا لما كانت تخلعه عليهم جرائد حزبك من لون إن أبيض فأبيض، وإن أسودَ فأسودُ. لقد كنت تعبدهم أو تحقد عليهم بسلامة نية لا بسلامة نظر.

ومصلحتنا، هي الأخرى سبب من أسباب ميلنا مع الهوى، قال بسكال: «لو أن الهندسة كانت تتعارض مع شهواتنا بقدر ما تتعارض السياسة مع هذه الشهوات، لما وصلت البراهين الهندسية إلى هذا الإحكام». أين هم الذين إذا عُرض عليهم مشروع قانون بفرض ضريبة من الضرائب، لا يحسبون ما ينالهم من هذه الضريبة قبل الموافقة على القانون المطروح للمناقشة؟ إنهم أقل من القلة، فكل ما يساير ميولنا وشهواتنا نراه حقًّا، وعلى العكس كل ما يعارضها يغضبنا. أمعن النظر مثلًا في حياة شاتو بريان السياسية، تَرَ أن الثورة الفرنسية جعلته

وهو في منفاه من أنصار الملكية الدستورية على النمط الإنجليزي، ولما عادت الملكية إلى فرنسا وحاول لويس الثامن عشر أن يجعل حكومة فرنسا على هذا المثال، كان المنتظر من شاتو بريان أن يؤازر مجهودات الملك من كل قلبه، ولكنه كان منقادًا لشهواته وكان حاقدًا؛ لأنهم لم يعهدوا إليه بتنفيذ هذه السياسة، ولأنهم عاملوه معاملة غير عادلة، ولهذا حنق حنقًا شديدًا على الملك وعلى ديكاز وعلى ڤليل من بعده. ومن ثم نراه قد انساق إلى محاربة عقيدته الأولى نفسها ببراهين كانت تبدو مقنعة لما في أسلوبه من بلاغة، ولكنها براهين بغيضة في الواقع. وليس يجر المرء إلى السخف والتناقض شيء مثل الهوى، فمتى تحكَّم الحب أو البغض سار العقل في ركابه واصطنع من الأسباب ما يبرر حماقاته، ما دام في استطاعتنا أن ندلل على كل شيء بالقوة متى شئنا.

يظن البعض منا أنه مستقل عن رأي أهل بلده أو الوسط الذي يعيش فيه؛ لأن الحوادث التي صادفته في حياته قد أوحت إليه بشعور من التمرد، ولكن العداوة ليست ضمانًا لاستقلال الرأي، بل هي على النقيض من ذلك حالة حادة من حالات التحيز. نرى الكاتب الذي ذاق مرارة طفولة معذبة، ينزع إلى التفاخر بحرية الفكر بأن يطعن في الأديان وفي روابط الأسرة، ولكن ثورته على هذه النظم لن تكون إلا كثورة العبيد. ويخيَّل إلى المهاجر الذي يترك بلده أنه يصدر في تصرفه عن استقلال فكر بطعنه في ذلك الظالم الذي هجر البلد فرارًا من ظلمه، ولكن هل له الصفة التي تخوله الحكم على بلد أساء إليه وعلى طريقة

الحكم في هذا البلد؟ هذا ما لم يكن ليسلم به ديكارت، فإن بعض الناس يفكر متأثرًا بعصبيته، وبعضهم يفكر بعكس هذه العصبية، والشكلان مختلفان ولكنهما متساويان في التحيز، والذي ينصحنا به صاحب كتاب «مقالة المنهج» (وهو ديكارت) هو أن نخلص عقلنا من الشهوات قبل كل شيء ثم نحسن استعماله بعد ذلك، ووضع لنا ديكارت لذلك بعض القواعد مثل: (١) أن نلتزم الترتيب في قيادة أفكارنا فنسير بها من أبسطها إلى أعقدها. (٢) أن نقسم الصعوبة ما أمكنت التجزئة. (٣) أن نحصي كل جزئية ونستعرض الموضوع استعراضًا شاملًا حتى نتأكد من أننا لم نغفل شيئًا. وقد أدت هذه الطريقة إلى نتائج باهرة: (أولًا) فيما يختص بديكارت نفسه، ثانيًا فيما يتصل بالعلماء المعاصرين له الذين ساروا على منهاجه، فقطعوا شوطًا بعيدًا في الرياضيات والميكانيكا والفلك وفي جزء كبير من علم الطبيعة. وما زالت هذه القواعد قائمة. وقد صدق بيجي حين قال: «لم يقض كانط على ديكارت كما قضت عجلات المطاط الجوفاء على عجلات المطاط الصماء. ولقد ظلت طريقة ديكارت ناجحة نجاحًا عجيبًا سواء أكان على العقل أن يكشف عن قوانين نفسه كما في الرياضيات، أم كان عليه أن يدرس ظواهر بسَّطها التعميم وقياس الأبعاد، كما في علم الفلك، ولم يرَ أحد أنها عديمة الفائدة، بل كان أقصى ما لُوحظ عليها أنها لا تكون كافية عندما يراد تطبيقها على علوم أخرى أكثر تعقيدًا. ففي جزء كبير من علم الطبيعة وفي الكيمياء والطب والبيولوجيا (علم الحياة) وفي السياسة والاقتصاد، لا تمكننا

طرق ديكارت من حل الصعوبات ولا تكفي لتوجيه أعمالنا ولو أنها ما زالت تعتبر ضابطًا ضروريًّا. فكيف نسير بأفكارنا بالترتيب عندما يكون عامل الوقت هو العامل المسيطر في الموضوع مثلًا؛ ثم كيف نستطيع أن نقسر أنفسنا على ألا نستبعد شيئًا إذا كانت عناصر المسألة تفوق الحصر؟ إن طريقة ديكارت ترسم في أذهاننا عالمًا صغيرًا من البللور والصلب تتشابك أجزاؤه بإحكام عجيب، ولكننا نعلم أن العالم الخارجي الفسيح لم يخلق على صورة هذه الساعة الدقيقة الشفافة؛ فأوراق الشجر التي تلعب بها الرياح وهذه السحب التي تكتسحها العاصفة وأعمال الحقول وأهواء سكان المدن، لا موضع لها في هذه الطريقة.

٦- الطريقة التجريبية

هذه بذرة تفاح، فأي تدليل عقلي مهما كان محكمًا وبعيدًا عن التسرع مبرأً عن التحيز، سوف يعيننا على تقدير ما ستكون عليه الشجرة التي ستخرج منها أو طعم الثمار التي ستحملها؟ وهذه جرثومة (ميكروب) غير معروفة، فهل هناك قياس منطقي أو نظرية تجعل في قدرتنا أن نصف المرض الذي ستحدثه في جسم الشخص الذي سيصاب بها؟ هذه أسئلة لا توجه إلى العقل، بل توجه إلى الطبيعة نفسها أي إلى عالم الأشياء. إن الطريقة التي جعلت للإنسان منذ قرنين تلك السيطرة على العالم الخارجي، إنما هي مزيج من

المنطق والمشاهدة والتجريب، وهي لا تخلو من التدليل العقلي، ولكن نتائج هذا التدليل يجب أن تقارن دائمًا بالواقع المحسوس، فإن طابقته كانت مقبولة، وإن تعارضت معه كانت مرفوضة بغير هوادة.

تنسب الطريقة التجريبية أحيانًا إلى بيكون؛ إذ ربما كان هو أول من وضع قواعدها، ولكن الواقع أن الناس كانوا يمارسونها منذ القدم من غير تفكير، فكل إنسان من المتوحشين كان يقوم بعملية التجريب دون أن يشعر، كما كان المسيو جوردان يتكلم بالنثر من غير أن يعرف. وليس منا من لا يمارس طريقة التجريب عدة مرات كل يوم. هذا مكتبي قد هاجمته الزنابير في الصباح، ماذا أصنع؟ إنني أبحث أولًا عما عساه يجتذبها إلى ناحية المكتب. ربما كانت هي رائحة تلك القرنفلات التي على المنضدة، ثم يعن لي صدفة أن أخرج الأزهار من الحجرة فأفعل، فتختفي الزنابير في بضع دقائق. ثم أعمد إلى البرهان العكسي بأن أضع نفس الأزهار في الحجرة المجاورة، وإذا الزنابير تعود. وعلى ذلك أكون قد اكتشفت أحد قوانين الطبيعة، فآمر بناء على ذلك ألا توضع هذه الأزهار على منضدتي في مثل هذا الفصل من السنة.

والطريقة التجريبية بسيطة جدًّا متى اقتصر الإنسان منها على العناصر الأساسية، وتنحصر هذه العناصر كما قال كلود برنار: «في إخضاع أفكارنا بنظام إلى امتحان الحوادث»، فإن مشاهدات خاصة توحي إلينا بفروض خاصة عن العلاقات بين الظواهر. ولتحقيق صحة هذه الفروض، يقوم العالم نفسه بمشاهدات جديدة أكثر دقة.

ويقول كوڤييه: «إن من يقوم بالملاحظة يصغي إلى الطبيعة، في حين أن من يجري التجارب يستجوبها ويرغمها على كشف قناعها، يغير علة ظاهرة من الظاهرات مثلًا ويسجل أمامي ما يطرأ على النتيجة من تغير، فإذا لاحظ علاقة ثابتة بين العلة والنتيجة، تحقق من وجود رابطة بينهما. ولكن الخطأ محتمل الحصول يفوتنا أن هذا الأمر قد أعقب حدوث ذاك فيكون قد حدث بسببه إذَنْ» بديهي في ظاهرة، ولكنه كثيرًا ما يكون قاعدة صحيحة، فإذا تصادف وقوع حرب عقب كسوف للشمس فلا يكون ذلك دليلًا على أن الكسوف قد سبَّب الحرب. ومن طريف ما يُحْكَى في أكسفورد قصة ذلك الطالب الذي كان يجرع كل ليلة عدة كؤوس من الويسكي بالصودا يجد أن ذهنه قد تشوش بعدها، فترك الويسكي وصار يتعاطى البراندي بالصودا، فوجد أنه ما زال يسكر، ولم تتغير الحال عندما شرب الچن بالصودا، فقال: «لم يعد هناك شك. إنها الصودا الملعونة». ولو أن هذا المخدوع بتجربته كان أكثر تعقلًا، لحاول امتحان النتيجة التي وصل إليها فحذف الصودا وتناول الويسكي فالبراندي فالجن على التوالي واكتشف ما وقع فيه من الخطأ. فالعالم هو شخص يستنتج من مشاهداته ومن تجاربه فروضًا عن الروابط الثابتة بين الظواهر، فإذا امتحن هذه الفروض بكل التجارب التي يمكن إدراكها وثبت له اطرادها، اعتبرها بصفة مؤقتة قوانين طبيعية. مثال ذلك أنني كلما تركت شيئًا في الهواء على مسافة من الأرض رأيته يسقط عليها، وقد ظهر أنه يمكن أن تقاس سرعة سقوطه وأن «عجلة» السقوط في مكان معين ثابتة، وعلى هذا

نسلم بوجود قوانين لسقوط الأجسام. وليس يعد العلم -الذي هو مجموع أمثال هذه المشاهدات- تفسيرًا للكون بحال، وإنما هو كما قال فاليري: «مجموعة وصفات نجحت»، ومن الجائز ألا تنجح هذه «الوصفات» في المستقبل. فإذا حدث في هذه اللحظة مثلًا أنني تركت الكتاب من يدي فصعد إلى السقف بدلًا من أن يسقط على الأرض، فإني سأدهش لذلك، ولكن العلم في الوقت نفسه لن ينقلب رأسًا على عقب، وإنما يكون المطلوب أن نبحث عن قانون أكثر تفصيلًا يدخل في حسابه هذه الظاهرة الجديدة.

لا يفرض العلم التجريبي سوى فرض واحد وهو ثبات قوانين الطبيعة، فإذا لم نعتقد أن العالم يخضع -أو يلوح أنه يخضع- لقوانين ثابتة لم تكن هناك فائدة من ملاحظة الظواهر، فإذا كان الماء تحت ضغط ثابت يغلي يومًا في درجة ٥٠ ويومًا في درجة ٧٥ ويومًا في درجة ١٠٠ من غير أن نكتشف وسيلة للتنبؤ بهذه التغيرات، لم تكن هنالك أي فائدة من دراسة علم الطبيعة، ولكن الأمر ليس كذلك لحسن الحظ. فإن الظواهر الطبيعية تبدي ثباتًا عجيبًا. لماذا؟ هنا نجد لكل من الباحث فيما وراء الطبيعة وعالم اللاهوت وعالم الرياضة نفسه تعليلات مختلفة لهذا الموضوع، أما الباحث التجريبي فلا يدري عن هذه التعليلات شيئًا، وماذا يهمه من أمر هذه التعليلات؟ إن لديه أمرًا مقررًا، وهو أن الطريقة التي تنحصر في مشاهدة الظواهر، واستخلاص فروض من هذه الظواهر، والتحقق من صحة هذه الفروض بالتجربة وإهمالها إذا لم تثبت صحتها، ثم تسيير أعمالنا بمقتضى هذه القوانين

الواضحة الثبات، هذه الطريقة التي قال عنها باكون إنها تتسلط على الطبيعة بالخضوع لها قد أتت بالعجائب.

تسمح الطريقة التجريبية للإنسان أن يكون أقوى من الإنسان[1]؛ إذ إنها تقيم علاقات ثابتة بين بعض الظواهر التي في مقدور القوى الإنسانية إحداثها، وبين بعض الظواهر الأخرى التي تتطلب من الإنسان قوى فوق طاقته لو أراد إحداثها بطريقة مباشرة. فإذا ضغط صبي بإصبعه على زر صغير فحرك جميع الآلات الموجودة في أحد المعارض مثلًا، فإن هذا المنظر يكون رمزًا لما يضعه العلم من القوة في خدمة أصغر أبناء آدم، وهي قوة مدهشة حقًّا! إنه لمما يستحق الإعجاب أن تصل حشرة صغيرة قُذِف بها وسط هذا الكون على قطعة من الطين لا إلى قياس البعد بين كرتها الصغيرة والعوالم الأخرى فحسب، بل إلى تغيير جو هذه الكرة ونباتها وحيوانها في بضع سنين. من العجائب حقًّا أن يصنع هذا المخلوق الضئيل من الآلات ما يطوف حول كرته في ساعات، بل من العجائب أن يتغلب على البرد والظلام والجوع.

أعود فأقول: إن الطريقة العلمية لا تفسر أسرار الكون ولن تفسرها أبدًا، ولكن من الطبيعي أن الكثير من الناس يتساءلون -عندما يرون السلطان الذي يسرته هذه الطريقة للإنسان على الظواهر الطبيعية والكيميائية حتى البيولوجية- لِمَ لا يطبق على الجماعات الإنسانية

(١) أي أنها تعطي الإنسان قوة فوق قوته.

هذا الفن من فنون التفكير الذي قُدِّر له كل هذا التوفيق عندما طُبِّق على العالم الطبيعي؟ لِمَ لا تكون نفس هذه الطريقة -التي أدت إلى خلق هذه المصانع الهائلة بآلاتها الضخمة من الصلب والنحاس التي حلَّت محل الأيدي البشرية- صالحة لإسعاد من استغنى عنهم بتلك الآلات؟ لِمَ لا تكون الطريقة التي مكَّنت من خلق سلالات من الحيوان وأنواع من الزهور كفيلة أيضًا بخلق السوبر مان؟ كان اللورد سالزبري إذا رأى أبناءه يتكلمون بحماسة في السياسة قال لهم: «فلنحاول أن نفكر في هذا الأمر بطريقة الكيميائيين»، يقصد بذلك: «فلنعامل العناصر الإنسانية كما نعامل العناصر المادية في تجربة كيميائية؛ فلا نتعجل الحكم على نتيجة التجربة، بل نضع المواد في البوتقة ونسخن ونراقب التفاعل، فإذا جاء مخالفًا لعقيدتنا تركنا هذه العقيدة»، وهكذا تكون سياستنا للناس سياسة علمية. ولكن هل هذه السياسة ممكنة؟ وهل يكون العلم بالنسبة للناس هو الكلمة الأخيرة لفن التفكير؟

٧- وجوه النقص في الطريقة التجريبية

ينبغي أن نقرر آسفين أن الطريقة التجريبية لم تهيئ لنا -بعد عشرات السنين التي فاضت بالآمال الكبيرة، وتوقع رينان في مطلعها أن يرى كوكبنا وقد حكمه أعضاء من المجمع العلمي، وتخيل برتراند رسل في نهايتها أنه سيأتي يوم تُصْنَع فيه آلة تستطيع أن تحدد على وجه الدقة ما حدث في يوم كذا وفي ساعة كذا من التاريخ، وما سيحصل في يوم

كذا وساعة كذا في المستقبل- إلا النذر القليل من النتائج الموفقة في ميدان الأخلاق والحياة السياسية والاجتماعية، بعد أن منحتنا السيطرة على العالم الخارجي. ومن اليسير أن ندرك الأسباب:

١- يستلزم التجريب وجود نظام مقفل أي محدود يمكن عزله بطرق صناعية، فإذا أردنا أن نعرف الشروط التي يجب توافرها لغليان الماء، اتخذنا لذلك مجموعة من الأشياء: مصدر حراري وإناء وماء ووضعنا ذلك كله تحت ضغط معين، وبذلك نكون قد أبعدنا هذه المجموعة عن معظم المؤثرات الخارجية. ولكن كل تجربة من هذا النوع تصبح مستحيلة إذا أردنا إجراءها على جماعات من الناس معقدة التركيب، لا نستطيع أن نجزئها لنحصل منها على مجموعة مقفلة يمكن أن تعزل عن باقي الجماعة.

٢- يقتضي التجريب أن تكون التجربة من النوع الذي يمكن تكراره عند اللزوم، ثم اختباره بتجارب مضادة وتجارب مؤيدة، ويصعب توافر هذه الظروف في علم النفس ويستحيل توافرها في علم الاجتماع. فمثلًا: مَن هو السياسي العاقل الذي يحاول أن يحذف من المجتمع طبقة من المواطنين ليرى ما يحدث بعد ذلك؟ وأين هو الشيوعي الأمين الذي يسلم بإعادة الرأسمالية في سبيل الوصول إلى تجربة مضادة نزيهة؟

٣- تستوجب الطريقة التجريبية حسن نية المجرب وحياده التام، وهذه فضائل لا تتوافر إلا نادرًا في القائمين بالتجارب العلمية التي

يلوح بطبيعتها أنها لا تثير شيئًا من الشهوات الجامحة؛ فهي تصبح فوق طاقة البشر متى لعبت بها الميول والأهواء. يستلزم البحث التجريبي ألا يتشبث العقل مطلقًا بفرض من الفروض مدفوعًا بشهواته، فقد قيل: «إذا كان الواجب الأول على العالم أن يكتشف طريقة ما، فإن واجبه الثاني هو أن يقف منها موقف المعارض، أو أن ينظر إليها من غير تحيز على الأقل. ولكن الإنسان إنسان، وكل ما يعتقد أنه أوجده لا يعده غريبًا عنه. فإن بوشيه مثلًا، لم يكن يريد أن يسلم بأن الحق في جانب بستور، وذلك العالم الذي ظن أنه كشف عن أشعة «ن» لم يكن يريد أن يسلم بأنه أخطأ. وقد يحدث أن الرغبة في كشف قانون خاص تجر الباحث بغير علم منه إلى الانحراف بنتائج تجربته إلى الوجهة التي يتمناها. وفي ميدان الطب يعتقد كل إخصائي -بحسن نية في الغالب- أن حالة كل مريض تدخل في اختصاصه، فيقول لك الطبيب النفساني: «إن كل الأمراض على وجه التقريب هي أمراض نفسانية»، ويرى الإخصائي في أمراض الغدد الصماء أن هذه العلة أو تلك منشؤها هذه الغدد، بينما يرى الإخصائي في أمراض المعدة أن هذه العلة داخلة في اختصاصه، مع أن الطب في بعض نواحيه هو علم موضوعه جسم الإنسان المحدود الذي يمكن عزله ولو جزئيًّا عند التجربة، ولكن عندما تكون شهوات الملايين من الناس وتفاعلاتهم هي موضوع الفحص والعلاج -كما يحدث في الأمور الاقتصادية أو السياسية- يستطيع الإنسان أن يؤيد أكثر النظريات تناقضًا، ففي استطاعتك أن تقول إن التجربة قد أدانت الاقتصاد الحر الذي ساد

في القرن التاسع عشر، بدليل أن هذه الحرية قد أدت إلى الاشتراكية أو الشيوعية في الوقت الحاضر، كما يمكن في نفس الوقت أن يقال إن التجربة قد أدانت الاشتراكية أيضًا، إذ إن هذه الاشتراكية انتهت مرغمة إلى تعضيد ونشر أشكال من الملكية الفردية بين الجماعات التي كانت تغزوها زاعمة أنها ترمي إلى إنقاذها من الإفلاس الشامل.

فهل في الإمكان استنباط قوانين من أمثال هذه التجارب؟ لا بلا شك؛ لأن ما يثبت صحة التجارب العلمية هو كثرتها وإمكان إعادتها، ولكن كل تجربة في الاقتصاد تستغرق أعمار أجيال من الناس، فما يسمونه تجربة روزفلت وتجربة بلوم، ما هي إلا بعض أوجه من دورات أبهظ كلفة من أن نمضي فيها باختيارنا، وأبعد مدى من أن نحيط بها إحاطة تامة، وأشد غموضًا من أن تتعلم منها الأجيال المقبلة التي لن يكون موقفها مماثلًا لموقفنا بحال.

وما يصح في الاقتصاد يصح أيضًا في السياسة؛ قيل لنا: إن إنجلترا قد جربت الديموقراطية وانتهت تجربتها بنتيجة سعيدة. وليس في هذا الدليل ما يمتّ إلى العلم بصلة؛ لأن الأمم الأخرى تخالف الأمة الإنجليزية، وليست الديموقراطية إلا لفظًا يخفي تحته حقائق أخرى، وليست حقائق الحياة في إنجلترا هي حقائقها في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، إن الديموقراطية الإنجليزية تستلزم ظروف الحياة السياسية الإنجليزية التي من خصائصها: ذوق المناقشة والميل إلى التحكيم وتدفق الحيوية في إنجلترا؛ والاتفاق بين أرستقراطية صريحة يتسع صدرها فتفسح إلى جانبها مكانًا للبرجوازية وائتلاف بين البرلمان

والعلية من أهل البلاد، فهي ملكية دستورية.

والمقابلة بين الديموقراطية والفاشية إن هي إلا مقابلة بين لفظين لا بين حقيقتين أو بين تعريفين محددين؛ فبين الحرية الكاملة والسلطة المطلقة يمكن أن نتصور أنماطًا لا عداد لها من الجماعات الإنسانية وجودها محقق بالفعل. بربك كيف نستطيع إجراء تجارب يكون الغرض منها معرفة ما إذا كانت الحرية أفضل من السلطة المطلقة، ونحن نعلم أنه ليس هناك مقياس لدرجة الاستعداد للحرية عند إحدى الأمم؟ ليس معنى هذا أننا لا نأمل في أن نجد عند كل أمة قدرًا ما من الحرية، وليس معناه أنه ليست هناك حقيقة سياسية، وإنما معناه أن هذه الحقيقة يجب أن تكشف بطرق غير طرق العلم.

أنفكر كيميائيًّا في المنازعات السياسية والاجتماعية؟ ربما كان من اللازم أن نحاول ذلك، ولكن الأمانة تقتضينا أن نسلم بأن هذا يكون من المستحيل في أغلب الحالات. لهذا نرى الكثيرين من الرجال معقولين ما داموا يتكلمون في مهنهم، ولكنهم يضلون متى انتقلوا إلى المبادئ. عندما يكون المطلوب إصلاح إحدى التركيبات الكهربائية، فإن العالم الصغير الذي يمثل هذه التركيبة في ذهن المهندس يكون خريطة على درجة من الدقة تسمح لهذا المهندس بأن ينتقل بين الأسلاك والبكرات بكل أمان، ولكن عندما يراد إصلاح بلد من البلاد لا تكون هناك أي خريطة لحياة هذا البلد الاجتماعية تسمح لنا بأن نهتدي إلى طريق السعادة والنجاح. كما أن التدليل العقلي المحض أو الطريقة التجريبية المطبقة بكل دقة لن يرشدا وزيرًا أو مدير عمل أو قائد جيش.

ومع كل هذا، فلا بد أن يعمل هؤلاء، وأن ينتهوا إلى قرار. فما العوامل التي تجعلهم يختارون بين هذا الطريق أو ذاك؟ يقول آلان: «إن التنفيذ يجب أن يسبق الإرادة»، وهي فكرة عميقة نلاحظها بمجرد شروعنا في العمل، فالكلب الذي نلقيه في الماء يسبح، يسبح قبل أن يريد السباحة، ونحن جميعًا منذ ميلادنا نكون عبارة عن حيوانات صغيرة أُلقي بها في خضم الأمور فتسبح، تُصيب مرة وتُخطئ مرة. فالكاتب الذي يشرع في كتابة قصة لا يدري ما يريد أن يكتب على التحديد؛ إذ لو كان يعرف ما يريد كلمة كلمة، لكانت قصته قد كُتبت من قبل، والذي يحدث أنه يلقي بنفسه في الماء، وكل فصل يكتبه يملي عليه الفصل الذي يليه، أي أن التنفيذ يسبق العزم.

قد يكون تصميم المشروع قبل تنفيذه شيئًا ضروريًّا، ولكن وضع المشروعات ليس هو العمل وإننا لنسمع في المجتمعات خطباء يعرضون مشروعات مدهشة؛ فيقول أحدهم: لو كنت رئيسًا للوزارة... أو لو كنت موسوليني... أو لو كنت وزيرًا للطيران...».

إن وضع مشروع للسلم الدائم عبث أطفال، وقد نجح فيه الدكتور ويلسون على أي حال. ولكن المحافظة على هذا السلم في أوروبا مدى شهرين أو سنتين عمل فوق طاقة البشر. قال جيته: «من السهل أن تفكر ومن الصعب أن تعمل، وأصعب شيء في الدنيا أن تعمل طبقًا لتفكيرك». ويقول تولستوي: «كتابة عشرة مجلدات في الفلسفة أيسر من تنفيذ وصية واحدة». وفي أغلب الحالات العظيمة الأهمية في الحياة الإنسانية يكون علينا أن نتعرف طريقنا في تيه الأعمال بينما

تنقصنا كل عناصر الخريطة. فإذا كان الأمر كذلك كيف يكون إذَنْ فن التفكير؟

٨- الفكرة والعمل

بيَّنا في أول هذا البحث أن التفكير الذي يصدر عن الغريزة لا يخيب، كما بيَّنا ضيق مجالها؛ فحلم رجل العمل ينحصر في أن يواتيه أمان الغريزة في حالات كثيرة التعقيد. وبعبارة أخرى يكون فن التفكير بالنسبة لرجل العمل هو فن تحويل التفكير إلى غريزة، ولسنا نريد مطلقًا أن نقول إن رجل العمل يجب ألا يعبأ بالعقل، بل من واجبه أن يفكر طويلًا فيما يريد عمله، وأن يتخيل المسائل التي يُفرض عليه حلها يومًا ما كما فعل بونابرت الشاب في طولون، وأن يُعنى بملاحظة الكثير من الحوادث، وأن يستنبط من ملاحظاته قوانين. ولكن هذا التفكير وهذه الملاحظة وهذه القوانين يجب أن تنقش في جسمه، يجب أن يصل تفكيره إلى أعماق نفسه بحيث تصدر عنه الأعمال وكأنها ردود أفعال محكمة، وبذلك فقط يكتسب في عزمه تلك السرعة الخاطفة التي تستلزمها الحوادث دائمًا.

انظر إلى طبيب قديم وقد أُحضر إليه مريض، قد يطلب الاطلاع على بعض تحاليل كما يفعل زملاؤه، وإن هذه التحاليل لتساعده حتمًا في تفكيره بعقله الباطن، ولكن الغريزة التي تولدت عن آلاف من الحالات شاهدها هي التي ستملي عليه تشخيص المرض.

وربما كانت مبررات رأيه في حالة المريض من الكثرة بحيث يتحير في التعبير عنها، وقد يظهر لك هذا الطبيب أقل علمًا بجانب أستاذ من الشبان البارزين، ولكن ثق بأنه «على علم»؛ إذ تكون أخطاؤه في الواقع أقل من أخطاء الآخرين.

والقائد العظيم لا يلجأ إلى التدليلات العقلية الفنية وهو في معمعان المعركة، بل يستلهم الحل من ذكرياته التاريخية وتجاربه وما يصله من التقارير، فقد كرر المارشال بيتان في شمپانيا في الحرب العالمية الأولى خطة والنجتون. والكاتب الكبير وهو يراجع نصًّا تراه يمحو جملة أو يحذف نعتًا أو ينقل فعلًا من موضعه؛ فإذا أردنا أن نفسر لِمَ أصبحت القطعة أجود بعد هذه التصحيحات، وصلنا في النهاية إلى تعرَّف أسباب هذا التجويد، ولكن الكاتب نفسه لم تكن به حاجة إلى هذا التفسير، وإنما دراسته لأساليب كبار الأساتذة زمنًا طويلًا قد أكسبته غريزة اللغة. قال فاليري: «ليس المهم أن تجد ما تقرؤه، ولكن المهم أن تتمثل ما تجده». إننا لا نعد مالكين لمعلوماتنا إلا إذا حضرت هذه المعلومات من نفسها في أذهاننا عندما نحتاج إليها، بغير حاجة إلى قياس أو تدليل يضيق الوقت عنهما. إن الميكروكسم أو العالم الداخلي يكون عند رجل العمل مشتملًا على صورة مضبوطة لأجزاء العالم الخارجي الذي يجب عليه أن يعمل فيها، فالسياسي الحقيقي يحمل وطنه في طيات نفسه، ويعرف ما سيصدر من مواطنيه من التصرفات في كل حالة، ولكي تكون له الدراية التامة بأمته، لا بد أن يكون قد فكر ولاحظ وقرأ واختلط بمواطنيه من جميع الطبقات،

فمتى تمت له هذه المعرفة تجلّت في أحكام سريعة صائبة، أما السياسي الذي حرمته الطبيعة من «أهداب الاستشعار» فيلجأ إلى الإحصاءات والجرائد واللجان، فإذا ما توافرت له المعلومات أحدثت عنده ثباتًا عجيبًا ولكن على الخطأ؛ وذلك لأن الاستعلام غير الثقافة، ففي ذهن الرجل المثقف تنتظم الوقائع لتكوِّن عالمًا حيًّا هو صورة الواقع.

فأما الإحصائي فإنه يُقَطِّع العالَم ويقتله، بينما الشاعر يكيف العالم ويبث فيه الحياة. ورجل العمل العظيم يكون أقرب إلى الشاعر منه إلى صاحب الموسوعة، يمتزج عنده الفكر بالعمل كما تمتزج الفكرة عند الشاعر بالصورة. إذا عرفنا هذا أدركنا المعاني العميقة لبعض الأقوال المأثورة مثل «يستطيع الإنسان أكثر مما يعرف»، ومثل «يجب أن تعتقد قبل أن تعرف». وحقيقةً يجب أن تعتقد قبل أن تعرف؛ لأنه يجب عليك أن تفعل قبل أن تعرف، فإن فن التفكير هو أيضًا فن الاعتقاد، لأنه لا يوجد إنسان يستطيع بعد مرور آلاف السنين من المدنية أن يعيد النظر في معتقداته الشخصية والاجتماعية ويضعها موضع البحث من جديد، دون أن يتعرض للخطر ومسألة الصفحة البيضاء، أي تصفية أذهاننا من كل معتقداتنا وآرائنا السابقة قبل الإقدام على بحث أمر من الأمور ما هي إلا لعبة ذهنية لا نستطيع أن نلعبها إلا في أوقات الفراغ. فيجب على الإنسان لكي يعمل ويعيش، أن يسلم بطائفة كبيرة من القواعد الأخلاقية والاجتماعية والدينية التي سلمت الإنسانية بضرورتها من قبل. إن عقلنا يتركب من طبقات بعضها فوق بعض تكونت أبعدها غورًا من معتقدات الإنسانية القديمة، والتي تعلوها من

الديانات الآسيوية واليونانية والرومانية والمصرية القديمة، وتألفت تاليتها وهي أغناها من الديانة المسيحية، وتكونت الأخيرة وهي أرقاها جميعًا من الأفكار الحديثة عن بناء الكون، فتألفت ذواتنا من كل هذا، فهو منقوش بحذافيره على أعمالنا الفنية وآثارنا واحتفالاتنا وآدابنا وأفكارنا، فليس تحرر الإنسان من ماضي الإنسانية بأيسر من تخلصه من جسده. والتفكير المتين هو ذلك البناء الذي تغوص أسسه في أعمق طبقات الغريزة، وتصعد رفارفه وأبراجه إلى طبقات العقل الجلية النيرة، فيسلم بقوانين المنطق لأنها قوانينه الذاتية، فهو يلتزم على قدر الإمكان قواعد البحث العلمي التي أثبتت فضلها بفوزها، وهو يرتكز على التقاليد الإنسانية الباقية على الدهر في نفس كل منا، ويستقي الحقائق الثابتة من الفن ومن الدين. وإذا كان لي أن أعبر ببضع كلمات عن العلاقة بين الفكرة الفطرية والفكرة العملية الناشطة، فإني سأستعين بالصورة الآتية:

في معركة حربية يتعاون سلاح الطيران وسلاح المشاة، فيحلق الطيارون فوق خطوط العدو ويفحصون ويضعون فروضًا قابلة للتصديق عن استحكامات العدو، ويرشدون المشاة إلى الاتجاهات التي يلوح أنه يمكن اتخاذها للزحف. ولكنهم لا يستطيعون احتلال مواقع العدو، بل لا بد أن يخطئوا في وصفها أخطاء جسيمة يكتشفها المشاة بعد ذلك، ويقاسون بسببها ما يقاسون في زحفهم الشاق. أما المشاة من ناحيتهم، فلا يستطيعون أن يحلقوا فوق المواقع وعليهم أن يهدموها أو أن يفتحوها، وبعض هذه العوائق تظهر لهم متى رأوها

عن قرب، أنها أخطر مما ظن الطيارون وهم يرقبونها من مراصدهم السماوية، ومتى اقترب المشاة من مواقع العدو وواجهوا استحكاماته وأحسوا بإعاقتها لهم وخطرها عليهم، لم تعد وظيفة سلاح الطيران هي المضي في تقدم لا فائدة منه، بل المبادرة بالاتصال بالمتقاتلين وهكذا يدرك خطأه ويسألهم عن حاجتهم، ثم ينطلق مرة أخرى للاستكشاف، ويكون في مقدور الجيش إدراك النصر بذلك التعاون المستمر بين المراقب من الجو والمنفذ على الأرض. على هذا النحو يستطيع التفكير الخالص أن يحلق فوق الأقاليم المعادية فيما وراء تلك الأراضي التي تم استعمارها؛ إذ يصف ما يظن أنه رآه، ويفسر الإشارات بفروض. ثم يأتي العمل الذي يستعين بما رسمه التفكير من الخطط ويعمل على احتلال المواقع التالية فينجح أحيانًا، ويفشل أحيانًا، وفي هذه الحالة يعترف العقل بخطئه ويتصل بالحقيقة من جديد، ويضع فروضًا جديدة بعد أن يتخلى عن الأوهام التي أظهرت التجربة بطلانها. فبالتعاون الدائم بين التفكير والتجربة والعمل لا نحصل على النصر الدائم الذي ليس في طبيعة الأشياء، بل على فترة من التمهل ووقفة ميمونة في ظل مخبأ من تلك المخابئ الضعيفة التي تُسمَّى بالمدنيات.

كنا نتساءل في بدء مقالنا هذا «هل في إمكاننا أن نرسم في ذهننا خريطة حقيقية للكون، وأن نسير بمقتضى هذه الخريطة نحو أهداف معينة، وأن نصل إلى المرفأ الذي اخترناه؟ يلوح لي أن جوابنا سيكون: لا يستطيع التفكير الإنساني أن يرسم خريطة دقيقة للكون كله، ولا

يستطيع أن يجعل هدفه تلك الشواطئ الوهمية البعيدة من تلك المملكة الخيالية «اليوتوبيا»، ولكنه يستطيع أن يترسم نهج الملاحين القدماء، ويستعين بمعلومات الأجداد عن أبراج النجوم والعواصف الهوجاء، على تكملة حكمة السلف بالتجربة بملاحظة النجوم والرياح وأوقات المد والجذر، وينجو من غرق بعد غرق، وينتقل من أرخبيل إلى آخر، وفي ذلك الكفاية، فإن أوليس الحذر لم يكن يسأل الآلهة أكثر من هذا».

❊ ❊ ❊

فـن الحـب

كان بيكون يقول: «الفن هو الإنسان مضافًا إلى الطبيعة»، فالطبيعة تقدم العناصر الخامة لإنجاز اللوحة أو التمثال أو القصيدة أو المأساة، فيحور الإنسان هذه العناصر ويرتبها لتلائم مطالب عقله، فإذا ما سلمنا بهذا التعريف البديع، أصبح من البديهي أن هناك فنًّا للحب؛ إذ في موضوع الحب -كما في كل شيء آخر- لا تقدم لنا الطبيعة سوى المواد الخام وهي: انقسام الأنواع إلى أزواج والحاجة إلى استبقاء النوع مصحوبة بجميع الغرائز القوية المعدة لخدمة هذه الحاجة. ولكن إذا لم يكن العقل الإنساني على ممر القرون قد حور هذه العناصر وألف بينها، لما زادت غرامياتنا عن مهارشات الكلاب. ألق بنظرك في الحقول وفي الجو وفي مياه الأنهار، وراقب الحيوان في مغازلاته، ثم اقرأ قصة «أميرة كليف» لمدام ده لافايت، تعرف مدى الفاصل بين الطبيعة والفن في الحب. إن معجزة الحب الإنساني هي أن الإنسان يبني على تلك الغريزة البسيطة «الرغبة» أعقد المشاعر وأرقها، فبتأثير أفاعيله السحرية نرى مخلوقين ضعيفين، لهما من الأثرة والخجل وقلة الثبات والوحشية ما لسائر أبناء جنسهما، قد

توافقا فاختلطا واتصلا أوثق اتصال واعتنقا فكرة واحدة، وأصبحت عداوة العالم لهما أو عدم اكتراثه بهما ومخاوف المستقبل وأحقاد الطبقات أو عداوات الشعوب في نظر هذين المخلوقين دخانًا مبددًا وخيالًا زائلًا، لقد مهد لهما عنف الرغبة الطريق لاجتياز عوائق حب الذات، وأعانهما على التسامح في الفروق الأخرى. ولكن تلك الرغبة سريعة الزوال، فكيف استخرج الناس عواطف باقية طاهرة من تلك النزوة؟ إذا أردنا أن نفهم فن الحب، وجب علينا حل مشكلة «تقديس الميل الجنسي»، وقبل أن نهاجم هذا الحرم المكنون، يلزمنا أن نزيل ما حوله من الأشواك والأدغال.

١ - اختيار المحبوب

لِمَ نختار شخصًا بذاته دون غيره بين آلاف الرجال والنساء لنركز عليه تفكيرنا؟ يمكن بهذا الصدد عرض نظريتين تحتوي كل منهما قسطًا من الحقيقة.

النظرية الأولى: إننا في لحظات معينة من حياتنا، وخاصة في سن المراهقة وفي ساعة من الساعات التي يخالط دمنا فيها «شيطان الجنوب»، تكون نفوسنا مهيأة للحب، فنشعر بميل جنسي مبهم يبدأ غير مركز على شخص بعينه، ويوحي إلينا بشعور انتظار لذيذ، هذا هو الوقت الذي فيه يتعشق الشاب مخلوقة من نسج خياله إذا لم يصادف امرأة حقيقية، وهو الوقت الذي تعشق الفتيات فيه أبطال القصص أو مشاهير الممثلين أو أساتذة الأدب، فالشباب أقوى الأشربة السحرية

التي تبعث العشق في النفوس. قال جيته «إن هذا الشراب يجعلك تتمثل هيلانة في صورة كل امرأة تراها»، وحينما يترقب الجسد حضور المعشوق، يكون لأول شخصية جذابة تمرّ، الحظ في إثارة عاطفة الحب، فقد تكون الصدفة أحيانًا ميمونة، فتخلق من التلاقي قرينين سعيدين، كما يتفق أيضًا أن يجمع الميل لحظة بين الرجل والمرأة، ثم تكشف الخلطة بينهما عن أسباب للخلف والكراهية حيث يتولد البغض عن الحب.

كذلك نستطيع أن ندرك ألوانًا من الاختيار دعت إليها مجرد مناسبة للقاء، فقد ينشأ التقارب عن صحبة جبرية بين مخلوقين خجولين لم يكونا يجرؤان في الحياة العادية على الإقرار بعواطفهما أو رغبتهما. وقد لعبت سجون الثورة الفرنسية بقلوب نساء لم يكن يقدر لهن إلا أن يصرن زوجات صالحات في ظروف أكثر هدوءًا فحولتهن إلى عاشقات متيمات. كما أن المكانة بين الناس أو المجد الذي يصيبه الرجل من شأنهما أن يحيطاه بهالة من النور تستر عيوبه عن أعين النساء، فلحظات الظفر أكثر مؤاتاة لتوليد الحب. وفي بعض الأوقات تخلق الصدفة توافقًا وهميًّا بين عقلين أو بين قلبين، فعلى إثر عبارة تصدر من شخص ثالث تتلاقى النظرتان فتكتشفان انفعالين متشابهين، وفي ازدحام العربات قد تتلامس يدان فتستطيبان ما تشعران به من السرور، وتودان لو بقيتا متلامستين لحظة أخرى فوق ما يستدعيه الموقف، ويكون في ذلك الكفاية.

النظرية الثانية: إن ما يسمونه انقضاض الصاعقة أو الحب من

أول نظرة علامة على سبق الاستعداد، ففي خرافة يونانية أن كل إنسان كان في البدء يجمع بين خصائص الرجل وخصائص المرأة، وأن الإله الخالق قد قطع كل مخلوق إلى نصفين ففصل بذلك بين النوعين، ومنذ ذلك الحين أصبح كل نصف يبحث عن نصفه الآخر ليتصل به، فإذا تقابل الاثنان نبهتهما إلى ما بينهما من الصلة صدمة قوية لذيذة هي ما يسمونه انقضاض الصاعقة أو الحب من أول نظرة. ويحمل كل منا في طيات نفسه «الصورة الأصلية للهيئة الجمالية التي يبحث عنها بين سكان العالم» فإذا صادف إنسانًا حقيقيًّا متحليًا بجميع صفات الكمال التي كان يخلعها على ما كان يعشقه إبان مراهقته من المخلوقات الخيالية، أسلم نفسه إلى الاسترسال في حب هذا الإنسان. ومن الناس من يسحر حواسنا بجماله ويرضي عقلنا بلطف حديثه، فهؤلاء نحبهم دون مجهود أو ندم، وكل لحظة نقضيها بقربهم تجعلنا أكثر ثقة بكمالهم، ونعرف أننا لو منحنا القدرة على تغيير ما بهم، لما اشتهينا أن يغير أي شيء فيهم، فصوتهم في آذاننا أعذب الأنغام، وحديثهم غير المتكلف قصائد كاملة من روائع الشعر، وفي الحق إن منتهى السعادة هي أن نعجب بالمحبوب من غير تحفظ، وأهنأ الحب ما بني على الإعجاب المتبادل بالروح والجسد. وأخيرًا هناك رجال ونساء كثيرون لم يستبد بهم ميل عرم ولم تسقهم الصدفة إلى اختيار شركاء حياتهم، بل كان عليهم أن يختاروا هؤلاء الشركاء بمحض إرادتهم، أيحتاج أمثال هؤلاء إلى فن الحب يلقنهم بعض قواعد عامة ترشدهم في اختيارهم؟ يمكن القول بأن الصبر واعتدال المزاج وعلى الأخص

روح الدعابة كلها فضائل تساعد كثيرًا على إسعاد الزوجين، وتنشأ هذه الفضائل غالبًا -وليس دائمًا- عن الصحة، فينبغي أن تُراقب الأسرة التي يختار منها الزوج أو الزوجة زمنًا طويلًا؛ لأن الهناءة تجلب الهناءة، ولأن هناك أوساطًا حزينة مقهورة يضعف الحب بينها ويتلاشى سريعًا.

يلوح أيضًا أن المرأة أكثر ما تكون هناءة مع رجل شجاع نشيط، وأن الرجل أكثر ما يكون هناءة مع امرأة حنون ترتاح إلى قيادته. تقول بعض الفتيات إنهن يفضلن الزوج الذي يستطعن أن يسيطرن عليه، أما من جهتي فإنه لم يتفق لي أن لاحظت أن امرأة كانت سعيدة سعادة حقيقية مع رجل لم تحترمه لقوته أو لشجاعته، أو أن رجلًا متزنًا توافرت له الهناءة مع امرأة مسترجلة. وفي كل هذه الأمور الكثير من التعقيد والتركيب؛ لأن أكثر النساء خضوعًا لا تخلو من غريزة السيطرة، فيعجبها أحيانًا أن تجد من زوجها طفلًا لا بطلًا. وللقدر في الواقع دور خطير يتعذر معه أن يقع اختيار كل من الرجل والمرأة على قرينه بمحض إرادته الخالصة، ومن الخير أن يكون ذلك كذلك، فإن الغريزة برغم كل أخطائها أصوب من العقل. «يسألونك هل من ضرورة إلى الحب في الزواج؟ هذا ما لا يسأل عنه، وإنما يلزم أن يحس»؛ لأن تولد الحب ككل تولد هو من عمل الطبيعة، أما فن الحب فيأتي تدخله بعد ذلك. وعلينا الآن أن نحدد اللحظة التي يبتدئ الفنان فيها بتكييف الشعور الخام.

٢- مولد الحب

وصف ستندال مولد هذا الشعور وصفًا بديعًا في كتابه عن الحب، وعلى القارئ أن يحفظ المميزات الأساسية التي أتى بها ستندال في وصفه، ثم يضيف إليها ما يشاهده في نفسه وفي غيره.

١- في أصل كل حب صدمة تحدث بفعل الإعجاب أو بحادثة تكشف عن وفاق أو تتولد عنها رغبة، ففي قصة أنا كارينينا لتولستوي، ينزل فرونسكي من القطار فيقول وهو في حلم: «إن مدام كارينينا هذه جميلة جدًّا. وماذا كان معنى هذه النظرة؟» ويمر شارل جراندیه في حياة ابنة عمه، وذات مساء يخلع عليه مرضه ثوبًا من الخيال الروائي، وحينئذ تقع أوجيني في شرك غرامه، ويدوم حبها له طول حياتها.

٢- ومتى وجهت الصدمة الانتباه وركزته على شخص، أصبح غيابه عاملًا مواتيًا لإيقاد جمرة حبه، فقد كان آلان يقول: «إن الغياب أو التأخر عن الحضور أكبر قوة للنساء، وذلك أن القرب يكشف عن ضعف من حاز إعجابنا، أما على البعد فتصور المحبوبة حورية يخلع عليها خيالنا كل صفات الكمال». هذه العملية هي التي يسميها ستندال «التبلور»، فبالتبلور يتحول المحبوب إلى إنسان آخر أرقى من حقيقته، وهو ما دعا بروست إلى القول بأن الحب أمر ذاتي، وأننا لا نحب أشخاصًا حقيقيين، بل نحب من خلقناهم.

أما في حالة الإعجاب الصادق فلا تتدخل عملية التبلور، فإن إعجاب الإنسان بدرة حقيقية ليس في حاجة إلى أن يتبلور في الإعجاب بالدرة، غير أنه قل بين الدرر ما يتنزه عن العيوب.

٣- متى انتهت عملية التبلور الأولى يصح أن يقع اللقاء الثاني من غير خطر على الحب؛ إذ يكون الانفعال الأول من الشدة بحيث لا نعود نرى إلا مخلوق خيالنا بالرغم من حضور الشخص الحقيقي؛ إذ يحل محله الشخص الذي ولده التبلور، فلا نسمع عباراته الغثة ولا نلاحظ نواحي الضعف في تفكيره أو في عواطفه؛ إذ إن السرور الذي يغمرنا برؤيته يكون في مأمن من المفاجآت لأنه شعورنا الباطن.

٤- طالما بقيت الأمور على هذا الحال، فإنه لا ينشأ عن الحب إلا الهناء، ولكن منبع الحرارة لا يدوم اشتعاله بغير وقود، فتسرع تلك الشعلة الناشئة في الخمود إذا لم تؤججها نسمات جديدة من الأمل ولو كانت نسمات ضعيفة، وفي باب الإشارات المشجعة ليس الأمر عسيرًا، فنظرة أو شدة على اليد أو رد حار من شأنها أن تشعل النار في الحال.

٥- حينما تكون هذه الإشارات واضحة ثابتة يجوز أن يثبت الحب المتبادل وما أحلى وما أجمل، غير أنه يحدث أيضًا أن الوثوق والأمان يقتلان العاطفة فإن الحب عند البعض يتغذى في بدايته بالشكوك أو بتعبير آخر بالتناوب بين التشجيع والفتور، على أن تعاقب هذه الدلائل لا يقابله في الغالب تغير حقيقي في الميل، فالحياء والتصون يفرضان

حركات يحسبها الإنسان ناشئة عن الاستخفاف. وربما لاحظنا حركة خفيفة ناشئة عن صداع أو عن مِشَد في غير موضعه أو جورب مرتخ، فنفسرها بتلك الدقة التي لا تعرف إلا عند العشاق أو رجال الشرطة، ولا غرابة فالعاشق تثور شكوكه من لا شيء فيروح يحلل النظرات والحركات والألفاظ ويرى فيها معاني خفية، فيجد في البحث عما عساه قد بدر منه من زلل استوجب هذه المعاملة القاسية، وكلما تعسر عليه الفهم (حيث لا يوجد ما يفهم)، زاد تفكيره في محبوبه وغاص الحب في أعماق قلبه؛ مثل الحب الذي ينجم عنه الشك كمثل تلك الأشواك التي كلما حاولت نزعها، أدى مجهودك نفسه إلى زيادة نفوذها في لحمك.

٦- يبدو أن ذلك مما يسمح لنا بأن نفسر الدلال، ذلك العبث والتقلب المتعمدين، ليس إلّا لعبة تنحصر في مد الطعم ثم سحبه ثم مده ثانية، وهي لعبة الغرض منها إيقاظ الحب واستبقاؤه، كالقط يستسلم للرغبة في التقاط لفافة الصوف فينقض عليها حين تقدم إليه وإذا بها تُسحب ثم يُرمى له بها ثم تُسحب، كذلك تستسلم الفريسة الآدمية لمناوشات المحبوبة المدلة، وهي حركة طبيعية يسهل تفسيرها، فكل مضنون به مرغوب فيه، وكل مبذول مرغوب عنه.

٧- بيد أن الدلال إذا طال أمده قتل الحب، فإن مدام ريكامييه التي اشتهرت بدلالها وتمنعها، قام برأسها يومًا أن توقع بنجامان كونستان في غرامها ونجحت. قالت له يومًا: «تشجع» فحول الأمل هذا الرجل الناضج إلى طفل، وقال لنفسه: «هي لا تحبني ولكني أعجبتها!»

وعندما انكشفت الحقيقة لعينيه، تألم وقال: «لم أكن عرفت امرأة لعوبًا قبلها»... وقال بعد حين: «يا إلهي كم أبغضها!»، وحدث عنده ما يمكن أن نصفه بأنه انحلال عملية تبلور الشعور التي مر ذكرها فقال: «وذمتي لقد زهدت فيها. إنها جعلتني أقضي يومًا شيطانيًّا، إنها حرباء، إنها سحابة، ليس لها عقل، لقد حُرمت من كل تمييز وليس لديها عزيز». هكذا تغلو المرأة المدلة في دلها فيكون مثلها كمثل سيليمين في مسرحية «الميزنتروب» (كاره البشر) لموليير؛ إذ لا يكاد ينتصف الفصل الخامس حتى يهجرها كل من تيمه عقلها وجمالها.

٨- كما يدفع الطبيب إلى رئتي مريضه بتيارات متعاقبة من غاز خانق وأكسجين، كذلك تفعل ذات الدلال؛ تمزج قسوتها بشيء من الرجاء حتى لا تقتل ضحيتها، وذلك لون قاس من اللعب يكاد لا يقاوم، فهل تستحق هذه اللعبة أن تُجرب؟ في ظني أن الأفاضل من الرجال والنساء يزهدون -بسبب إخلاصهم في حبهم أو بسبب طيبتهم- فيما يكسبهم التدلل من المزايا المحققة. إن قول المحب لحبيبته. «إني أعلم أنني باعترافي لك بحبي أضع نفسي تحت رحمتك ولكن يحلو لي أن أفعل ذلك» فيه عظمة. فإذا كان القرين غير جدير بهذه الثقة وجب أن يعالج بين حين وآخر بجرعة من التدلل على طريقة: «وداوني بالتي كانت هي الداء». وإذا كان القرين جديرًا بهجر تام، فلا بأس بالإعراض عنه، وعسى أن يتولد عن هذا الإعراض والهجر حب وثيق متبادل.

٩- إن الأيام الأولى للحب المتبادل هي أسعد الأيام التي يتصورها

الناس، فيها يتضاعف التبلور ولا يعود القرب يؤثر فيه؛ إذ ينزل كل من الحبيبين عن ذاته، وفي ذلك تحقيق لأمنية الآخر، ومتى أمكن دوام هذه الحالة وجدت الحياة السعيدة.

وحتى في مثل هذه الحالات، يندر أن تكون قوة الشعور المتبادل واحدة عند الطرفين، أو أن يظل الحال على وتيرة واحدة. فعلى الكثيرين منا أن يعاودوا غزو الشخص الذي يشتهونه؛ فهو لا يسلم قيادة بغير قتال.

٣- التودد

أيستطيع الإنسان أن يتقرب إلى قلب محبوبه؟ ينبغي أن نسأل قبل ذلك: هل من الضروري أن يتحبب الإنسان إلى من يهوى؟ أليس الأيسر عندما لا يستجيب الحبيب أن يطلب المُحب لذائذ الهوى على الأسلوب الذي كانت تُطلب به في العصور القديمة؟ فلقد كان الرجل يختطف المرأة التي مال إليها وعندئذ تقع الأسيرة تحت رحمته، فكان يحدث في غالب الأحيان أن تنتهي الحال بتعلق الأسيرة به؛ لأنه ميزها على غيرها أو لأنه زوجها أو لأنه جدير بأن يُحَبّ. وفي عصور أخرى لعب المال والسلطان الدور الذي كانت تلعبه القوة، غير أن الغنى لم يكن يُحب بنفس السهولة التي كانت تُحب بها الشجاعة؛ لأن الغنى صفة ليست ملازمة لذات المحب، ومع ذلك كان جوبيتير يتسلل إلى مخدع دانايه وهو متنكر في هيئة غيث من الذهب.

إن النفوس الكبيرة المطامع لا تصيب إلا قليلًا من السعادة من

وراء هوى يمازجه الاستعباد؛ فإننا لا نحب أن نفرض أنفسنا على من نحب، بل نؤثر أن نُفضَّل ولا يأتينا تملكنا للمحبوب بمسرات دائمة، إلا إذا كان تملكنا له صادرًا عن إيثاره لنا بحُرِّ إرادته، عند ذلك تعرض تلك الشكوك وتلك الوساوس، وتتعاقب الانتصارات على التعود والملل. تلك الحال دون سواها هي مصدر أكثر الأحاسيس لذة؛ فإن جواري القصور الجميلات لا يثرن العشق في النفوس لسبب واحد، وهو أنهن أسيرات مملوكات، وعلى العكس من ذلك نلاحظ أن جميلات الشواطئ الأمريكيات لا يعشقن لأنهن قد بلغن الغاية من التحرر. فيا أيها الحب! أين تكون انتصاراتك إذَنْ... ما دام لا يستطيع اعتراض غزواتك شيء لا الحجاب ولا التصون ولا الأخلاق؟ إن الحرية المفرطة لتقيم حول جماعة النساء المبذولات أسوارًا شفافة لقصور وهمية[1].

إن الحب الروائي الخيالي ليتطلب امرأة تحيا حياة تحفُّظ في حدود ضيقة من الدين والعادات، من غير أن يجعلها ذلك التحفُّظ بعيدة المنال.

هذه هي الشروط التي حين توافرت في العصور الوسطى نشأ عنها الهوى العذري، فقد كانت المرأة تعيش إذ ذاك في قصرها أميرة مشرَّفة، وكان العاشق يخرج لغزواته الصليبية، فيقطع الطرق الطويلة مفكرًا في أميرته، وعلى وقع أقدام الخيل كانت عملية التبلور تسير سيرها،

(١) يريد أنها تجعل إدراكهن يبدو سهلًا، كما يبدو إدراك نساء الحرب الأسيرات ميسورًا لكل من يملك الاقتراب منهن.

بينما الأميرة ملازمة لقصرها بالقرب من وصيفتها، حاضرة أمام عينيه، بعيدة عن مناله، تثير في نفسه أحاسيس شوهتها الثورة الفرنسية فيما بعد وجعلتها من نوع أحاسيس جوليان سوريل نحو مدام رينال. وكان المؤدِّب كذلك في نفس مكانة الوصيف، وكان مركز المرأة بينهما حرجًا، ولكن شاروبيم الخادم الحاذق الجريء كان أوسع فرصة. في عهد ذلك الهوى العذري المعذب، لم يكن العاشق يسعى إلى التقرب إلى محبوبته، بل كان يقنع بحبه في صمت دون أمل. وقد ظلت الحال على ذلك حتى زمان السيد تيمور والأميرة ده كليف. ويحكم بعض الناس على هذه الألوان من الحب الصافي بأنها خيالية ساذجة، وقد غاب عنهم أن الإعجاب عن بعد يمنح النفوس الرقيقة لذائذ عنيفة، ولما كانت هذه اللذائذ ذاتية، فهي لا تتعرض كغيرها لتبدد الأوهام وخيبة الأمل. إن للحب الصامت أشواكه ولكن له أيضًا حلاوته. تصور في أي هيمان يكون العاشق وهو يوجه كل أفعاله إلى هدف واحد هو إرضاء محبوبه! -يدرس نفسه في كل يوم ليهتدي إلى طريقة إعلان حبه، ويقضي في ذلك من وقته ما تحسب معه أنه سيلتقي بمعشوقته ويحدثها حديث غرامه. ومع ما يتضح له من أن التي تسبب له كل ذلك الاضطراب لا تلقي إليه بالًا، تراه قانعًا على الأقل بشعوره بأن كل هذه التقلبات هي في سبيل شخص جدير بذلك.

إذا أحب شاب ممثلة لم يرها إلا على المسرح، خلع عليها كل الكمالات الروحية التي تبدو له في وجهها، والتي لا تملك شيئًا منها من غير شك، ويضفي عليها ذلك السحر الذي يكون للبطلات

اللائي تمثلهن؛ لأنه شهدها في أدوار حلم بها ماريفو أو موسيه، ولم يشاهدها إلا تحت أضواء المسرح الخادعة، فجهل سنها وتجعداتها، ولم يشاركها في معيشتها حتى يعرف شيئًا عن غضباتها وعن صلفها. قال بيرون: «لأن يموت الإنسان من أجل المرأة التي أحبها أيسر من أن يعاشرها». والمعجبة بالكاتب القصصي تخلع عليه بكل سخاء رقة أبطاله، ولا يخطر ببالها صرير مفاصله ونوبات سوء هضمه وانفعالاته المرضية، فما أيسر أن ينال الإنسان الإعجاب وهو بعيد.

هل من اللازم إذَنْ لإنقاذ الحب أن يزهد الإنسان في التودد للمحبوب والوقوف على أحواله؟ -لا، فإن عشق العقول لا يدوم مهما كانت أيامه الأولى حلوة. نعم إن صاحب المزاج الرقيق يستشعر اللذة كلما طال طريق الوصول إلى الحبيب، ولكن هذا الطريق ينبغي أن يؤدي إلى الغرض بعد الكثير من الارتباطات الحلوة، ولا يتبدَّد الأمل في أرض جرداء حيث ينتهي الحب إلى الموت خمودًا. ألا يقل امتلاء النهر إذا لم يسعفه المنبع بالمدد؟ كذلك تستولي على العاشق إن عاجلًا أو آجلًا الرغبة الجامحة في أن يرى نفسه محبوبًا.

ماذا نستطيع إذَنْ أن نتعلم من فن الحب؟ أيرشدنا إلى تراكيب وأشربة سحرية أم إلى رقى وتعاويذ؟ إن الشعر القديم وقصص الحب لتفيض بأخبار السحرة وأعمالهم، ولا زلنا إلى الآن كما كنا في عهد تيوكريت أو أوفيد، نسمع كيف تجلجل كل يوم مائة مرة في كثير من جلسات السحر والشعوذة في باريس ولندن ونيويورك في حضرة عجوز شوهاء، الاستغاثات التقليدية: «رباه ماذا يجب أن أصنع حتى

يحبني؟ -وردًّا على هذه الصيحات تجيب الإنسانية منذ القدم بحفلات وطقوس، كما كانت تجيب على ما تقدمها من الصيحات الأخرى.

٤- المغازلة

مجموع أعمال الحفاوة وأساليب التودد وحيل الملاطفة التي يتوسل بها العشاق إلى التقرب من بعضهم البعض تُسمَّى المغازلة. تقوم الحيوانات والطيور في فصل الأشواق بأعمال التقرب الخاصة بها كما يفعل الناس. ولنذكر بعض أساليب الفتنة مبتدئين بأخسها، وهي المشتركة بين جميع الأنواع، حتى نصل إلى أشرفها وهي الخاصة بالإنسان.

« أ » **التزين:** الغرض من التزين هو لفت النظر إلى المتزين أو المتزينة، فكما تدعو الأزهار بألوانها الزاهية في زمن الإخصاب الحشرات التي ستحمل إليها حبوب اللقاح اللازمة، وكما يعلن الذباب الناري والديدان اللامعة بأضوائها أثناء الليل عن الرغبة في الحب إلى أفراد نوعها، كذلك تتقدم النساء بأثوابهن الجميلة أو الجريئة إلى الرجال لينلن إعجابهم. ولكل شابة الحق، بل من واجبها أن تعجب فكلهن أو جلهن يبذلن الجهد في ذلك، أما العذارى الطائشات فيعتمدن على التبذل في ملابسهن، وأما العذارى العاقلات فيفضلن ما في الاحتشام والغموض من الفتنة الباقية. وأغلبية النساء يجرين وراء الأزياء الحديثة «الموضة» التي لا غرض منها سوى لفت أنظار الرجال. ويعيش الخياطون والخياطات وتجار الحلي والجواهر

على حاجة النساء الدائمة إلى المفاجأة.

وهناك بعض نساء يستخففن بقواعد «الموضة» تصنعًا أو زهدًا، ولكن في الجماعة التي يخضع فيها كل النساء من العاملة إلى الأميرة إلى نظام الأزياء، يكون من أكبر البدع مخالفة هذا الإجماع. ويمكننا أن نقول إن أكثر النساء بساطة في الظاهر أقلهن بساطة، وإن أقلهن تدللًا أمعنهن في الدلال، وإن عدم التزين تزين في ذاته، ومن أمثلة ذلك ما يقال من أن الفتيات الإنجليزيات اللاتي كن يذهبن يوم الأحد عند وليم موريس قبيل عهد رافائيل الرسَّام، كنّ لا يرتدين سوى أثواب من الصوف الأزرق الغفل وعقود الكهرمان الأصفر، ولكنهن كنّ يتميزن بذلك عن باقي النساء الحافظات لعهد الحلي الثقيلة والأثواب الزاخرة بالنقوش، مما كان شائعًا في أواخر عهد الملكة فيكتوريا. وقد تبدو الطرافة في زي البوهيمي بقبعته الصغيرة المستديرة (بيريه) وزي الكاتب الشاب في سترته الجلدية، كما كان الأنيق الإنجليزي يلفت الأنظار بصدريته القطيفية. والذكر هو الذي يلجأ إلى التزين عند بعض أنواع الحيوان، فالطاووس يمثل انتصار الطبيعة على الفن. أما في النوع الإنساني فإنه لما كان الرجل يتجنب المسؤوليات الاقتصادية، كان على المرأة أن تخصص نصيبًا أكبر من العناية للتزين، وهذا هو الحاصل في فرنسا على الأقل.

«ب» **الحذق:** من دواعي الإعجاب أن يبز المرء أقرانه فيما يصنع كيفما كان. وكل عاشق يسعى إلى إظهار حذقه، ولا نهاية لتنوع موضوعات هذا الحذق، فبعض الطيور يغطس في الماء على مرأى

من إلفه ويأتي من قاع الغدير ببعض الحشائش المائية يقدمها تحية له، وعندما سُئل شاتو بريان: «ماذا تبغي من ذهابك إلى الشرق؟» أجاب: «أطلب مجدًا يقربني إلى القلوب» وعاد من سياحته في البحر الأبيض المتوسط يحمل مؤلفات خالدة إلى مدام دي نواي. ولقد كتبت بعض القصص كقصة «المسمار الذهبي» لسانت بوف لشرح بعض العواطف لسيدة بغية التأثير عليها. وكل الموسيقيين على وجه التقريب قد عبروا عن شكواهم أو رغباتهم بألحان مطربة. ويكون الإعجاب بلاعب التنس لمهارته، وبسائق السيارة لوقفاته الخاطفة، وبالراقصة لوقوفها على أطراف أصابعها. والحذق في الحب يحقق لصاحبه أخطر مكانة. وتقاوم العذارى العاقلات هذا اللون من التأثير، ولكن عند العذارى الطائشات تتغلب رغبة حرمان المنافسة أو حتى الصديقة من عشيق شهير، وهذا شعور معقد يدخل فيه الزهو، وتقدير ذوق النساء الأخريات، والحاجة إلى الاطمئنان على النفس بإحراز انتصارات شاقة.

بدأ دون جوان باختيار عشيقته بنفسه، ثم صارت العشيقات يتولين اختياره. وقال بيرون: «من عهد طروادة لم يختطف أحد كما اختطفت أنا». إن الحاجة إلى الأمن والطمأنينة ملحة عند النساء، وهي تدفع الضعيفات منهن إلى التعلق بالرجل الذي ينشدن فيه العضد القوي لما له من البأس والسلطان، فهنّ في أيام الحرب ينشدن في الرجال شارات الغلبة والظفر، وينشدن عندهم في أوقات السلم العبقرية أو الغنى. وتعد هدايا الرجل العاشق لمعشوقته وسيلة لتأييد سيطرته،

ولهذا يهدي كل من الغلمون (البنجوين) والرجل الثري لمعشوقته حصوات تتفاوت في بريقها. ويقدم الشرشور إلى أنثاه أغصان الأشجار وأوراقها، كما يهدي الشاب إلى خطيبته خيوط الصوف في صورة ستائر وسجاجيد، وأنثى السنونو والمرأة متى اختارت كل منهما أليفها فكرت في العش الذي يأويهما.

«جـ» **الثناء:** ألوان الثناء هي صنوف من الهدايا، فقصائد الغزل تُبنى على المدح أو الشكوى. أما الشكوى فتثير الشعور ولكنها لا تلبث أن تمل. أما الثناء فيرضي؛ لأن أغلبية الرجال والنساء حتى أشدهم كبرياء تعاني «مركب النقص»، فأحب نواحي الجاذبية التي يسر المرء أن يوصف بها هي النواحي التي يتشكك في نصيبه منها، فإذا ما شك في نصيبه من الذكاء فلا أحب إليه من أن يوصف بالذكاء، ومن أمتع ألوان الثناء لديه أن تزيح له الستار عما يتميز به من الصفات المحببة التي يجهلها في نفسه أو لا يأبه لها، وبعض النساء الخجولات الحزينات يتفتحن كما تتفتح الأزهار في حرارة الشمس بفعل الإعجاب. أما الرجال فلا حد عندهم لاشتهاء الثناء، ومن النساء الدميمات المحرومات من الملاحة مَن ظللن محبوبات طيلة حياتهن؛ لأنهن كنّ يحسنّ الثناء على الرجل.

ملاحظة: يسر الناس أن تمدحهم لا لصفاتهم الظاهرة التي يعرفونها في أنفسهم معرفتك لها، بل للصفات التي يعتقدون أنها تنقصهم. فلن يحمد لك القائد أن تتحدث عن انتصاراته، ولكنه يبقى مدينًا لك بالشكر مدى الحياة إذا كشفت له عن بريق عينيه. والكاتب

القصصي الشهير يمل حديثك إذا حدثته عن قصصه، ولكن وجهه يشرق فجأة إذا ما تحدثت إليه في حماسة عن فوز غامض كان في الواقع بعض فشله، أو إذا حدثته عما في صوته من قوة التأثير.

«د» تودد المرأة للرجل: للمرأة وسائلها الخاصة لغزو الرجل. وقد طالما اعتقدنا أن المرأة تنتظر أن يتقدم إليها الرجل فليس هذا سوى الظاهر، فبرنارد شو يقول: «إن المرأة في الواقع تترقب الرجل ولكن كما يترقب العنكبوت الذبابة»، وفي عصرنا هذا تنزل النساء المسترجلات إلى ميدان الكفاح عاريات الصدور، وقد كان الغرض من الرقص في جميع الأزمان التغلب على ما في بعض الرجال من الحياء مع حملهم على ضبط ميولهم، أما الرقص الحديث فأكثر اتجاهًا إلى إثارة الشهوة من الرقص القديم أو الرقص الريفي، وهو من أقوى حيل النوع الإنساني. ومن أبرز وظائف المرأة الريفية أن تكون وسيطًا بين الرجل وبين الطبيعة. وهي وظيفة تعينها على اكتساب حبه. فكثير من الرجال فقدوا الاتصال بالعالم بسبب عكوفهم على أعمالهم في عزلة، فالمرأة إذ تنتزعهم من نشاطهم الجنوني في أعمالهم ترد إليهم مباهج الغابات والمياه والجبال والبحار، فتتجلى في أعينهم بكل محاسن ما كشفت لهم عنه من مباهج الطبيعة.

يقول مثل قديم: «خلق الرجل للحرب وخلقت المرأة للترفيه عن المحارب»، ففن الحب بالنسبة للمرأة هو في الغالب تسلية وتشجيع وسند في وقت واحد. وما عليك إلا أن تدرس الأسلوب الذي غزت به مدام ده منتنون لويس الرابع عشر، لم يكن هناك أمر ميؤوس منه أكثر

من هذا، فمدام ده منتنون لم تكن في سن الشباب، ولم يكن اتصالها بالملك إلا بصفتها رائدة لأولاد مدام ده منتسپان الجميلة المتسلطة على عقل الملك، فماذا جرى؟ لم تقتصر المرأة الوضيعة المسنة على انتزاع الملك من أحضان مزاحمتها الفاتنة، ولكنها أقدمت على ما لم تجسر مدام ده منتسپان على تمنيه، ففازت بالزواج من الملك، فماذا كان السر في ذلك؟ أولًا أنها ظهرت بمظهر رسول السلام بين الملك وبين عشيقته التي بدأت تضجره بغضباتها الجنونية، ومن الرجال من يحتمل من المرأة التي يحبها ثورات الغضب أو الغيرة ولكن إلى حين، ومنهم من يميل إلى الاضطرابات كمن تشوقه عواصف البحار، ولكن الأغلبية أكثر ميلًا إلى الهدوء، تأسرهم البساطة واللطف واعتدال المزاج، وخاصة إذا صادفتهم امرأة مجنونة أبرأتهم من الميل إلى العنف، والسر الثاني لمدام ده منتنون أنها كانت تشهد في كل مساء اجتماعات الملك بوزرائه عندها، وتصغي للتقارير دون أن تنبس ببنت شفة، وإذا سألها الملك رأيها أثبتت بآرائها الصائبة أنها أصغت وفهمت وحكمت، وهذا موقف سليم للغاية؛ لأن الرجل الجدير بصفة الرجولة يحب عمله أكثر من أي شيء، بل أكثر من المرأة التي يعشقها، فماذا يحصل إذا حاولت هذه المعشوقة أن تصرفه عن مهنته لتشغله بنفسها؟ ربما طاوعها في أول الأمر مطاوعة لا تخلو من السخط، ويكون مستعدًّا لأن يهب نفسه ذات يوم لمن تشعره بأن عمله يهمها وتستعين بذلك في السيطرة عليه.

«هـ» **الثقافة:** تصدح الطيور وتغطس في الماء، حتى السراطين

تقوم بألعابها البهلوانية الغرامية في البرك والبحيرات. أما الآدميون فقد اخترعوا التأثير والفتنة باستغلال حذقهم في نقل بدائع فنون الغير. فبدلًا من أن ينشد العاشق معشوقته قصيدة من نظمه، يقرأ لها شعر بودلير، والعازف على البيانو يعزف للمحبوبة ألحانًا لشوبان فتنعكس عبقرية الأستاذ على مترجميه والمعجبين به. ولما كانت الأحاسيس التي تثيرها هذه العبقرية مرتبطة بشخص حاضر، فإنها ترفع من قدر صورته وتجلي ذكرياته. والموسيقى إذ تخلع على النفوس جمالها الرائع ومسراتها الفائقة تهيئ هذه النفوس للحب، فكم أَلَّف بتهوفن وموزارت وفاجنر بين قلبين، وكم من الروابط الوثيقة بدأت في المتاحف وعلى إثر قراءة القصص الجميلة بين اثنين! إنها تخلق لهما مواضيع للحديث ومُثلًا للسلوك، وأفضل هذه القصص هي في الواقع دروس في الحب تلقنهما هذه العاطفة على ما ينبغي لها بين مَن هم جديرون بها. والثقافة المشتركة تعين على بقاء الحب في مستوى عال من الشوق والهيام، وتسهل قضاء اللحظات الصعبة التي تنشأ عن السأم المرير، فالتثقف إعداد للحب.

«و» المشاركة في العقيدة: دينية كانت أو وطنية أو سياسية أو إعجابًا بعمل من الأعمال. والاشتراك في العقيدة يُعزز الحب تعزيزًا عجيبًا، فإن كل من كانت له عقيدة عنيفة يبعد أن يحب من لا يشاطره عقيدته إلى درجة من الدرجات؛ لأنه لما كان الحب هو السرور المصحوب بفكرة الاشتراك في غرض خارجي، فإن المخالفة المؤلمة لهذا الغرض هي عقبة في سبيل هذا الحب. وليس من سبيل لإنقاذ الحب إلا أحد

أمرين: إما ذوق سليم وتقدير غير محدودين لمن لا يشاطرنا رأينا أو أملنا في تحويل صاحبنا عن ميله. ولا يتم هذا التحويل غالبًا إلا بتأثير الحب نفسه، ومشاركة الحبيب لحبيبه في ميوله أو عقيدته بغير تحفظ هي توكيد للسعادة، عندئذ يندفع الإنسان بقوة العقل والحس في الاتجاه المطلوب، فإذا كان كل عمل محبوب شائقًا، فإن العمل الذي يمتزج بالحب أحلى وأشهى، ومن هذا الامتزاج نشأت الزيجات العجيبة كزيجات العلماء والفنانين والرسل التي جمعت بين روابط الزواج وروابط الزمالة، وحيث لا تكون هناك حاجة إلى العمل على كسب الحب؛ إذ يحل محله «الإيمان المشترك».

٥- تجنب الملل

يولد الحب على أثر فترة طويلة أو قصيرة من التودد، ولكن وفيات المواليد في عالم الحب كثيرة، فينبغي العناية الدائمة بتربية هؤلاء المواليد... فالجدة -وهي أقوى مقومات الميل- هي في نفس الوقت أسرع الأمور إلى الزوال. ففي بدء الحب تكون لكل قرين ألف ناحية يكتشفها في قرينه، فكل منهما قد اصطحب من شبابه ذكريات وصورًا وأغاني وقصصًا، إذا ما امتزجت كلها بالملاطفة والتدليل، جعلت أوقات الفراغ الأولى حلوة بغير تكلف، ولكن هذه المدخرات تنفد سريعًا للأسف، ولا تلبث القصص التي كانت تبدو جديدة أن تصبح معادة مملة، وكم من الرجال والنساء تصبح أحاديثهم أكثر طلاوة إذا ابتعد أحدهم عن صاحبه؛ إذ يستطيع بلا حرج أن يكرر ما سبقت

إعادته. ففي المطاعم مثلًا راقب قرينين على مائدة واحدة تجد أن مدة صمتهما متناسبة مع زمن حياتهما المشتركة.. يحدث هذا إذا كان المترافقان خاليين من العبقرية؛ لأن العبقرية في الحب ضمان لبقاء الجدة. فالصادق الحب يطيب له التنقل كل يوم بين أفكار حبيبته، كما يطيب لقسيس القرية كل مساء أن يرود مماشي بستانه. وبعض الناس قد خلقوا مخلصين، وربما كان مردّ ذلك إلى أن لديهم فكرة عالية عن الحب، أو أنهم ممن يشعرون بالحياء أو إيثار ملازمة البيت.

وقد قامت سعادة بعض الأسر على النفور المشترك من الكفاح ومن مخالطة الناس، وعلى الميل إلى العيشة المنزلية بين من ألفوا من الأشخاص والأشياء، وأخيرًا على الرغبة في الأمان. أما من أحب بعنف فهو يعرف كيف يتجدد عند اللزوم، ويقول لنفسه إن الإنسان ليستنفد كل يوم طرق الإرضاء، ولكن لا بد من الإرضاء، ولا بد أن ينتهي الأمر بالحصول على الرضى، وربما تم هذا من غير جهد مقصود، فمتى توافرت الملاحة لشخص دام له رضى محبوبه عنه؛ لأن الملاحة لا تُمَلّ، فكل فعل أو قول متعة.

وحتى الشيخوخة نفسها لا تغير الطبائع، فإن الوجه يشيخ بلا ريب، ولكن الإنسان يسره أن يجد تحت الشعور البيضاء النظرة والابتسامة اللتين أحبهما في ظل الشعور السوداء أو الشقراء.

هل هناك فن لتجنب الضجر؟ أكبر السر في تجنب الملل هو ملازمة الإنسان لفطرته، فكل جلسة متصنعة يشق على المرء أن

يحافظ عليها فضلًا عن بعدها عن الجمال. من أجل ذلك كان العشاق العقلاء هم الذين يعملون على التزام طبعهم أمام محبيهم. ويزعم بعض الرجال أنهم قادرون على تكييف المرأة، وأن يفرضوا عليها أذواقًا وأفكارًا بعينها، فما أجنهم! إذ لو كانت طبيعتها بعيدة عن ميولنا فما كان أغنانا عن حبها. أما وقد وقع عليها اختيارنا، فيجب أن نتركها على سجيتها، فإن في الصداقة -كما في الحب- لا يرغب المرء في التردد إلا على من يشعر معهم بأنه في حل من أن يبقى على سجيته دون عناء أو رياء.

يتوخى مهرة العشاق أن يقع تلاقيهم في الأماكن الجميلة بطبعها، ومن هذا نشأت تلك العادة المعقولة عادة السياحة في شهر العسل. وليس من الضروري أن يذهب العروسان بعيدًا، فإن المرأة إذا أحبت عرفت بغريزتها كيف تصنع المكان الجميل، ويظهر بعضهن ذوقًا ساحرًا في الاستعانة بكل مباهج الطبيعة والفن، فيفرقن بين اللحظة التي يميل فيها الحبيب إلى العزلة مع حبيبه، واللحظة التي يحتاج فيها إلى النزهة أو سماع الموسيقى.

المرأة لا الرجل هي الأكثر انشغالًا بالحياة الاجتماعية؛ فهي التي يجب أن تكون المدبرة لمغاني غرامه.

أما الرجل فواجبه أن يفهم المنزلة التي يشغلها الحب في حياة المرأة، إذا أراد أن تبقى على حسن نيتها وحنانها. فما أحمق الرجل الذي يتعالى بفلسفته أو مذهبه، فيزدري أفكار النساء، فإن أفكارهن

وإن خالفت أفكاره، فهي أخص وأبسط وأعقل. فإذا قام خلاف بينه وبين زوجته أو عشيقته، فلن يستطيع أن يقنعها بالدليل والبرهان، ولكنه يستميلها بالحنو والصبر والصمت. يجب ألا ينسى أن المرأة في أكثر أيام حياتها تكون تحت رحمة أعصابها أكثر منه، فإذا كان الرجل في هذه الفترات العصيبة ينسب شكواها إلى روح الشر، بينما لا تكون هذه الشكوى صادرة إلا عن ألم جسماني، فإنه بسبب حالة طارئة يوشك أن يهدم بها ما كان وما يمكن أن يدوم بينهما من رباط جميل.

لقد أصبح تشبيه تقلبات نفس المرأة بتقلبات البحر كلامًا معادًا ولكنه حق، فالزوج العاقل لا يغضب أبدًا، بل يكون كالملاح وسط العواصف يرخي الشراع وينتظر ويرجو، ولا تصرفه الزوابع عن حبه للبحر.

ولعل بعض قواعد فن تجنب الملل تصلح للجنسين معًا.

الأولى: أن يلزم كل من الإلفين في أوج الحب ما كان يلزمه من الأدب والتلطف عند اللقاء الأول، فإن الأدب عند كرام المنبت لا يتعارض مع إرسال النفس على سجيتها، حيث يستطيع الإنسان أن يقول ما يريده بعبارة مهذبة. ومن الخلط أن يظن أن الجلافة هي المظهر الوحيد للصراحة.

الثانية: الاحتفاظ بروح الدعابة، فيعرف الإنسان كيف يسخر من نفسه، ويرى التفاهة في أكثر الخلافات، ولا يعلق أهمية فاجعة

على تلك الشكاوى التي تملأ الحياة الزوجية، ولا خير في تجسيم كل إساءة حاضرة بذكرى مشاجرات سابقة.

الثالثة: حصر الغيرة في حدود معقولة، بتجنب المجاراة وإساءة الظن على السواء، ففي كليهما إهانة.

الرابعة: الاستعانة بالتباعد أحيانًا على خلق تبلور جديد، فالإجازات الزوجية لها خطورتها، ولكنها متى كانت قصيرة يتخللها التراسل عادت بالنفع، فقد يتفق أن يفقد الزوجان بتأثير الكسل والعادة عذوبة الحديث الحنون فيستردانها بالعبارة المكتوبة.

الخامسة.. والأخيرة: وهي سر الأسرار: استبقاء الهوى، يقول بعض الناس لنفسه: لماذا أستمر على التودد إليها ما دمت قد ظفرت بها؟ ويمكن الإجابة عن ذلك بأنها: «وإن كانت لك- فهي ليست ولن تكون لك»، وذلك موضوع تفكير بديع من أجل امرأة جديرة به.

ولكن اتقاء إضجار المحبوبة لا يكون سوى عمل لا غناء فيه إذا كنا قد سئمنا هذه المحبوبة فعلًا. فهل هناك أيضًا فن لاتقاء السأم؟ أم على العكس يجب أن نسلم بأن هناك نوعين من الرجال والنساء: الأمناء والخونة، الثابتون والمترددون، وبأنه غير مجد أن يقوم أحد الفريقين بتمثيل دور الفريق الثاني؟ -أعتقد أنه في هذه الحالة -كما في كل الأمور- تأتي الطبيعة بأمور يكون من واجب الإرادة أن تنظمها، فالتردد وعدم الثبات لا يولدان مع الرجل والمرأة، بل يطرآن عليهما بتأثير الأحداث التي تقع لهما في مستهل حياتهما الغرامية، فقد يكون

أحدهما ذا طبيعة نارية ثم يقع على شريك بارد الطبع، فإذا كانا من ذوي الأخلاق الفاضلة محبين للمعاشرة، عاشا في هذه الحالة تعسين مع الأمانة، وإن لم يكونا من ذوي الأخلاق الفاضلة، عاشا في شكوك وخيانة إلى أن يجد كل منهما نصفه المنشود، وإذ ذاك تراهما قد تبدلا فجأة؛ فكم من أناس عاشوا عيشة كلها مغامرات، ثم استقروا بعدها إلى النهاية؛ لأنهم عثروا على الشريك الموافق. هذه حالات تقلقل الفطرة، وهناك كذلك تقلقل النفس؛ فقد يحدث أن يكون الدون جوان رجلًا قنوعًا متواضع المطالب، في حين قد تكون الدونا جوانا امرأة فاترة، فغزواتها ومغامراتها ليست في الواقع سوى لذائذ لكبريائها أو خيالها لا من قبيل لذائذ الشوق والرغبة، والكبرياء يتطلب الإرضاء إذا كان الرجل والمرأة في ريب من نفسه.

عندما سمع بيرون أول فتاة أحبها تقول: «كيف أستطيع الاهتمام بهذا الفتى الأعرج؟» كان قولها بمثابة شرارة أوقدت نفسه، فطفق يبحث عن الثأر طول حياته. وكأين من امرأة سمعنا أنها مضت تهدم كيان الأسرة حولها لا لسبب سوى أنها في صغرها اعتبرت دميمة، فهي لا تنفك تلتمس الأدلة على سلطانها لرغبتها في التحقق من قدرتها. ويتولد الخيال الجامح غالبًا من طفولة خيالية أي بعيدة عن الواقع؛ فقد ظل شاتو بريان يتنقل من امرأة لأخرى؛ لما برح به في صباه من ألم الرغبة العنيفة والحيلولة بينه وبين النساء اللاتي كان في استطاعتهن إرضاؤه، فاتخذ في نفسه للمرأة صورة مثالية من صور حور الجنان، وقضى حياته في البحث عنها دون جدوى، فجعلته الخيبة الدائمة

يتنقل من عشيقة إلى عشيقة، إلى أن أرغمته السن على التسامح، فاستقر مع آخر امرأة خُيِّل إليه أن واحدة من الحور قد تجسدت فيها وهي چولييت ريكامييه.

يستطيع الكاهن أو الطبيب أحيانًا أن يكافحا هذا التقلقل النفسي بنجاح؛ لأن المصاب به متى أدرك طبيعته وسببه فقد يبرأ منه. أما إذا رأى أن مرضه غير قابل للشفاء، فلا أقل من أن يجتهد في إلحاق أقل ما يمكن من الأذى بالناس وليحذر من أن يجعل موضوع غرامه الزائل أناسًا خُلقوا للإخلاص.

إن للنزوات حلاوتها، ولكن الجريمة هي إثارة حب باق عند الآخر لمجرد إرضاء نزوة.

٦- تقديس الرغبة

كما أن القداسة الحقيقية لا تنحصر في الذهول وتعذيب النفس أكثر مما تُبنى على التواضع واللطف والإحسان، كذلك لا تعرف حالات العشق الكبيرة بنزعات الاشتهاء العنيفة، ولكنها تتميز بالانسجام التام الدائم في الحياة اليومية.

روى الراهب هوفلين أن راهبة شابة جاءت يومًا تسأل القديسة تيريزا أن تصف لها القداسة، وكانت تعتقد أن القديسة ستحدثها عن ألوان من الرؤى والأحلام، ولكن القديسة طلبت إليها في بساطة أن تتبعها إلى دير جديد كانت قد أسسته حديثًا. وهناك مكثت الراهبة

الصغيرة عدة أشهر وهي لا تلقى سوى الصعاب والعناء والارتباك والخيبة والشكوى والأعمال الشاقة، ثم عادت فجسرت على أن تسأل القديسة متى تسمح فتعلمها ما القداسة، فأجابتها القديسة بقولها: القداسة؟ إنها ليست سوى أن نتحمل بالصبر والرضى الحياة التي ستكون كل يوم هي نفس الحياة التي قضيناها في هذا البيت.

مثل أعباء الحب المجيدة تلك التي يعرفها سعداء العشاق، كمثل أيام الصيف البديعة التي تغمرنا فيها حرارة الشمس، وتجعلنا نعيش في جو من الفتور والنعيم، وتكون فيها السماء الصافية خالية من الأبخرة، على نحو لا نستطيع معه أن نتصور أن الغمام يمكن أن يعود فيغشيها؛ في هذه اللحظات التي نتصور فيها القرية المتواضعة في الريف تستحيل في الضياء إلى سراب ملائكي، هذه الأيام وتلك الذكريات الساحرة التي تخلفها هذه الأيام في نفوسنا وتبعث فينا الأمل في الاستمتاع بها مرارًا أخرى، هي ألزم ما تكون لنا؛ لأنها تهبنا القوة والشجاعة اللازمتين لتحمل شهور العواصف. ولكن لما كان الصيف والرغبة لا يتعديان في الدوام حدودهما الطبيعية، وَجَب علينا أن نتعلم كيف نحب الأيام الغائمة وضباب الخريف وأمسيات الشتاء الطويلة. يقول أبيل برنارد: إن عواطف الحب يجب أن تشبه أردية السهرة المصنوعة من الحرير المزركش المبطنة بنوع آخر من حرير غفل من النقش، ولكنه رقيق نادر ندرة تجعلنا نميل إلى تفضيل البطانة على الأصل. من أي شيء تتكون هذه الهناءة الوقورة الحنون التي تأخذ مكانها إلى جانب الحب في حياء منذ بدء الحياة الغرامية ولا تلبث أن تتحول إلى سلطان حلو؟

من أي شيء يتكون هذا الحب الذي يولد من الرغبة ولا يزال يعيش بعدها؟ إنه يتكون من الثقة والعادة والإعجاب. يخيب ظننا في الكثيرين من الناس، ولكن بعضنا قد سعد بلقاء رجل أو امرأة لهما من طبعهما وصراحتهما ما لم يَخِبْ ظننا أبدًا، لقد تصرفوا في كل الظروف كما كنا نتمنى، ولم يتخلوا عنا في أسوأ اللحظات. هذا البعض يعرف ذلك الشعور العجيب؛ شعور الثقة أمام شخص واحد على الأقل يستطيعون في بضع دقائق كل يوم أن يرفعوا القناع عن وجوههم في حضرته، وأن يتنفسوا بحرية ويظهروا على حقيقتهم، من غير خوف أو وجل، كاشفين عن وجوههم وعن قلوبهم.

الثقة هي يقين نفيس إلى حد أنه كالشوق يُضفي سحرًا على أتفه الأعمال، فهذان رجل وامرأة كانا في شبابهما يتمنيان الخلوة لحظة، وهما الآن يتمنيان مثل هذه الخلوة للإفضاء بأسرارهما، وقد أصبحت ساعة التريض لهما في نفاسة أوقات اللقاء الغرامية القديمة، وهما يعلمان أنهما ليسا متفاهمين فحسب، بل إن كلًّا منهما يستطيع أن يتعرف ما يدور بخلد صاحبه، فهما يفكران في أمور واحدة في وقت واحد، ويألم كل منهما لما يكدر صاحبه، ومن يدري فلعل كليهما مستعد لأن يضحي بحياته من أجل صاحبه.

كذلك الصداقة الكاملة تستطيع أن تلهمنا أمثال هذه العواطف، ولكن الصداقات التي لا يشوبها شيء من التحفُّظ نادرة جدًّا على خلاف العشق العظيم، فإنه يمنح أبسط الناس حدة الذكاء والثقة وإنكار الذات.

كيف نصف حياة زوجين سعيدين في خريف الحب؟ كيف نثبت أن الحبيب المؤله يبقى مؤلهًا بعد أن يخلع عنه ثوب الخيال ويعود إنسانًا عاديًّا؟ -ليس هذا بالأمر السهل. إن سيمفونية السعادة التي يلحنها موسيقي عبقري يصح أن تبلغ درجة السمو، ولكن صولة الحب العاصف قد تصعد بموسيقي مغمور إلى مثل هذا السمو، فنغمات مقدمة بارسفال المتدرجة في العلو والصفاء تأخذ بلب المستمع فتسمو به فوق الواقع، والـ **Béatitudes** لسيزار فرنك و**Requiem** لفوريه تعبر عن التجرد العجيب بصورة لا تستطيعها الكلمات؛ لأن تصاعد نغماتها الطبيعي يضم إلى جانب ذلك تناسقًا لا يوصف. وإذا كنت أذكر صلوات فوريه، فلأن فكرة الموت كانت دائمًا هي النشاز الوحيد الذي يعكر صفو تلك العواطف الخالصة.

نظم كوفنتري باتمور قصيدة رائعة، يصف فيها اختلاط عقل رجل رأى نفسه فجأة يواجه جثة امرأة كانت هي كل العالم في حسابه، فوقف يلوم الميتة في حنو وألم وشكوى، ويعتب عليها تركها إياه، ويقول: «ليس هذا في شيء مما تعودناه من لطفك وعظمتك، ألست نادمة يا حبيبتي على ما وقع منك في ذلك اليوم من أيام يوليه الذي فيه أزمعت ذلك السفر الطويل، وجعلت تنظرين نظرات مذعورة وتفوهين بعبارة غامضة دون قبلة أو كلمة وداع. حقًّا لم يكن لذلك شبيه فيما ألفناه من تصرفاتك»، إن من شرف الحب ومن مواضع الخطر فيه، أن يكون كل شيء فيه رهنًا بحياة شخص هو نفسه عرضة للفناء.

يقف الموت مكتوفًا أمام الحب الخالص، فقد جمعتني الصدفة

ذات يوم في إسبانيا بعجوز من الفلاحات ذات وقار رائع، فقالت لي: «ليس عندي ما أشكو منه... حقًّا لقد لقيت من الحياة نَصَبًا، ولكني أحببت في العشرين من عمري رجلًا... وأحبني فتزوجنا... وبعد بضعة أسابيع مات الرجل... لقد نلت منه نصيبي على كل حال، ولقد مضت خمسون سنة وأنا أعيش بهذه الذكرى». أي عزاء أقوى من ذلك الذي يجعلنا قادرين في زمن الألم والوحدة أن نستحضر ذكرى صافية من الحب الخالص؟ إن الإنسان ليستطيع بفضل غرام نبيل لا تشوبه شائبة، وبفضل الصور النيرة الناعمة التي يغمر ذلك الحب فيها أفكارنا وأحلامنا، وبفضل روائع عظماء الفنانين، وبفضل الإيمان الديني، اشترك الإنسان في أمور أسمى من نفسه، واستطاع أن يُخرِج من تصادم الغرائز السريع شرارة إلهية.

كيف؟ في ظني أني حاولت أن أشرح لكم ذلك بلا جدوى؛ لأن الحب ليس في حاجة إلى محللين، ولكنه أحوج إلى شعراء.

ليست الكلمة الأخيرة من فن الحب في قصص ستندال، ولكنها كما قال ستندال نفسه كامنة في ألحان موزارت. استمعوا إلى موسيقاه، أصغوا إلى تلك النغمات الخالصة ولهذا الطرب الساحر، فإذا شعرتم بعد ذلك أن حبكم مشوش متنافر، فاعلموا أنكم تجهلون فن الحب. ولكن إذا وجدتم في عواطفكم ذلك الكمال وذلك التوافق العجيب اللذين تجدونهما في هذه الأنغام، وذلك الانسجام السامي الخالص من كل خلاف، فأيقنوا بأنكم تعيشون في حالة من تلك الحالات النادرة الجديرة بأن تُعاش، وهي حالة حب عظيم.

فــن العمــل

«سرور النفس في العمل».

(شللي).

ما هو العمل على وجه الدقة؟ يقول ليتريه في قاموسه: «الشغل معناه أن نتكلف عناء من نوع ما لإنجاز عمل»، وهذا التعريف لا يبدو حسنًا. لِمَ قال «نتكلف عناء»؟ ألا يستطيع الإنسان أن يعمل في ابتهاج وسرور؟ لنقفل القاموس ولنضرب مثلًا:

لنتأمل الزَّجَّاج وهو يشتغل، فماذا يصنع؟ إنه يتناول عجينة لا شكل لها فيعطيها شكلًا نافعًا. وماذا يصنع المعدِّن؟ إنه يقتطع قطعة من مادة أولية كالفحم أو الحديد ويسلمها إلى أناس آخرين يحولونها إلى طاقة أو حرارة أو أداة. وماذا يصنع الزارع؟ إنه يشق الأرض ويهيئها لتلقي البذور، ثم يحمل هذه البذور إلى المكان الصالح لإنباتها. وماذا يصنع الكاتب القصصي؟ إنه يتناول المادة الإنسانية التي جمعها بمشاهداته ويصنع منها ما صنع الزَّجَّاج من تلك العجينة التي لا شكل

لها، وإنه يخرج منها تحفة فنية –وماذا يصنع التلميذ؟ إنه يحاول أن يُحصِّل المعارف التي كسبتها الإنسانية قبله، إنه ينظم عقله ويكون نفسه. فالعمل هو أن نفرض على المواد وعلى ما وهبته لنا الطبيعة من الكائنات، تغيرات أو تكييفات معينة تجعلها أكثر نفعًا أو أكثر جمالًا، والعمل أيضًا هو دراسة نواميس هذه التحولات وإعدادها أو توجيهها.

١- إرشادات للعاملين

على الرغم من تعدد الأعمال وتنوعها لا بأس من إيراد بعض الإرشادات التي يعم نفعها جميع العاملين.

(أ) يجب أن يختار الإنسان عمله من بين الأعمال المستطاعة، فإن للمقدرة والذكاء الإنساني حدودًا، وكل من طمع في عمل كل شيء لن يعمل شيئًا أبدًا، فإننا نعرف الكثيرين من أصحاب الكفايات المائعة، أولئك الذين يهجسون تارة: «أستطيع أن أكون موسيقيًّا عظيمًا»، وتارة: «من اليسير علي أن أكون من رجال الأعمال»، وتارة: «سأوفق بلا ريب إذا دخلت الحياة السياسية». كونوا على ثقة بأن هؤلاء جميعًا سيكونون دائمًا موسيقيين هواة، وصُنَّاعًا خاسرين، وسياسيين مهزومين؛ وقد كان نابليون يقول: «إن فن الحرب ينحصر في أن تكون أنت الأقوى في نقطة معينة»، وفن الحياة ينحصر في أن تختار نقطة لهجومك وتركز فيها كل قواك. فلا تدع اختيار عملك للصدفة واسأل نفسك: «لأي شيء أنا صالح؟ ما هو استعدادي الطبيعي؟» هذا ما يجب أن يتساءل عنه المبتدئ؛ إذ لا طائل من وراء مطالبة الطبع بما

ليس في مقدوره. فإذا كان لك ولد جسور، فمن الخير أن تجعل منه طيارًا بدلًا من أن تحاول أن تخلق منه مدير مكتب، فإذا تم الاختيار، فلا نكوص ولا ندم، ما لم يكن هناك خطأ أو عارض خطر.

وللعمل المختار فروع متعددة تستلزم وقوع اختيار جديد على واحد منها، فالكاتب لا يستطيع أن يستوعب كل ضروب القصة، وليس في مقدور السياسي أن يتناول بالإصلاح جميع الإدارات والمصالح، وتقصر همة السائح عن ارتياد جميع أقطار العالم، فواجبك هنا أيضًا هو أن تصدر قرارًا لا نقض فيه باستبعاد كل ما لا يكون في حدود طاقتك، وأن تفسح لنفسك وقت الاختيار.

وكما يختم العسكريون مناقشاتهم متى حسبوا عاقبة «أمر» بكلمة «تنفيذ»، فاختم أنت كذلك مناقشاتك الداخلية مع نفسك بمثل ذلك فإذا كنت تسائل نفسك: «ماذا أنا صانع في العام المقبل؟ ألهذا الامتحان أعد نفسي أم لذاك؟ أأسافر إلى الخارج أم ألتحق بمصنع هنا؟»، فمن الطبيعي أن تناقش جميع هذه الأسئلة مناقشة مستفيضة، كما أنه من اللازم أيضًا تقرير حد معين لزمن المناقشة يليه الاستقرار على عزم، فإذا عزمت فانتقل إلى التنفيذ، فليس من وراء الندم طائل وليس للتردد والتغيير نهاية.

ولكي تستوثق من صدق اختيارك، يحسن أن تضع من حين إلى حين منهاجًا مكتوبًا لأهدافك القريبة والبعيدة، فبمراجعة هذا المنهاج بعد بضعة شهور أو سنوات، ندرك مدى قدرتنا ونعرف مبلغ قوتنا،

على أن نستبعد من عناصر المنهاج العنصر الذي يقتضي التنفيذ العاجل قبل غيره؛ إذ إليه وحده ينبغي أن يوجه الالتفات كله. الزم عملك ولا تعمل غيره، واعمله بكل قلبك، وليكن جسمك وعقلك موجهين إلى الهدف، فإذا أدركته جاز لك أن تعود أدراجك وتفحص ما عسى أن يكون قد اعترض سبيلك من العقبات، وإياك أن تحيد عن عملك قبل الفراغ من إنجازه.

إن الظرفاء من الناس هم الذين يظهرون اهتمامًا بكل شيء، ولكن الذين ينجزون الأعمال هم أولئك الذين لا يهتمون إلا لأمر واحد في وقت واحد، وهم أصحاب العقول «ذات الخط الواحد» **One track mind** كما يقول الأمريكيون، وهم مضجرون في بعض الأحيان؛ لصلابتهم وانحصار أفكارهم، ولكن حملاتهم المتكررة تنتهي بنسف ما يعترض طريقهم من الحوائل.

(ب) ينبغي أن تعتقد في إمكان النجاح: فأنت إذا ما حددت غرضك بعناية، فمعنى ذلك أنك قد اخترته بحيث أن قواك تمكنك من الوصول إليه إلا إذا حدث حادث. ولا فائدة من أن تهدف إلى ما لا سبيل إلى إدراكه. بل ربما كان في ذلك الخطر، فقد تزعزع الخيبة ثقتك وتشل جهودك.

كان جيته ينصح للشعراء الشبان أن ينظموا المقطوعات القصيرة وألا يتورطوا في نظم الملاحم. وكان صمويل بتلر يقول: «إذا أكلت العنب فابدأ بأحسن الحبات». وقد يكون من الخير عند وضع مؤلف

ضخم معقد أن تبدأ بكتابة أكثر الفصول سهولة. وعند الشروع في رحلة يشق القيام بها دفعة واحدة لطولها، يكون من الصواب أن تُقسم إلى مراحل، وأن يتفرغ الإنسان لكل مرحلة على حدة، ولا يتطلع إلى التي بعدها، كصاعد الجبل ينظر أمامه إلى كل درجة يحفرها في الجليد ولا يرفع بصره إلى القمة، فإن بُعدها يفزعه، ولا يُخفضه نحو الهاوية فعمقها يهوله. وقد تبدو كتابة تاريخ بلد من البلاد مشروعًا فوق الطاقة، فقسمه إلى عصور، وتفرغ لكتابة العصر الذي تجيد معرفته، ثم انتقل إلى الذي يليه فالذي يليه، فستدهش يومًا إذ ترى نفسك في خاتمة متاعبك وأنت تنظر إلى سور الجليد الشاهق الذي اجتزته. وبعد بضع تجارب يقوى القلب ويصبح التنفس أكثر انتظامًا. فالمؤلف الذي وضع عددًا كبيرًا من الكتب لا يعود يشك في إتمام مؤلف جديد بدأه، ويشرع في الصعود فوق نضد من المجلدات في شجاعة مارتن دوجار ودو هاميل وجول رومان، وهو واثق من بلوغ قمته يومًا ما.

يصل رجل مثل ليوتي إلى مراكش، فيرى بلدًا قد شمله الانحلال؛ لا رؤساء ولا مالية ولا جيش، فلو أن غيره مكانه، ليئس من أن يعيد إلى هذا القطر أي نظام، ولكن ليوتي تفرغ أولًا إلى تدعيم سلطته على ما كان في يده من المدن: رباط الفتح وفاس، ومن هذه المراكز مد سلطانه على القبائل مصطنعًا سياسة بقعة الزيت، فصار يستولي على البلاد جزءًا فجزءًا، ويتغلب بعد جهود طويلة على الخلافات فلا يبقى منها إلا الضعيف التافه. وكذلك الحاصد لا ينظر إلى نهاية الحقل،

وربة البيت التي تشرع في عملية تنظيف واسعة النطاق إنما تتناول خزائنها رفًّا رفًّا، ولكن الرجل الطائش يظن أن كل شيء سهل فيعرض نفسه إلى مفاجآت مروعة. والجبان يرى كل ممكن مستحيلًا فينكص قبل أن يشرع. أما الصانع الكفء فيعلم أن أمورًا عظيمة في حدود الإمكان فيتمها بحذر واحدًا بعد واحد.

(جـ) ينبغي أن يوضع لكل عمل نظام. يشكو الكثيرون من قصر الحياة، فهل راضوا أنفسهم على أن يعيشوا ثماني ساعات في اليوم؟ إن العمل الذي ينجزه ذلك الرجل الذي تراه كل صباح منذ الفجر جالسًا إلى مكتبه أو أمام منضدة عمله أو في دكانه لهو من العجائب، تصور أن الكاتب الذي لا يخرج كل يوم أكثر من صفحتين قد يرى في آخر حياته أن إنتاجه يُضارع -لا من حيث العبقرية طبعًا، بل من حيث الاتساع- إنتاج بلزاك أو فولتير! ولكن جلوسك إلى مكتبك ليس هو كل شيء، بل يجب أن تتحصن وراء هذا المكتب، فقيمة عملك ستتضاعف بنسبة هندسية متى كان مستمرًّا لا ينقطع، يصح هذا بالنسبة للكاتب الذي يحتاج إلى وقت للمضي فيما هو بسبيله من الأعمال لينسى العالم الخارجي، ولا يلتفت إلا لأفكاره وصور ذهنه، ويصدق هذا أيضًا بالنسبة للميكانيكي الذي يبحث عن سبب تعطل آلة، ولمدير المصنع وهو بسبيل إعداد ما سيصدر من الأوامر، فإن آثار التقطع تظهر دائمًا على العمل المجزأ، لذا كان من الواجب على كل مشتغل بإنجاز عمل، أن يقصي أولئك الذين يسميهم منترلان: «أكلة الوقت»، وهم بعينهم ثقلاء موليير، فإنهم مجردون من الشفقة يأخذون

آخر ثانية من وقت من لا يقاومهم من غير أن يفكروا لحظة في أنه لو ترك ونفسه لاستطاع أن يقوم بعمل قيم، ولكنهم بلا ضمائر «فآكل الوقت» الغليظ القلب لا يتورع في يوم إعلان الحرب عن طلب مقابلة رئيس أركان حرب الجيش ليحدثه عن حالة بواب منزله في الجيش؛ ويمارس «أكلة الوقت» مضايقاتهم بكل وسيلة: بالزيارة وبالتليفون وبالبريد، والطيبة معهم والصبر عليهم من الأخطاء الجسيمة، والواجب أن يُعاملوا بالشدة؛ لأن استقبالهم والاستماع إليهم ليس إلا انتحارًا. ويُعدّ جيته في هذه المواقف أستاذًا بحق فهو يقول: «يتحتم عليك أن تستل من نفوس هؤلاء الثقلاء ميلهم إلى مباغتتك من غير تنبيه سابق، حيث إنهم يريدون منك أن تهتم بأمورهم، وليس من وراء زياراتهم إلا أن يدخلوا عليك أفكارًا غير أفكارك مما لست في حاجة إليه؛ لأن عندي من أفكاري ما فيه الكفاية، وحسبي أن أصل بهذه الأفكار إلى غايتها.

ويقول في معرض آخر: «ينبغي لمن يريد إنجاز عمل نافع للناس أن يتحصن دون الوقوع في حبائلهم، وذلك دفاع شرعي، يبرره أن هؤلاء الناس أنفسهم لن يقصروا في لومك إذا لم تنجز عملًا من الأعمال، وهم لا يعذرونك فيما ضاع من وقتك، حينما كنت تستقبلهم ببشاشة وسيقولون لك: لقد جانبت الصواب بخروجك كثيرًا.. إنك تهمل عملك. ثم يقولون بعد ذلك: تفضل شرفنا على الغداء غدًا، وفي هذه الحالة يجب أن تنتهز الفرصة وترفض هذه الدعوى».

كان جيته إذا باغته واحد من هؤلاء الثقلاء، لم يلبث الرجل أن

يقنط لما يقابل به من الجمود والبرود، فإن جيته كان يشبك يديه خلف ظهره ويصمت. فإذا كان الزائر من ذوي المكانة، تكلف جيته السعال وجعل يهمهم همهمة متداركة، ويقول بين الحين والحين: «هكذا هكذا» حتى يقضي على حديث الزائر.

أما الرسائل فإن كانت طلبًا ألقى بها في سلة المهملات، وإن كانت مما يشتمل على عرض من ورائه فرصة طيبة أجاب عليها. وكان يقول أيضًا: «ويْحَكُم أيها الشباب إنكم لا تعرفون قيمة الوقت!»[1].

ورب قائل: «إن هذه أثرة قاسية، وإن كثيرًا من العظماء يعنون بالرد على الرسائل الموجهة إليهم، وإن أناسًا جديرين بالالتفات والعطف والمحبة يغمرهم طوفان هؤلاء الثقلاء».

إن كثيرين شكوا من تصرفات جيته معهم، وكانوا يرون في ذلك ما ينافي الإنسانية. ولكن لولا هذا الذي ينافي الإنسانية لما أخرج لنا جيته فاوست، وولهم مايستر؛ والواقع أن من استسلم للأكل أُكل ومات دون أن ينجز عمله، والرجل المشغوف بعمله لا يطلب إلى الآخرين إلا ما يستطيعون أن يقدموه إليه في سبيل هذا العمل. إنه لا يرفض أي شغل نافع يستطيع أن ينجزه في إتقان، ولكنه يتجنب المجتمعات والمحادثات والدردشة والكلام الفارغ؛ بل إن جيته ينصح من يريد العمل بألا يهتم بالحوادث اليومية ما لم يكن له فيها بعض الأثر، وفي الواقع أننا إذا قضينا في كل صباح ساعة في استطلاع أخبار حروب

(١) روبرت دي هاركور: جيته وفن الحياة.

بعيدة، وساعة أخرى في ذهول لهول نتائجها المحتملة، مع أننا لسنا من الوزراء ولا من القواد ولا من الصحفيين، فلن نكون قد أدينا أي خدمة لبلادنا، بل نكون قد بددنا الثروة التي لا تعوض وهي حياتنا الواحدة القصيرة.

(د) كان تنظيم العمل عند جيته على هذه الصورة يستتبع تنظيم الشعور أيضًا، والواقع أننا إذا استسلمنا إلى تقلبات شعورنا بغير تحفظ، أصبحنا غير قادرين على العمل، نعم إن هذه التقلبات طبيعية ولا نستطيع أن ننصح للناس أن يضحوا في جميع الظروف بحياتهم العاطفية في سبيل أعمالهم، ولكن الواجب حفظ القاعدتين الآتيتين ومراعاتهما:

الأولى: ألا يصرفنا عن عملنا شعور باطل أو مبالغ فيه، فكم من الفتيات عجزوا عن نوال شهاداتهم بسبب أخطاء امرأة خليعة.

الثانية: أن نضحي بكل شيء في سبيل إنجاز الأعمال التي تستحق هذه التضحية. كما ضحى بروست بحياته لإتمام قصته، وكما يضحي رئيس الدولة بكل شيء في حالة الحرب أو الأزمة الخطيرة، فالمارشال جوفر مثلًا كان يأبى على نفسه الاستسلام إلى عواطفه، حتى لقد شكا بعض أصدقائه من صلابته، ولكن هذه الصلابة هي التي مهدت السبيل إلى إصلاح الموقف على نهر المارن.

(هـ) إن كبار العاملين كلهم أو جلهم ممن يلجأون إلى العزلة من حين لآخر، فلهم بيوتهم الخلوية في الريف أو مغاورهم في الجبال

أو شواطئهم المنزوية، حيث يتحللون من جميع الروابط حتى روابط الحنو والمحبة. وهناك تتخذ الحوادث والأحاسيس مكانها المناسب في لوحة الزمن، أما في ضوضاء المدن، فإن مشهدًا أو مقالًا في جريدة أو مجرد ثرثرة يلوح أن لها شيئًا من الأهمية، تحتل مكان الأعمال أو العواطف الجدية، ولكن تحت سير النجوم البطيء تختفي الأمور الحقيرة في الظلام ولا تعود ترى، وفي سكون الليل وفي هدوء النفس يمهد الميدان الفسيح ويُنقى من شوائب السفاسف وتوضع أسس الأبنية الخالدة.

كان موريس باريس يقول: أيتها العزلة... أنتِ وحدكِ لَمْ تُسيءِ إليَّ. ونضيف «أيتها العزلة أنت وحدك التي لم تضعفيني».

٢- الوكلاء والمساعدون والأمناء

تكلمنا عمن يشتغل بعمل ويختار هو عمله بنفسه، ويكون حرًّا في تركه أو العودة إليه، ويكون من واجبه أن يفرض على نفسه نظامًا خاصًّا؛ لأنه إذا لم يعمل فليس هناك من يفرض عليه العمل. وعلينا أن نتكلم الآن عن هؤلاء الذين ليسوا هم أنفسهم خالقين للعمل أو رؤساء له، بل إن مهمتهم مساعدة أولئك، كما يكون الياور ورئيس أركان الحرب ومدير المكتب والأمين أو الأمينة. لهذه الوظائف جميعها قواعد للعمل خاصة بها، فإن من يضطلعون بهذه الوظائف لا يكلفون بأن يرسموا خططًا أو يحددوا أغراضًا، بل واجبهم أن يمهدوا لمن استخدموهم السبل لإدراك هذه الأغراض وهي مهمة تتطلب

صفات خاصة هي:

(أ) **التواضع:** كل من يشترك مع فريق من الناس في عمل، وكل من يخدم رئيسًا ينبغي أن يكون بعيدًا عن الزهو والخيلاء؛ لأنه إذا كان ذا ميول متطرفة وإذا كان أغراضه تتعارض مع أغراض رئيسه، فإن تنفيذ أوامر الرئيس لا يكون مضمونًا على وجه الدقة؛ لأنه سيحاول أن يحيد بها ويوجهها الوجهة التي يريدها. فينبغي أن تكون الثقة بالرئيس هي الرابطة التي تقوم عليها قوة الجماعة التي تعمل معًا. ومن الطبيعي أن امتثال الأوامر يجب ألا يهبط إلى مستوى العبودية؛ فمن واجب رئيس أركان الحرب أو مدير المكتب مثلًا أن يكون في استطاعته إذا رأى رئيسه بسبيل خطأ جسيم أن يظهره عليه في شجاعة. ولكن هذا النوع من التعاون لا يكون مجديًا إلا إذا قامت هذه الصراحة على أساس من الإعجاب بالرئيس والإخلاص له. فإذا كان الوكيل لا يسلم بأن الرئيس أكثر منه تجربة وسداد رأي، فلن يخلص في خدمته. ويجب أن يكون نقد المرؤوس للرئيس عرضًا لا عادة. حدث المارشال بيتان، قال: «كنت في زمن الحرب إذا رُشح لي ضابط جديد في هيئة أركان الحرب، أصطحب هذا الضابط إلى الميدان، وأضع مشروعًا تكتيكيًّا خاصًّا يتفق مع طبيعة الموقف، وأتولى بنفسي تحديد طريقة الحل والتصرف. فإذا رأيت أن الضابط الجديد يوافق على أقوالي على طول الخط أمرته بالعودة من حيث أتى، أما إذا وجدت أنه ينقد آرائي في احترام وحزم مدحته وأبقيته. ومن المحزن أن هذه الطريقة عُرفت عني في الجيش، فلم أكن أفتح فمي بشيء حتى يبادر أصغر

ملازم بالرد عليَّ في شيء من الشدة قائلًا: -كلا يا جناب المارشال- حتى استشاط غضبي ذات مرة وأمرت ضابطًا بالعودة إلى الخندق... وكانت هذه خاتمة التجربة». إذَنْ ماذا يصنع المعاون في العمل إذا تأكد لديه أنه على حق وإذا أبى رئيسه أن يعبأ بنقده؟ إن واجبه من جهة المبدأ أن يقوم بتنفيذ الأمر بعد أن يفرغ من إبداء تحفظاته، سواء أكان جنديًّا أو موظفًا مدنيًّا، فإنه لا يتم عمل مشترك إلا إذا كان هناك نظام. أما إذا بلغ الأمر حد الخطورة بصورة يتعرض معها مستقبل الوطن أو الجيش أو المشروع إلى البوار، ففي الاستقالة متسع، وعلى الإنسان ألا يلجأ إليها إلا إذا بلغ الأمر منتهاه، وأن يبقى في مركزه متى اعتقد أن الخير في بقائه.

قد يكفي التهديد بالاستقالة لتصحيح الموقف، ولكن هذا التهديد سلاح لا يلبث أن يثلم، فحينما اشتغل ليوتي في شبابه لأولى مرة تحت قيادة الجنرال جاليني، تعلم منه فن تقديم الاستقالات، فقد كان جاليني، إذا رفض حاكم الهند الصينية إصدار أمر طلبه، بادر بتقديم استقالته، فتحفظ الاستقالة وتقدم له الترضية اللازمة لحاجتهم إليه، ثم حدث فيما بعد أن نقل ليوتي إلى جزيرة مدغشقر، وكان جاليني رئيسه الأعلى، فقام ذات يوم خلاف بين الرجلين، فعمد ليوتي بدوره إلى تقديم استقالته إلى جاليني، فأعيدت إليه استقالته بعد بضعة أيام وقد كتب على هامشها:

«كلا هذا لا يجوز عليَّ -جاليني».

(ب) **المرونة:** على رئيس أركان الحرب أو مدير المكتب أو الأمينة أن يوائموا بين مجرى تفكيرهم وبين طريقة تفكير الرئيس، ويلائموا بين أساليبهم وأسلوبه في العمل، فقد يتكلم الرئيس أحيانًا بلغة العرافين، وعليهم أن يترجموها، وعلى هذا النحو كان الجنرال فيجان ينقل أوامر المارشال فوش. وتارة لا تكون أفكار الرئيس سوى مجرد توجيهات كبروق تضيء المستقبل المظلم لحظة، وعلى رئيس أركان الحرب أن يستخرج من هذه الأوامر إرشادات مفصلة، فقد كان الجنرال برتييه يترجم أفكار الإمبراطور نابليون إلى حركات، وإذا كان الرئيس من ذوي المزاج الحاد فعلى مرؤوسيه أن يهدئوا من غضب من نالتهم منه إهانة أو تحقير، وأن يرشدوا زائريه سرًّا إلى المواضع التي يجب عليهم أن يتحاشوها.

التحقت أثناء الحرب بوظيفة مترجم لقائد إنجليزي اشتهر بأنه من كبار المنظمين، وكان ذا بسالة، غير أنه كان ذا مزاج سوداوي وطبع بلغ من شدته أن لقَّبَه ضباطه بالجنرال الأسود، ولحسن حظي -وربما لأني فرنسي- لم أكن أتعرض لنوبات غضبه، بل كانت الكلفة مرفوعة بيننا، وكان يدعوني كل يوم إلى تناول الشاي معه دون غيري. وفي هذه الخلوة كنت أستطيع أن أفضي إليه بكل شيء، بحيث انتهى الأمر رويدًا رويدًا بأن صرت موضع ثقة الضباط البريطانيين ومناط رجائهم، فكثيرًا ما كلفوني بمكاشفة الجنرال بأمور تتصل بمصلحة العمل أو بمراكزهم، وهي أمور لو أنهم التمسوا مقابلته من أجلها لقوبل طلبهم بالرفض، فعرفت عندئذ كم من الخدمات تستطيع تأديتها للأفراد أو

للجماعة إذا اتخذك رجل ذو سلطة مستودعًا لسره.

ويجب أن نحترم أطوار الرئيس ونزواته؛ لأن الوقت الذي يضيع في محاربتها خسارة لا شك فيها، فمن الخير أن تنتهي الحال بالرئيس والمرؤوس بأن يعيشا معًا في انسجام وتعاون، وعلى المعاون الماهر أن يلم بالكلمات والعبارات التي يجب عليه أن يتجنب النطق بها أمام رئيسه؛ إذ إنها توقظ عند الرجل العظيم ذكريات مؤلمة فتثير غضبه، وأن يعرف كيف يعرض عليه المسائل على الوجه الذي يسترعي اهتمامه ويحمله على أن يبدي فيها الرأي الصالح، وأن يتبين مواضع الضعف والجهل عند الرئيس، فيعمل جهده في سد النقص بحيث لا ينقص ذلك من احترامه للرئيس.

(جـ) **كتمان السر**: إن أعمال الرؤساء السرية تدعوهم إلى أن يشركوا معهم شبانًا لم يعتادوا تحمل مسؤوليات السلطة والقيادة، وأن يطلعوهم على مداولات وقرارات عظيمة الخطر. هذه الظروف الاستثنائية تستوجب كتمان السر. تقابل ذلك قاعدة لا تحتمل الاستثناء، وهي أن الشاب أو الشابة الفخورين باشتراكهما في أعمال عظيمة، ربما أغراهما حب التظاهر بالتشدق بالقصص والحكايات، مع أن واجبهما يفرض عليهما الصمت والكتمان، فإن الضرر الذي ينجم عن إفشاء السر لا حد له، على أن سرورهما بالقدرة على كتمان السر سيكون أعظم وأوفى. وليس أجدى على الإنسان من أن يرى نفسه وسط شبكة من الأسرار، وأن يعرف الحقيقة، وأن يكشف عن الأكاذيب، ولا يظهر أحدًا على شيء من ذلك. وفي هذا الدور كان موقف مدام ريكاميه يدعو إلى

الإعجاب؛ فقد أتى عليها وقت كانت فيه مستودع أسرار رؤساء أحزاب متخاصمين، أو رجلين يتزاحمان على مركز من مراكز الدولة، أو أحد الكتاب وناقديه. وكانت تصغي للجميع وتهدئ خواطرهم وتبتسم وتقوم بتوصيل رغباتهم عند الحاجة، من غير أن تكشف عن شيء من ذلك، ولم يكن دورها في ذلك كله يتعدى مجرد ردود، ولكنه دور نافع ظريف كانت تقوم به في إبداع.

(د) **الكفاءة:** لا يقتصر واجب المساعد على البحث عما يُطلب إليه من المعلومات، بل ينبغي عليه البحث أيضًا عما عسى أن يُطلب إليه منها، فيتعرف اتجاهات أفكار الرئيس ويمهد الطريق ويستبعد ما لا فائدة فيه من المشاغل، ويقوم بنفسه بترتيب المسائل مع تيسير الأعمال الضرورية الصغيرة التي تزدحم بها الحياة، وأفضل أمثلة المساعد هي السكرتيرة الفاضلة؛ فإن وظيفة السكرتيرة ليست مقصورة على تدوين ما يمليه الرئيس من الملاحظات وكتابة الخطابات على الآلة الكاتبة، بل من واجبها تنسيق أشغالها وترتيب الخطابات الصادرة والواردة ومعرفة العناوين بحيث تكون فهرسًا ودليلًا ومرجعًا حيًّا. ويجب أن تكون مستكملة لكل صفات مدير المكتب مضافًا إليها فضائل المرأة؛ لأنها كامرأة تستطيع أن تفهم بالإشارة أو بالعبارة الموجزة وأن تلطف من مظاهر الأثرة فيما حولها، وتضفي على المكتب جوًّا لطيفًا، وفي نفس الوقت ينبغي عليها ألَّا تكون امرأة أكثر مما ينبغي؛ لأن اليوم الذي يشعر فيه الرئيس بأنوثتها يتأثر فيه العمل. إن ذلك كله يتطلب توازنًا عسيرًا ولكن إيجاده لا يتعذر.

٣- العمل اليدوي والعمل العقلي

ربة المنزل

طالما اعتبر الناس العمل مدعاة للخجل وعَدُّوه عقوبة إلهية، وقد جاء في الإنجيل:

«بعرق جبينك تأكل خبزك». فكانت الأعمال اليدوية تُترك للعبيد وكذلك بعض الأعمال العقلية، ففي روما كان النحوي والحاسب من العبيد، ثم جاء أصحاب النظريات فأرادوا قسمة الناس إلى فريقين: البروليتاريين أو المأجورين؛ والبرجوازيين، وهم الذين يعيشون من دخلهم أو أرباحهم. وهذا تمييز غامض يقتضي أن يعد مدير المصرف الذي يتقاضى مرتبًا سنويًّا قدره مائتا ألف فرنك من المأجورين، وأن يُحسب التاجر الصغير ومالك الأرض الذي يحصل على عشرة آلاف فرنك بشق الأنفس من البرجوازيين الذين يعيشون على الدخل أو الربح.

وقد اهتدى آلان إلى تعريف أعتقد أنه أعمق وأجدى على الأقل، وإن لم يكن صحيحًا، فهو يطلق اسم بروليتاريا على كل أولئك الذين يعيشون من عملهم سواء أكان هذا العمل يدويًّا أم ذهنيًّا مأجورًا أم حرًّا. واسم برجوازي على كل من يعيشون من كلامهم، فإذا أخذنا بتعريفه

كان كل من النائب الشيوعي والسمسار والشحاذ من البرجوازيين؛ لأنهم جميعًا ممن يعيشون من إقناع الناس بأن ينقدوهم مالًا، وكان البنَّاء والميكانيكي والمهندس والكاتب المجيد من البروليتاريين؛ لأنهم في غير حاجة إلى إقناع الناس بالدفع، فإن جودة أعمالهم هي وحدها التي تدعو إلى الإقبال عليها، وصاحب المصنع الكبير من البروليتاريين إذا كانت ثروته محصورة في معلوماته الفنية، وهو من البرجوازية إذا كانت محبة الناس له وعلاقاته تجعله في عداد أعضاء مجلس الإدارة.

قال: فتكون هناك حالتان مختلفتان:

١- البروليتاري وهو الذي يعيش من التأثير في الطبيعة ليحولها، فهو ليس في حاجة إلى الإعجاب، بل إلى الإخضاع، فهو بهذا خشن الطبع لا يكترث بالآداب العامة، ولا يلبس طِبْقًا للزي الشائع، ولكنه يلبس طبقًا لمقتضيات عمله.

٢- البرجوازي وهو شخص خفيف الظل يحسن اختيار ما يروق من القول لمن يقومون بإعاشته كالناخبين والمستمعين والأصدقاء، وهو يلبس ما لا ينفر منه الناس، ولقد نظم كپلنج قصيدة رائعة في بيان الفروق الشاسعة بين أبناء مارتا الذين يعيشون من صناعة الأشياء وبناء الجسور وتبليط الشوارع وقيادة الطائرات والقاطرات، وأبناء مريم المضطجعين على الوسائد اللينة في عربات النوم الفاخرة، ينامون هانئين مستمتعين بعمل غيرهم.

إن كل محاولة لتقسيم الناس إلى طائفتين أو طبقتين، هي محاولة خطرة ومصطنعة على الجملة، فقد يكون ابن البرجوازي بروليتاريًّا في ذوقه وتصرفاته، لا يطيب له المقام إلا بين الآلات والمحركات، ويكون المهندس من أبناء مريم المترفين إذا سافر، فإذا دخل مصنعه كان من أبناء مرتا العاملين المجهدين. غير أن الصحيح أيضًا أن بعض الناس قد أُعفوا من الأعمال الشاقة، بينما هذه الأعمال هي الحياة اليومية للبعض الآخر، ومن هنا نشأت أعنف الأحقاد وأقسى الضغائن، فهل في الإمكان معالجة شر قديم كهذا ملازم للإنسانية منذ القدم؟ أما الثورات فقد فشلت وستفشل دائمًا؛ لأنها تغفل الطبع الإنساني الذي لا يتبدل، وتنسى خطيئة آدم وهي حقيقة لا يمكن إغفالها.

من الجائز أن ينتهي تقدم الآلات -بعد أن صير حياة العامل شاقة رتيبة مملة- بأن يقربه من الحياة البرجوازية، فقد أنقصت ساعات العمل بما يعادل الثلث تقريبًا في مدى قرن، وصارت أقسى الأشغال التي كانت تستهلك قوى العامل من عمل الآلات، وسيتصل تحولها على هذا النحو مع الزمن. حقيقة لقد استغنى بالآلة عن جهد الصانع، وحقيقة أن هذا الجهد كان يتطلب ذكاء ومهارة فاستعيض عنه بسلسلة من الأعمال المملة توزع بين العمال، ولكن هذا التغير إن هو إلا حالة انتقال، فلن تلبث مجموعة هذه الأعمال أن تناط بأشخاص آليين من نوع «الروبوت»، وعندئذٍ يصبح شغل العامل مقصورًا على مجرد الملاحظة فيصير مهندسًا.

إن الفكرة الأساسية في بحثنا هذا فيما يتصل بالعمل اليدوي،

هي: إن أي عمل من الأعمال وضيعًا كان أم شريفًا، إما أن يتقن وإما لا يتقن. فهناك مثلًا طريقتان لحفر خندق: طريقة حسنة متقنة، وطريقة رديئة خالية من المهارة، كما توجد طريقتان لإعداد محاضرة: طريقة العمل في جد وشغف، وطريقة التهاون والإهمال. والعاملة على الآلة الكاتبة تستطيع أن تخرج نسخة غثة أو نسخة بديعة، تبعًا لطريقة دقها على الأحرف وعنايتها بآلتها وتماثل أوضاع العنوانات و«توضيب» الصفحة والعناية بالمراجعة؛ فإذا جعلت هدفها الوصول إلى ما هو فوق الضروري وأجود منه، أصبحت في عملها فنانة، ولقيت جزاء مجهودها في رضى النفس الباقي؛ لأن هذا المجهود الإضافي لم تبذله من أجل الرئيس، بل من أجل نفسها، من أجل الإبداع والفخر، بذلته بإرادة حرة، وكل عمل ينجز بنية خالصة يمنح منجزه قدرًا من الحرية.

قد يصل الرضى بالعمل المتقن إلى درجة يغمر النفس معها سرورًا، فلا تعود تطمع فيما سواه من ألوان السرور والغبطة. وأنا إذا حاولت أن أتخيل جنة النعيم، فلن أتخيلها مقامًا للفراغ والراحة الأبدية تسكنه أرواح مجنحة عاطلة تغني وتعزف على القيثارة، بل مكتبًا أظل أشتغل فيه إلى الأبد بكتابة قصة بديعة لا نهاية لها، في عزيمة لذيذة وثقة لم أذق حلاوتها في هذه الدنيا إلا مدة بضع دقائق نادرة، ويُخيَّل لي أن فردوس البستاني سيكون بستانًا، وفردوس النجار منضدة للنجارة.

ربة البيت: من أروع الأمثلة التي تجمع بين العمل اليدوي والعمل العقلي عمل ربة البيت إذا تم في شوق ورغبة. والمرأة التي تحسن حكومة بيتها هي ملكة ورعية في نفس الوقت، فهي تدرك وتقوم على

تنفيذ ما أدركته، وهي التي تيسر العمل لزوجها وأولادها وتغذيهم وتمرضهم وتجنبهم الهموم والوساوس، وهي وزير المالية؛ بفضلها تتوازن ميزانية البيت، وهي وزير الفنون الجميلة تخلع على بيتها رواء من السحر، وهي وزير التربية؛ بفضلها يلتحق الشبان بالجامعة وتشب الفتيات مثقفات.

للمرأة أن تفخر بنجاحها في أن تصنع من بيتها عالمًا كاملًا، ولن يكون فخارها دون فخار الرجل السياسي الذي يوفق في إصلاح بلد. كان المارشال ليوتي يقول بحق: إن مسألة الاتساع والشمول لا أهمية لها، فإن الكمال هو الكمال في كل شيء مهما كان مداه.

إن أعمال ربة البيت عند غير طبقة الأثرياء، من أشق الأعمال على نقيض أعمال ربات الدعة والراحة، فالأسبوع ذو الراحتين، -السبت والأحد- في نظر العاملات هو الأسبوع الذي يستطعن فيه -بعد الانصراف من المصنع- أن يخصصن يومين لتدبير أمور المنزل للغسل ورتق الملابس والعناية بشؤون الأولاد، ففي كل أسرة أعمال مستعجلة يجب إنجازها، أضف إلى ذلك حرصها على ألَّا تكون قبيحة المنظر، وعلى أن ترتدي الملابس المحتشمة وأن تتثقف.

وفي الحق أن وظيفة المرأة إذا ما أُديت على الوجه الأكمل، لا تترك لها إلا القليل من أوقات الفراغ، غير أنها من الوظائف التي يجد فيها العمل جزاءه العاجل. فما أجمل أن ترى كيف استطاعت امرأة بالقليل من المال والكثير من الهمة أن تحول مسكنًا حقيرًا إلى فردوس في بضعة أيام، في هذا يلتقي فن العمل وفن الحب.

٤- عمل التلميذ

هناك فن للتعليم بطبيعة الحال، ومهنة المدرس عسيرة تحتاج إلى تجربة طويلة، وهذا ما يدركه كل منا متى أراد أن يقيم من نفسه معلمًا لأولاده. يندر أن يكون الأب معلمًا صالحًا؛ إذ يظن تارة أنه على علم بالأشياء، وهو في الواقع لا يعرفها إلا معرفة سطحية، وطورًا يعرفها ولكنه يسيء شرحها، وحينًا ينفد صبره فيكون قاسيًا لأن الدرس يضجره، وحينًا آخر يصل به التساهل إلى درجة خطيرة لفرط حبه لأولاده، فلا يكون حكمه عليهم سليمًا[1]. فعلينا الآن إذَنْ أن نتوجه إلى من مارسوا مهنة التعليم ونجحوا فيها ونسألهم الرأي.

(أ) **لا تعليم بغير نظام:** أول واجبات التلميذ أن يتعلم كيف يشتغل؛ فعليه أن يكوّن إرادته قبل أن يكوّن عقله، ولهذا كان التعليم المنزلي لا يساوي شيئًا؛ فالأسرة مستعدة دائمًا لقبول أعذار التلميذ من أي نوع كانت: فيومًا به صداع أو لم ينم مدة كافية، وهو يومًا مدعو في جهة ما، وقد يحتج بأن الممتحن كان جائرًا أو أن السؤال لم يوجه بطريقة حسنة. أما المدرسة فلا تعرف هذه الشفقة، وهذه ميزتها مما قد يحملني على تفضيل نظام «الداخلية» القديم. وأنا لا أنكر أن للنظام الداخلي عيوبًا لا يستهان بها؛ فهو أحيانًا منافٍ للأخلاق، وهو قاسٍ، ولكنه يكوّن الرجال،

(١) اقرأ كتاب «أحاديث عن التربية» لآلان

فيه يتعلم الأولاد كيف يجدون بأنفسهم مكانهم في المجتمع؛ أما في الأسرة فإنهم يجدون هذا المكان معدًّا من قبل، وذلك أمر في منتهى اليسر. وعلى أسوأ الفروض فإنني أعتقد أن نظام «الخارجية» يصح أن يأتي بنتائج حسنة حتى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، متى كان الوالدان من المعقولين. ولكن بين السابعة عشرة والعشرين تكون حياة المدن المفرطة في الحرية وبالًا على الشبان.

(ب) **ليس التعليم تسلية:** إن الغرض من التعليم هو إقامة إطار من المعلومات الابتدائية في ذهن النشء لرفعه إلى مستوى أهل عصره، ثم تدخل في هذا الإطار الحقائق المكتسبة بالتجربة والاستكشافات الجديدة تأخذ مكانها منه مع مجرى الحياة. وكل محاولة لقلب هذا الترتيب الطبيعي لتكوين عقول عن طريق تسليتهم بمشاهد الحياة الحديثة أمر غير معقول؛ فالتعليم بالصور وبالراديو وبالسينما في ذاته غير مثمر، ولا يمكن التسليم بفائدته، إلا إذا كان وسيلة لدفع الناشئ إلى بذل مجهود أو لإثارة تشوقه وحماسه؛ لأن كل ما يُحفظ دون عناء لا يلبث أن يُنسى، ولنفس هذا السبب قل أن يُرجى كبير فائدة من الدروس الإلقائية التي لا تتطلب من التلاميذ أي مشاركة شخصية، فالعبارات البليغة تنزلق على هذه العقول الفتية وتتبدد فليس الإصغاء عملًا. ولا ينطبق هذا بطبيعة الحال على تعليم اللغات الحية الذي مداره على السماع.

(جـ) **الامتحانات والاختبارات ذات فائدة كبيرة:** نسمع بين حين وآخر آباء ومصلحين مهذبين يطالبون بإلغاء امتحان البكالوريا. إنهم

مخطئون؛ فلن يكون هناك عمل جدي من غير تسابق ومن غير جزاء. ولقد كان إلغاء المسابقة العامة للمدارس الثانوية أمرًا خاليًا من الفطنة والتبصر، وقد أُعيدت هذه المسابقات لحسن الحظ؛ لأنها أنجع وسيلة لمنح المتفوقين الاعتبار اللائق بهم في الفصول.

(د) **للمبادئ الأولية أعظم أهمية:** يميل الوالدان إلى التهاون في أهمية التعليم أثناء السنوات الأولى، فتسمع بعضهم يقول: «إن ابني لا يحسن عمله، ولكن لا بأس، فهو لا يزال طفلًا، إنه لم يتخط الفرقة السابعة»، والحقيقة أن كل شيء يتوقف على عدد قليل من أساليب العمل والتفكير يجود تعليمها منذ الصغر، فإجادة القراءة والكتابة والعد أمر عظيم، فكم من الناس لا يحسنون القراءة، أو يقرؤون في عناء فلا تستحضر الكلمة في أذهانهم الفكرة التي يدل عليها اللفظ، وتسهل الرياضيات أو تصعب تبعًا لإتقان مبادئها أو الإهمال في هذه المبادئ، وكل من لا يجيد معرفة الكتب الأولى في علم الهندسة، أو لا يلم إلمامًا صحيحًا بمبادئ الجبر، يستحيل عليه أن يفقه شيئًا مما يليها ويُبنى عليها.

(هـ) **العلم بالقليل من الأشياء علمًا تامًّا خير من الإلمام بمواد كثيرة إلمامًا سطحيًّا:** لا فائدة مطلقًا من شحن البرامج، فليس الغرض من التعليم تخريج فنيين بل تكوين عقول سليمة، وبعض التداريب تكفي لذلك، كان نابليون يقول: «علموهم اللاتينية والهندسة»، فلنضف إلى ذلك شيئًا من التاريخ، وقدرًا من علم الطبيعة، والكثير من الفرنسية طبعًا وكفى.

وليس المهم في التاريخ وفي العلوم الطبيعية أن يقف الطالب على أحداث الاكتشافات وآخر النظريات الحديثة، بل يكفي أن يعرف الطريقة التاريخية والطريقة العلمية؛ لأن أعمال العلماء المتقدمين «وهي الأسهل نسبيًّا» هي أوضح وأفيد له من شكوك الطبيعيين العصريين ووساوسهم، وقد قال آلان أيضًا: «يتحتم أن يسير التعليم على سهل».

٥- فن القراءة

هل القراءة عمل: إن فاليري لاربو يدعوها رذيلة لا عقاب عليها، أما ديكارت -فعلى العكس من ذلك- يسميها «التحدث إلى أشرف أهل القرون الماضية» وكلاهما على حق. إن القراءة تكون رذيلة في حالة أولئك الذين يجدون فيها نوعًا من التخدير والتحرر من عالم الحقيقة والغرق في دنيا الخيال. فهم لا يستطيعون البقاء دقيقة واحدة بغير قراءة، ويطيب لهم كل شيء، فهم يقرؤون في موسوعة فصلًا عن الرسم بالألوان المائية بنفس النهم الذي يقرؤون به فصلًا آخر عن آلات الاحتراق، وهم إذا تُركوا وحدهم في غرفة، اتجهوا إلى المنضدة التي عليها الجرائد والمجلات، وانقضوا على أي نهر تقع عيونهم عليه، يقرؤونه من منتصفه بدلًا من أن يستسلموا لحظة إلى أفكارهم الخاصة، لا يبتغون من المطالعة أفكارًا جديدة أو حقائق. إنما غرضهم الاسترسال مع ذلك السيل المستمر من الألفاظ الذي يحجب عنهم العالم ويحجب عنهم نفوسهم. وهم لا يتعقلون إلا القليل من

الخلاصات النافعة، ولا يحسنون الحكم على قيم ما يطلعون عليه من مصادر المعرفة، ومطالعاتهم كلها سلبية، يستسلمون للنصوص ولا يفسرونها، ولا يفسحون لها محلًّا في عقولهم ولا يتمثلونها.

أما القراءة للاستمتاع فهي أدعى للنشاط، فهاوي القصص الذي يقرأ للاستمتاع هو الذي يسعى لإيقاظ الشعور بالجمال في نفسه عن طريق الكتب، أو ينشد إيقاظ عواطفه، أو يبحث عن مغامرات لا تسمح له بها الحياة، ويقرأ للاستمتاع أيضًا ذلك الذي يحب أن يجد في أقوال الشعراء والأخلاقيين ما بدا له من الملاحظات وما شعر به من الأحاسيس معبرًا عنه بعبارات أدق وأوفى. وأخيرًا يعد ممن يقرؤون للاستمتاع، ذلك الذي لا يتعمد دراسة عصر بذاته من التاريخ، وإنما يطيب له أن يلاحظ تشابه الشقاء الإنساني على مر القرون. وهذا نوع من القراءة سليم.

وأخيرًا القراءة للدراسة، وهي التي يرمي الإنسان من ورائها إلى البحث عن معلومات معينة، ومواد يجد عقله في حاجة إليها؛ لدعم بناء تراءت له خطوطه الرئيسة أو إتمامه. وينبغي للقارئ في حالة القراءة للدراسة ألا يقرأ إلا والقلم في يده، اللهم إلا إذا كان صاحب ذاكرة جبارة، ولا فائدة من القراءة إذا ما اضطر الإنسان إلى إعادة الاطلاع كلما أحب الرجوع إلى الموضوع. وإذا سُمح لي أن أذكر ما أصنعه في مطالعاتي قلت: إني إذا كنت أقرأ كتابًا في التاريخ أو في أي موضوع جدي، كتبت على الصفحة الأولى أو الأخيرة بضع عبارات تشير إلى الموضوعات الأساسية التي يعالجها الكتاب، وكتبت تحت

كل عبارة أرقام الصفحات التي أرغب في الرجوع إليها وقت الحاجة، من غير أن أضطر لقراءة الكتاب من جديد.

* * *

وللقراءة قواعدها كما لغيرها من الأعمال، فلنعين بعض هذه القواعد:

الأولى: لأن يجيد الإنسان دراسة بعض الكتاب وبعض الموضوعات، خير من أن يقرأ للكثيرين قراءة سطحية، فإن محاسن المؤلف لا تتضح عند القراءة الأولى. ينبغي أن تسير بين الكتب في أيام الشباب كما يسير الإنسان في الدنيا يبحث عن أصدقاء، ولكنه متى وجد هؤلاء الأصدقاء واصطفاهم اعتكف معهم، ففي مصادقة مونتيني أو سان سيمون أو رتز أو بلزاك أو بروست غناء للإنسان مدى الحياة.

الثانية: أن تجعل المكانة الأولى في مطالعاتك للنصوص الجيدة. ومن المحقق بل من الضروري ومن الطبيعي أن تهتم بكُتَّاب عصرك؛ لأننا نستطيع أن نجد بينهم أصدقاء لهم ما لنا من الحاجات والمشاغل، ولكن علينا ألا نستسلم لسيل الكتب الصغيرة ونتركه يغمرنا؛ فإن البدائع لا يُحصى لها عدد، وليس في استطاعتنا أن نحيط بها جميعًا، فلنثق في اختيار أهل القرون الماضية؛ لأن الخطأ يجوز على الفرد كما يجوز على جيل من الأجيال، ولكن الإنسانية بأجمعها لا تخطئ. ورجال مثل هوميروس وتاسيت وشكسبير وموليير جديرون بما نالوه

من المجد، فمن حقهم علينا أن نمنحهم الأفضلية على غيرهم ممن لم يحكُم لهم الزمن بعد.

الثالثة: أن تحسن اختيار غذائك الروحي، فلكل عقل أغذية توافقه، فلنتعلم كيف نتعرف مؤلفينا، فإنهم يختلفون عن مؤلفي أصدقائنا، وإن الإنسان ليدهش من أذواق الآخرين في الأدب، كما في الحب، فلنلزم من يوافقوننا، فذوقنا في ذلك أفضل حكم.

الرابعة: أن نحيط مطالعاتنا -كلما تيسر ذلك- بجو من التفرغ والخشوع، يماثل ما نحيط به استماعنا لفرقة موسيقية أو حضورنا لحفلة جليلة.

وليس من المطالعة في شيء أن ننظر في صفحة ثم نقطع القراءة لنرد على التليفون ثم نعود فنتناول الكتاب وذهننا شارد، وينتهي الأمر بأن نودع الكتاب إلى الغد. إن القارئ الصادق يهيئ لنفسه أمسيات طويلة هادئة منعزلة ليقرأ، ويخصص لكاتب محبوب بعد ظهر يوم الأحد شتاء، ويحمد فرصة السفر بالقطار ليعيد قراءة قصة لبلزاك أو ستندال أو مذكرات ما بعد الموت لشاتو بريان، فيجد لذة حية في مراجعة عبارة أو قطعة يحبها (مثل صفحات الوردة البيضاء أو المجدلية الصغيرة في بروست وحفلة زواج ليفين في تولستوي)، كما يترقب هاوي الموسيقى في البتروتشكا لاسترافنسكي جزء الساحر لينعم بأنغامه.

الخامسة- وأخيرًا أن يكون المرء جديرًا بقراءة أفضل الكتب؛ لأن

القراءة كالفنادق الإسبانية وكالحب لا يجد المرء فيها إلا ما يحمله إليها. فوصف العواطف لا يشوِّق غير أولئك الذين كابدوها أو من لا يزالون في ميعة الشباب ينتظرون انبثاق هذه العواطف في شيء من الضيق والأمل، ولا شيء أكثر تحريكًا للنفس من رؤية شاب كان في عامه الماضي لا يرتاح إلا لقصص المغامرات، وقد استولى عليه ميل شديد إلى قراءة قصة أنا كارينينا أو دومينيك؛ لأنه عرف وقتئذ ما هي السعادة وما هو الألم في الحب. وكبار الرجال العاملين هم أكثر الناس قراءة لكپلنج، وكبار السياسيين أكثرهم قراءة لتاسيت أو رتز.

لقد كان من المناظر الشيقة أن ترى المارشال ليوتي، وقد سلبت منه مراكش في عهد حكومة جائرة، عاكفًا على قراءة كوريولانوس لشكسبير.

إن فن القراءة هو في الغالب فن تعرُّف الحياة وإجادة تفهمها بفضل الكتب.

٦- عمل الفنان

يشبه عمل الفنان عمل الصناع الذين يعملون في منازلهم ويختلف عنه في نفس الوقت:

يشبه شغل الصانع من حيث إنه يتطلب مهارة فنية لا تكتسب إلا بدراسة أساتذة الفن وبالمران في صبر وأناة. وطبيعي أن الفن يحتاج إلى موهبة، غير أننا ينبغي أن نفهم أن الموهبة إذا أُهملت ظلت عقيمة غير مثمرة.

لقد رأيت كيف يشتغل فاليري، ونظرت فيما كتبه بروست قبل طبعه، فلم أرَ إلَّا صبرًا وطول أناة في البحث، وإصلاحًا مستمرًّا وجهودًا ودأبًا للعثور على لفظ يؤدي المعنى على وجه الدقة، أو كلمة لا يناسب المقام غيرها لأسباب خفية طلبًا للتوافق أو الانسجام.

كذلك يحتاج توزيع قطعة موسيقية على الآلات، وكتابة هذا التوزيع إلى تربية موسيقية معقدة لا ينالها إلا دؤوب على العمل مدقق فيه ولو كان عبقريًّا. ففي أرفع الفنون وأحوجها إلى الغريزة والطبع نصيب من المران والتدريب.

فإذا صبر صاحب الموهبة الفنية على هذه التجارب الطويلة اكتسب خبرة وإحكامًا في يده أو في قلمه يمكِّنانه في بعض الأوقات -متى كان ذهنه متشبعًا بما يريد التعبير عنه- من إنجاز موضوعه في سرعة وتوفيق سريعين يبدوان من العجائب في نظر من كان غريبًا عن الفن. كان وستلر يسخر من أولئك الذين يعيبون عليه إنجاز لوحة في ساعة؛ لأنهم لا يعلمون أنه أنفق حياته كلها في التجربة والمحاولة حتى وُفِق إلى هذا الحظ من الإجادة والثقة بالنفس. ولكن اكتساب هذه المهارة الفنية -وهو فرض أساسي- إن هو إلا جزء من عمل الفنان. وفي هذا الصدد يقول فاليري: إن القصيدة لا تنظم بانفعالات ولكنها تنظم بكلمات وإن كليهما لازم، ومتى كان الموضوع فنيًّا، فلا مناص لنا من الرجوع دائمًا إلى فكرة النظام والصورة اللذين يفرضهما الفن على الطبيعة؛ فالصورة ضرورية، ولكنها مهما بلغت من الكمال فلن تؤثر فينا إذا كانت خلوًّا من أي معنى آخر. فسيمفونيات بيتهوفن

صور بديعة، غير أن هذه الصور تحوي روح بيتهوفن وأفكاره وآلامه وأفراحه. وقد بلغ راسين الكمال من حيث القالب، ولكن ما يكون هذا القالب أو الوضع، لو أنه خلا من العواطف التي ضمنها راسين هذه الأوضاع؟

ينبغي ألا يقتصر الفنان على ناحية القالب، وفي هذا يختلف الفنان عن الصانع، بل يجب أن يعيش فيما يخرجه. إن الشِّعر عاطفة تطوف بنفس الشاعر وقت الهدوء.

يحسب الإنسان أن حياة الفنان يجب أن تتركب من ثلاثة عناصر على الأقل: عنصر من حياته الإنسانية، وعنصر من حياته الجسدية، وعنصر من حياته العاطفية. وهذه الأخيرة وحدها هي التي تعلّم الشاعر معرفة الإنسان إذا أضيف إليها شيء من التأمل والتخيل في عزلة؛ لأن الفنان إنسان مجتر يعيد مضغ ماضيه ليهضمه ويحوله إلى مادة فنية يضاف إليها جانب من العمل الفني. وقد يكون هذا الأخير قليلًا؛ فإني أعرف من أعلام الكتَّاب من لا يعملون أكثر من ساعتين في اليوم، ولكن تأملاتهم ومطالعاتهم ومحادثاتهم هي صور مختلفة من العمل ليست أقل ضرورية أو أهمية. يقول جيته: «كل عملنا ينحصر في أن نكون في حالة راحة».

أمن واجب الفنان أن يعيش بين الناس أم بعيدًا عنهم؟ أظن أنه يتعذر الإجابة عن هذا السؤال. فالعزلة التامة -وهي من مستلزمات القديس- مؤذية لأغلبية الفنانين؛ لأن الفنانين يعملون ما توافرت

لديهم مادة العمل. فمارسيل بروست مثلًا كان يلزم غرفته، وهناك يمضي في البحث عن الماضي المنقضي. فإذا ما سرنا على طريقته، وإذا كنا نملك ذاكرة مثل ذاكرته، وجد كل منا بلا ريب في ماضيه مواد لا تُحصى، غير أن أحدًا من الناس لن يستطيع بعد بروست أن يصنع ما صنعه هو، وأكثر الناس يحتاجون إلى التغيير، وهناك أيضًا نجد جيته خير ناصح؛ إذ يقول: الوحدة شيء جميل حيثما يكون الإنسان في سلام مع نفسه، وحيثما يكون عليه واجب معين. فالمهم إذَنْ هو أن نحدد الواجب قبل أن نبحث عن الوحدة التي يكون فيها إنجاز هذا الواجب مستطاعًا.

٧- فن الراحة

فن الراحة جزء من فن العمل، فالشخص المتعب الذي يحتاج إلى قسط وافر من الراحة لا ينتج أي عمل فيه فائدة.

وكم من صباح سيئ مر بنا عقب ليلة سهاد، حيث أبى المخ أن يعمل. في مثل هذه الحالة تكون جميع محاولاتنا لتطبيق قواعد فن العمل بلا جدوى، فإن تطبيق هذه المبادئ يستلزم أن نكون مالكين لزمام جسمنا وتفكيرنا؛ لأن أعضاءنا لا يمكن أن تعيش بغير أن يتعاقب عليها الشغل والراحة.

لذا كانت طريقة آخر الأسبوع الإنجليزية طريقة حكيمة بالنسبة للصحة الاجتماعية، فقد رأيت وزراء فرنسيين منهوكي القوى وعيونهم مغمضة بالرغم منهم، قُضي عليهم وهم في هذه الحالة أن

يتخذوا قرارات يتوقف عليها السلم في أوروبا. في مثل هذه الحالات تكون الراحة فريضة. وعندما يكون التعب نتيجة مجهود جسماني، لا تكون الراحة فنًّا عسيرًا، حيث يلقي المرء بنفسه على سريره وينام كالبهيمة. أما في حالة التعب العقلي فقد يستعصي النوم على من هم في أشد الحاجة إليه. وعندئذ يكون هناك فن للنوم، وإليك بعض أسرار هذا الفن:

(١) لكي تنام يجب أن تؤمن بأنك تستطيع النوم. وفائدة تعاطي المنومات بمقادير صغيرة جدًّا، هي بمثابة خلق لهذا الإيحاء الذاتي الموافق.

(٢) لكي تنام يجب أن تتخذ وضعًا تكون فيه جميع إحساسات الجسم في أدنى مراتبها، بأن يكون الجسم في وضع مريح تمامًا، وأن يكون مستلقيًا بتمامه على الفراش، كما ينبغي أن تكون حرارة المكان ثابتة معتدلة والظلمة كاملة.

(٣) يجب طرد جميع الأفكار الحاضرة التي تسبب الأرق. فالأسلم والأصح إذَنْ هو إرغام العقل -إذا تيسر- على أن يعود إلى أزمنة بعيدة، حيث لم تكن موضوعات مضايقاتنا قد وجدت بعد، بأن تفكر في أيام الطفولة أو أيام المراهقة، وأن تستحضر صورًا قديمة جدًّا، وأن تحاول أن ترى هذه الصور من تحت أجفانك المسبلة حيث تتكون البقع الملونة، عند ذلك تجد نفسك وقد انتقلت رويدًا رويدًا إلى عالم هادئ يختلف عما أنت فيه وتنام.

وهناك طريقة أخرى مخالفة تمامًا لهذه ولكنها ناجعة في الأغلب، وهي ألا تعلق أي أهمية على الأرق، وألا تعتبره من الأمور التي تدعو إلى القلق، فتتناول كتابًا من غير أن تتقيد بتحديد فترة انتظار النوم، بل تمضي في القراءة مترقبًا -في هدوء وفي غير تبرُّم- أن يحل الفتور الطبيعي في جسدك ويجلب لك النوم.

وليس من السهل -في أغلب الأحيان- على إنسان نشيط صحيح البدن ملء أوقات فراغه؛ لأنك إذا أبعدته عن عمله، مل وضجر وظل يدور في البيت، كما يدور الحيوان الحبيس في قفصه، ثم لا يلبث أن ينزلق انزلاقًا طبيعيًّا، وينحدر نحو الرذائل التي ليست سوى وسائل يستخرج بها الإنسان من جسده أحاسيس متعددة مشبوبة، هي في الواقع ستار يخفي وراءه شعوره بالملل من فراغ غير مملوء.

إن المدنية الحديثة بما استحدثته من الآلات وما استخدمته من الاختراعات، قد زادت في أوقات الفراغ، فعلينا أن نعرف كيف نستخدم هذه الأوقات، وإليك بعض الطرق للوصول إلى هذا الغرض.

(أ) **العمل المريح:** نعني بذلك أن نمارس بعض الأعمال التي تعتبر شغلًا بالنسبة لغيرنا، ولكن ممارستها تروح عن نفوسنا، كالتمثيل الهزلي للهواة وفلاحة البساتين والصيد والنجارة، فهي أشغال بالنسبة للممثل المحترف والبستاني والصائد والنجار، وهي ترويح للهاوي ولو مارسها بمنتهى العناية، ولذلك أسباب هي:

أولًا: لما كان تغيير العمل يدفع إلى الحركة عضلات وأعصابًا أخرى فهو في ذاته راحة.

ثانيًا: لأن الهاوي يحس -وهو يمارس هوايته- أنه قد تحرر من الكفاح مع العالم الخارجي، فهو يعمل في حرية تامة، ويعلم أنه يستطيع في كل لحظة أن يترك ما هو بسبيل صنعه، فيشعر بأنه أُعفى من آلام قهر النفس.

(ب) **اللعب:** فهو نوع من النشاط أكثر ما يكون بعدًا عن قصد المنفعة؛ إذ إنه لا يرمي إلى حل مشكلات حقيقية، بل إن مداره الخضوع لقواعد اختيارية يسلم بها اللاعبون بمحض اختيارهم، فلاعب الشطرنج أو البريدج لا يكافح العالم، بل يناضل ضد الذكاء المحض -وهنا يبرز عاملان من عوامل الراحة: الأول علم اللاعب بأن غلبة منافسه عليه لا أهمية لها. والثاني علمه بأن تدخل الحظ في مجرى اللعب محدود. هذا وينبغي أن تراعى القيمة الأخلاقية العظيمة للرياضة؛ فاللاعبون يفرضون على أنفسهم احترام قواعد اللعب، وبغير هذه القواعد لا يصح اللعب- فإذا تعود شعب من الشعوب احترام قواعد اللعب وتأصلت مراعاتها في نفسه على تعاقب الأجيال عن طريق المثابرة على ممارسة الرياضة، كان لذلك أحسن الأثر في تكوين مواطنين يمتازون باحترام القوانين. والإنجليز يأخذون الحياة على أنها ألعاب منظمة خاضعة لقواعد لا معدى عن مراعاتها، ولهذا يقولون: «فلان لا يُحسن اللعبة». يريدون أن يغش في الحب وفي

الأعمال وفي السياسة. وليست المدنية في الواقع سوى قبول البشر لعهود متبادلة، وأكثر هذه العهود اختيارية ولا تختلف عن قواعد لعبة التنس أو الجولف، ولكنها لما كانت تمكننا من تقدير تصرفات أولئك الذين نعيش معهم، وفي حالة عدم مراعاتها يحل الخوف فيها محل أدب السلوك، ويرغم الناس على احترامها، وكذلك يحل نشاط الحرب محل نشاط اللعب.

(جـ) **مشاهدة التمثيل:** نحن في هذا لا نعمل إلا عن طريق غيرنا؛ ذلك أننا نقعد ساكنين نشهد أعمال الغير ونهتم بها؛ لأن أي شأن من شؤون الإنسانية لا يمكن أن نعتبره غريبًا عنا، فالعواطف والشهوات التي تعرضها المسرحيات إن هي إلا عواطفنا وشهواتنا ونحن نعيش فيها مع المؤلف. وماذا يريحنا في ذلك؟ يريحنا أننا في دنيا الفن غير مطالبين باتخاذ أي قرار.

وهذه القصة التي تهزنا، والتي ربما كانت هي قصتنا نحن، إنما تقع في عالم الخيال، ونحن نعلم ذلك.

إن الأسلوب الذي ينهجه علم الجمال، بعيد جدًّا عن الأسلوب الذي ينهجه علم الأخلاق، غير أن المشهد التمثيلي يصرف النظارة عن صغائر الحياة، ويشركهم في نزعات نبيلة تعمل على رفع نفوس الكثير منهم والسمو بها، بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن هذه التسلية، التي نعتبرها هدنة عظيمة القيمة تفصل بين فترات الكفاح الحقيقي في معترك الحياة، تصبح بغيضة إذا احتل الاهتمام بالتمثيل المكان الأول من عنايتنا. إن

مشاهدة السينما والاستماع إلى الراديو على صورة جرعات صغيرة، تروح عن النفس وتهيئ الفكر لأعمال جديدة، ولكنها إذا أُخذت بجرعات ضخمة فإنها تبلد الذهن. إن هذه الألوان من الترويح تعتبر في هذه الحالة أكثر من القراءة: «رذائل لا عقاب عليها».

(د) **السياحة:** كل تغيير للمناظر المألوفة فيه راحة، لا لأنه لا يفرض علينا أعمالًا يومية شاقة متنوعة، بل لأنه ينتزعنا من بين مسؤولياتنا وتبعاتنا. وإذا استثنينا بعض الأشخاص الرسميين، وجدنا أن المسافر يعيش لنفسه لا لوسط معين ولا يتصرف داخل حدود الأسرة. فالبلد الأجنبي ليس إلا مشهدًا تمثيليًّا في نظرنا لا نشعر فيه بشعور المسؤولية الذي لا ينقطع. ويحتاج كل منا من وقت لآخر إلى «حمام» من التجديد والحرية، على أن فترات الراحة يجب ألا تطول. وأنه ليدهشك حقًّا أن تجد أن تغيير المنظر لبضعة أيام، قد أعاد إلى ذهنك جدته وصفاءه.

٨- خاتمة

إن من يحب عمله حقًّا يعود إليه بعد راحة قصيرة بلذة عجيبة، ومتى اندمج إنسان في صناعته، خُيِّل إليه متى انقطع عن العمل أن حياته تتوقف. ومع ذلك أهو ينقطع حقًّا عن عمله؟ كلا! إنه يحمل معه همومه؛ فالكاتب المسافر مثلًا يقلب ويدير في ذهنه جملة ناقصة التكوين، وإذا ما استيقظ ليلًا تراءت له ألفاظ معادة، فهو يمحو ويصلح في الظلام صحفًا وهمية، ومدير العمل الصناعي إذا أبعدته عن مكتبه

وجئت به إلى شاطئ البحر، أمسك القلم واضطجع على الرمل يعيد النظر في تعديل تكاليف الإنتاج، وإذا كان قريبًا من مصنعه عاد إليه صباح السبت -برغم تغيب الموظفين والعمال- وجال في العنابر الخاوية مفكرًا في تعديلات وطرق آمن وأعمال أعظم.

والزارع يتريض يوم الأحد في أرضه، وما من طائفة من الأشجار أو حزمة من الحشائش إلا ولها عنده سبب وقصة ومصير، وإن عينه لتدرك الأثر الذي خلفته الأمطار الأخيرة والمياه الغائرة في زروعه، وإن الطريق الذي يسير فيه يحدثه عن ألاعيب هذه المياه وتعاريجها ومعابرها الصعبة وأغوارها، وكل شيء يحكي له جانبًا من أعماله السابقة، ويفتح له أبوابًا جديدة للعمل. لا بد أن تكون الجماعات الإنسانية قد أُصيبت بالغباء والخرق، وأن يكون أصحاب المذاهب الاجتماعية قد تجردوا من إنسانيتهم حتى يزهدوا الناس في أعمالهم؛ لأن تعلق الإنسان بما يصنع عاطفة طبيعية. وقد صدق من قال: إن «العمل يبعد عنا السأم، ويجنبنا الرذيلة، ويكفينا شر الحاجة»، وهو الشفاء للأمراض التي يخلقها الوهم.

كان الكولونيل الإنجليزي الذي كنت أعمل معه طيلة حرب ١٩١٤ يكرر على سمعي هذه العبارة: «إن الله يبارك العمل»، حقًّا لولا العمل لكنا يومئذ في شقاء مقيم؛ فما كانت أسباب القلق تفارقنا لحظة؛ إذ كنا بعيدين عن أحبابنا معرضين للأخطار مشفقين من المستقبل. فكيف كنا نستطيع أن نستسلم لهذه الهواجس الحزينة ونحن غارقون في لجة العمل؟

وفي هذه الأيام البغيضة من سبتمبر سنة ١٩٣٨ عندما أصبحنا من جديد على شفا جرف من حرب رهيبة، وعندما ساورتنا تصورات دامية من قذف القنابل ليلًا، لم نكن نجد شيئًا من الصفاء إلا في أحضان العمل. لقد أسعدني الحظ بأن أقضي بعض الوقت في الجيش، وكان يقودنا ضباط أذكياء جعلونا نعمل بشوق واهتمام من الصباح إلى المساء، بعقول مركزة في العمل موجهة إلى أهداف محددة ميسور إدراكها، فلم تكن أذهاننا -لهذا- تتسع للأحلام المفرطة، ولا تقوى على شطحات الخيال، وكان علينا في الليل أن ننام؛ لأننا كنا متعبين، وعلى هذا النحو انقضى الأسبوع الرهيب.

وما ينطبق على الأفراد ينطبق أيضًا على الشعوب، فلو أن حكومة نشيطة وضعت لفرنسا برنامجًا للعمل، لتراءت لنا في نهايته الثقة في النهوض والأمل بالنجاح، وإذَنْ لانصرفت عقول الشعب عن الاستسلام إلى الأحلام الغامضة، ولمال الجميع إلى المشاركة في عمل عظيم، واقتنعت البلاد من أقصاها إلى أقصاها بقول رئيسي الكولونيل. إن الله يبارك العمل! وأنا إنما أحدثكم بذلك عن تجربة وأصدر فيه عن رجاء وطيد.

فن القيادة

إن الإنسان -وهو الطموح المتكبر- لا يستطيع أن يفهم من نفسه لماذا ينبغي أن يحكمه إنسان آخر، حتى تجبره حاجاته نفسها على الشعور بضرورة ذلك الحكم. وخوارق الأحداث هي التي تجعله يؤمن بأنه إذا ما تُرك بغير قيادة، أصبح فريسة للأقوياء، وتحمله على أن يحب الطاعة بقدر ما يحب حياته وطمأنينته. «لويس الرابع عشر».

لا يستطيع الناس أن يشرعوا في عمل مشترك، وأن يتموا هذا العمل ويجنوا منه ثمارًا طيبة، إلا إذا قام واحد منهم بتوجيه نشاطهم في كل لحظة نحو غرض واحد. تلك فكرة صحيحة وبديهية تصدق على كل الحالات التي ينبغي أن تسير وفقًا لنظام مقرر. فلا فائدة من اجتهاد طائفة من العمال في مد خط حديدي، أو طائفة أخرى في التجديف -مهما بلغوا من قوة السواعد- إذا لم يكن هناك رئيس ينظم حركاتهم. بل إن كل عمل جماعي تُرك بغير قيادة لا يلبث أن يؤول إلى الاضطراب والفوضى. وكل من اشترك في حرب يعرف الحاجة إلى القيادة؛ وما كان صحيحًا في الجيش فهو صحيح أيضًا في المصنع وفي الجريدة وفي الحكومة، فلا غنى للناس عن رئيس حيثما كان لا بد أن يعملوا معًا، ومتى وُجد الرئيس وسارت القيادة في نشاط ودقة، حل النظام محل الفوضى.

وفي غضون حرب ١٩١٤ شوهدت فرق سيئة القيادة كانت تقاتل متقهقرة وتستسلم للفزع، فإذا بها تتحول إلى الشجاعة والمقاومة بمجرد أن يتولى قيادتها قائد كفء.

الشعب هو الشعب والناس هم الناس، وبغير قيادة لا يكون عمل عسكري، ولا تكون حياة وطنية، ولا حياة اجتماعية.

لذلك اتخذت الجماعات في جميع عهود التاريخ رؤساء جعلتهم رتبًا على نسق درجات الهرم. إلا أنه كلما استقر النظام بفضل هؤلاء الحكام واطمأنت الشعوب إلى مصيرها، حاولت هدم نظام الرتب والدرجات، حتى إذا عادت الفوضى من جديد، أُعيد نظام الرتب في أشكال جديدة.

ففي الدولة الرومانية عندما فقد أصحاب المراتب الإدارية والعسكرية نفوذهم، حل محلهم نظام الطبقات الإقطاعية بعد عهد طويل من الفوضى والاضطراب. وفي روسيا عندما أُلغى نظام رؤساء العمل، خلفتهم في سلطتهم أوليجارشية بيروقراطية من المهندسين. وهذا هو السبب في أن القائمين بكل ثورة -برغم أمانيهم ووعودهم- لم يأتوا بالمساواة للناس. يصح بل يجب أن تكون المساواة من نوع «تكافؤ الفرص» التي يسميها نابليون «المناصب لذوي الأهلية»، كما يصح بل يجب أن ننشد المساواة أمام القانون، لكننا لا نتصور حق الجميع في القيادة، كما لا نتصور جماعة بغير قادة.

١ - كيف يُختار الرئيس

لم تبتكر الإنسانية في تاريخها الطويل لاختيار رؤساء سوى عدد قليل من الطرق هي:

(أ) **الرئيس الوراثي:** وهي أقدم الطرق التي استُخدمت في عهد حكم الأسرة، حيث كان الابن يخلف أباه. فإذا لم تحصر الوراثة في الولد البكر، تعرضت الجماعة -في ظل هذا النظام- إلى نزاع بين الإخوة يتبعه الشقاق والاضمحلال. وفي التوراة وفي المآسي اليونانية آثار هذه الخلافات. أما في عهود الملكية القديمة المقدسة، فكان انتقال الملك بطريق الوراثة يجري دون خلاف. فضلًا عن تمتع الرئيس الوراثي -في نظر رعيته- بمكانة طبيعية عظيمة الشأن بالغة الأثر. ويرجع الدور الذي يقوم به الملك في إنجلترا، وهو دور الحكم بين الأحزاب إلى هذه المكانة السامية. كان نابليون، وهو يحاول أن يؤسس أسرة حاكمة، يشعر بالحاجة إلى هذه المكانة؛ لأنه كان يعلم أن الملك يبقى ملكًا ولو هُزم، ولكن نابليون الإمبراطور لم يكن يستند إلا على النصر بعد النصر.

ونحن نصادف نفس الشعور في الأملاك الواسعة أو المشروعات الكبيرة التي تتوالى على إدارتها أجيال متعاقبة من أسرة واحدة،

فالنظَّار والوكلاء والزرَّاع الذين يسأمون كل سلطة، نراهم يرحبون بسلطة وارث اللقب، وليس هذا مجرد عادة، بل هو شعور طبيعي وقياس صحيح؛ إذ إن الأب ينقل إلى أبنائه تقاليد من حسن القيادة والتعلق بالمشروع، والمدير الوراثي كالملك الوراثي، يشعر بأنه مرتبط بأملاكه بروابط من الشرف تملي عليه الإخلاص والتضحية، وقد شوهدت من ذلك في فرنسا أمثلة رائعة إبان الأزمة الاقتصادية الأخيرة، وتنحصر أخطار نظام الوراثة هذا في أن الابن البكر من الأسرة الحاكمة أو القائمة بالإدارة قد يكون قليل الكفاية أو جلفًا قاسيًا، فهل يعهد بمصالح الشعب أو في إدارة المشروع إلى رجل غير أهل للحكم أو الإدارة؟ كلا.

لهذا رأينا الناس -في بعض البلاد الخاضعة لنظام الحكم الوراثي- يلجأون إلى بعض الإجراءات الاستثنائية، إذا ما لاح أن الرئيس ضعيف الأهلية للحكم، ففي إنجلترا قام البرلمان في عدة مناسبات بتعديل نظام وراثة العرش. وفي الولايات المتحدة الأمريكية قام أصحاب بعض المصانع أنفسهم باتخاذ التدابير الكفيلة في حياتهم بألَّا تُعطى سلطات واسعة إلى غير الصالحين من أعقابهم. وللحكم الوراثي مزايا كثيرة متى استُخدم باعتدال وسلامة ذوق، وكانت عليه الرقابة من البرلمان أو مجلس الوزراء.

(ب) **الرئيس المنتخب:** أول ما يلزم للرئيس هو أن يُعترف برئاسته. وكل رئيس يختلف على رئاسته رئيس ضعيف. ويجب أن يكون للرئيس المنتخب على من انتخبوه سلطة لا نزاع فيها، وقد يحدث

أحيانًا أن تكون الصفات التي أهلته للرئاسة هي المقدرة الخطابية أو البشاشة، وهي ليست صفات الرئيس المنشود، فتكشف التجربة عن عجزه أو ضعف كفايته، كما قد يحدث في بلد منقسم على نفسه أن يكون الرئيس المنتخب لا يمثل إلا أكثر قليلًا من نصف عدد الناخبين، فإذا كان النصف الآخر ينفر منه نفورًا يبلغ مبلغ المقت، نشأ موقف فيه كل الخطر على الدولة. وكثيرًا ما شاهدنا دولًا عظيمة استسلمت إلى الشك والقنوط، لا لسبب سوى أن الرئيس الذي انتخبته الأغلبية لم يكن حائزًا لثقة أهل البلاد بصفة عامة.

يكون اختيار الرئيس بالانتخاب أمرًا خطيرًا عندما لا يتعلق الأمر ببلد بأجمعه، بل بمجموعة صغيرة يمارس الرئيس عليها سلطة مباشرة لفترة معينة يسقط بعدها أو يعاد انتخابه؛ إذ كيف يستطيع أن يفرض طاعته على قوم سيضطر غدًا أن يسألهم أصواتهم لإعادة انتخابه؟

وأما اختيار مدير المشروع أو قائد الجيش بأغلبية الأصوات، فمعناه المضي بالمشروع في طريق الفشل والجيش في طريق الهزيمة. وما أسرع ما أدركت جميع الدول على اختلاف أنظمتها هذا الأمر؛ فأكثر الحكومات الشعبية تطرفًا قد نبذته، واكتفت بأن يقوم الشعب باختيار ممثليه نوابًا كانوا أو شيوخًا أو وكلاء، على ألا يكونوا مديرين أو قوادًا بل رقباء.

(جـ) **المندرية:** هي نظام يقضي بأن يُختار الرؤساء عن طريق امتحانات تعقد لهم، فإذا جازوها بنجاح، كان لهم الحق في شهادات

وفي دخول وظائف تؤدي إلى الرئاسة. وقد كان هذا النظام متبعًا في بلاد الصين فيما مضى، وهو نفس نظامنا الحالي إلى حد ما، فالتعيين في وظائف الجيش الرئيسة، وفي الإشراف على الأعمال العامة، أو في السلك السياسي، وفي كثير من المناصب الإدارية في فرنسا يتم بناء على امتحانات مسابقة. ويبدو أن هذه طريقة عادلة؛ لأن شروط الامتحان واحدة للجميع، ولكن لها مساوئها (فيما بعد ذلك بسنوات طوال)؛ إذ إن السن التي يجتاز فيها الطالب امتحان المسابقة (سن الشباب) ليست هي السن التي تؤهله لمنصب القيادة أو الرئاسة، ولأن صفات الرئاسة ليست من الصفات التي يمكن كشفها أو تقدير درجتها بامتحان. قال بول فاليري: «إن أعظم آفات مجتمعنا الانتخاب والدبلومات».

وتكون المندرية مطلقة عندما لا يقتصر اشتراط الامتحان على التعيين في الوظيفة وحده، بل تكون الترقية في مناصب الحكم أيضًا بناء على مسابقات جديدة، كما في المهن الطبية عندنا.

أما في وظائف الجيش فلا بد للأخذ فيها من اجتياز امتحانات المدرسة الحربية ومدرسة الدراسات العسكرية العليا، على أن الأقدمية والامتياز والمحسوبية لها اعتبار في زمن السلم، فأما في أوان الحرب فإن الشأن الأول للنصر، وعلى هذا نستطيع أن نقول إن النظام الفرنسي هو مندرية معتدلة.

(د) **الأقدمية والامتياز:** أما عن الأقدمية، فليس لدينا مما يُقال فيها

سوى القليل، فإن من البديهي أن الإنسان يزداد خبرة في مهنته بتقدم السن، اللهم إلا إذا كان من الكسالى أو من الأغبياء أو من المسنودين، ولكن المسنين كثيرون، ولا يستطيع أحد أن يقول إن مراجعة شهادات ميلادهم تكفي لمعرفة أفضلهم، فلا مفر إذَنْ من تمييز بعضهم على بعض.

وربما كانت أمثل طريقة هي أن يُترك أمر الترقية في المناصب إلى كبار الرؤساء، الذين يقضي نظام العمل أن يعتمدوا على معاونيهم وأن يكونوا مسؤولين عن تصرفات هؤلاء المعاونين، فرئيس الدولة -سواء أكان ملكًا بالوراثة أو رئيسًا منتخبًا- يختار رئيس الوزراء الذي تقبله الجماعة التي لها الرقابة أو البرلمان. ورئيس الوزراء يختار وزراءه، والوزراء يختارون كبار الرؤساء، وهؤلاء يعينون الموظفين في مختلف وظائف إداراتهم، فيتم بهذا بناء الهرم من قمته، وهو أمر يعد جنونًا في فن العمارة، ولكنه ناجح في النظام الإداري.

والواقع أن هذا النظام حسن في حدود طبيعة الأمور الإنسانية، بمعنى أنه نظام سديد من الوجهة النظرية، غير أن عيوبه تظهر عند التنفيذ، فإذا استثنينا الرئيس وبعض الوزراء السياسيين، فإن كل طرق الاختيار الأخرى -بما فيها اختيار الوزراء الفنيين- يجب أن تؤسس على الجدارة الفنية والأخلاقية؛ لأن مصلحة الدولة، وبالتالي مصلحة القائمين بالأمر أنفسهم، تقضي بأن يكون القائد العام للجيش ومدير السكك الحديدية وأضرابهما من أمثل الرجال كيفما كانت آراؤهم السياسية أو الدينية، وكيفما كانت ميولهم وروابطهم؛ لأن الرجل

الذي يستطيع أن يجرد الناس من شهواتهم وميولهم لم يُخلق، وروابط الصداقة والمصاهرة تلعب دورها في الاختيار، وهو ما يُؤسف له أحيانًا؛ فعلى كل منا أن يتولى الرقابة على غيره وعلى نفسه حتى لا تُبخس الكفايات حقها.

(هـ) **الرئيس المفروض:** في بعض فترات اليأس، أي عندما يستولي الضعف والتفكك على الدولة، لا يُنتخب الرئيس، بل يفرض نفسه فرضًا؛ فلم تتول أي سلطة عليا اختيار كروميل، وهو رجل مغمور من صغار الملاك كان يقود حفنة من الفرسان. ورفعت الثورة الفرنسية بونابرت إلى رتبة جنرال، لكنه هو الذي أقام نفسه رئيسًا للدولة، والأمثلة القريبة لا تزال ماثلة في الأذهان. أما أن الرئيس الذي يتولى السلطة بالقوة دون غيرها تكون له في غالب الأحيان صفات الرئيس فهذا أمر بديهي؛ إذ لو لم تتوافر له هذه الصفات، لما استطاع الوصول إلى الحكم، ولكن المسألة هي معرفة ما إذا كانت مميزاته هي مميزات رئيس حزب فحسب، أو في مقدوره أن يسمو بنفسه إلى مرتبة رئيس أمة. أما في حالة بونابرت فإن روح رئيس الدولة قد تغلبت على ميول الرجل الحزبي، ومن هنا كانت عظمة القنصل الأول، فإذا لم يكن قد لازمه التوفيق دائمًا، فإن ذلك لم يمنع أنه أراد بكل ما فيه من عزم وقوة أن يكون رسول المصالحة والتوفيق، ورئيسًا لجميع الفرنسيين على السواء، وقد قال: «لا أنكر شيئًا مما قام في فرنسا من حكم كلوفيس إلى جمعية الأمن العام بل أقبل كل شيء».

ويثير وصول الرئيس المفروض إلى منصب الرئاسة العليا للدولة

مشكلة عسيرة الحل، هي مشكلة مَن يخلفه؟ فابن كروميل لم يتولَ الحكم طويلًا، ومات ابن بونابرت في المنفى، وخليفة لينين يمقت عمل لينين ويهدمه. والحقيقة أن اختيار الرئيس مسألة ليس لها حل واحد له صفة الكمال، فكل شيء هنا مرتبط بظروف الماضي وبالأغراض التي تنشدها البلاد. وسواء أكان الرئيس منتخبًا أم معينًا، مفروضًا بالوراثة أم بالقوة، فإن حكمه لا يدوم، إلا إذا كان يملك صفات خاصة لازمة لكل من يجب أن يتولى الحكم.

٢- صفات الرئيس

رسالة الرئيس هي توجيه نشاط العاملين معه، ولذا كان لزامًا عليه أن يعرف الغرض الذي يريد أن يوجههم إليه، ومن صفاته:

أولًا: الإرادة: يجب أن يعرف الرئيس كيف يتخذ قرارًا، وأن يتحمل مسؤوليته.

من الطبيعي أنه مُطالب بأن يجمع كل المعلومات، ويوازن بين جميع العوامل قبل أن يحزم أمره، فمتى استقر اختياره وأصدر أمره وجب أن يظل ثابتًا عليه، إلا إذا قامت عقبات لم تكن في الحسبان ليس من المستطاع تذليلها. فليس أكثر تثبيطًا لهمم المرؤوسين من تردد رئيس مذبذب. وقد كان الإمبراطور نابليون يقول: «إن الثبات يذلل كل صعب». وكان المستر تشمبرلن رئيس الوزارة البريطانية في سبتمبر سنة ١٩٣٨ يريد إقرار السلم وتجنب الحرب، وقد تعرضت سياسته للنقد، ولكن خصومه أنفسهم يجب أن يعترفوا أنه -وقد اختار

هذه الخطة- فقد مضى فيها بكل ما أُوتي من عزم وتصميم. ولكي يختار الرئيس طريقه الذي يسير عليه ويحزم أمره على تنفيذه، ينبغي أن يكون ذا شجاعة أدبية، فقد يكون ما اعتزمه عسيرًا. لقد كان على المارشال جوفر في بداية الحرب العالمية الأولى أن يستبعد كثيرين من أصدقائه القواد ففعل؛ إذ إن التضحية ببعض الرجال تكون أحيانًا في سبيل إنقاذ الكثيرين ممن عداهم.

يستطيع الرئيس، بل ينبغي غالبًا أن يكون شديدًا، ولكن لا يجوز له أن يكون خبيثًا أو قاسيًا أو حقودًا، ومن واجباته أن يحتقر الأقاويل والإشاعات، وأن يوجه التيارات الفكرية ويعمل على نشرها إذا استطاع. ومن الأهمية بمكان أن يجمع الرئيس حوله زمرة تدين له بالولاء، وتحسن تنفيذ التفاصيل، وألَّا يسمح للأشجار أن تحجب عنه الغابة. إن لديه الفنيين الذين اختارهم ووضع فيهم ثقته لتنفيذ خطته، فليتركهم يعملون، وليكتفِ في التأكد من صحة تحرياتهم باختبارات متواترة. قيل للمارشال ليوتي: وأنت ماذا تصنع؟ فأجاب: «أنا الفني الذي يتولى الأفكار العامة».

يعرف الرئيس -الذي توافرت له تجارب الحكم- أنه من المستحيل أن ينظم حركات كل واحد من مرؤوسيه على وجه الدقة، وخاصة في أمور الاقتصاد، حيث يقتصر الرئيس على تعيين الاتجاهات، وحمل أصحاب المصالح الخاصة على احترام المصلحة العامة.

لا يصح للرئيس أن يدعي إمكان رسم خطة تحقق آمال الملايين من البشر، فإن منظم حركة المرور يكتفي بأن ينظم انطلاقات العربات، لكنه لا يعين المسافة التي تقطعها كل عربة والنقطة التي ينتهي عندها شوطها. وعلى الرئيس أن يلهم زمرة معينة من الفنيين الاحترام، وإلا تطرق إليها الشك وتآمرت، ولكي يكون الرئيس محترمًا، ينبغي أن يكون هو في ذاته جديرًا بالاحترام.

ولا يكون الرئيس عظيمًا إلا إذا كان على خلق عظيم بعيدًا عن الأغراض، ربما كان كل من مستر بلدوين، ومسيو بوانكاريه ينقصهما المظهر والتألق، فقد كان مستر بلدوين -على الأخص- يصطنع البعد عن التظاهر، ولكن نزاهة كل منهما كانت فوق كل شك؛ فكانت تصل إلى حد التزمت في بعض الأحيان. ولقد تبرع المستر بلدوين للحكومة البريطانية بجزء من ثروته، أما المسيو بوانكاريه فكان يأبى أن يكلف ساعي الوزارة حمل رسالة شخصية، وكانت لهذين الحاكمين تلك الصفات البسيطة التي يطلبها الرجل العادي في مدير مصنع أو في زوج طيب، وكانت هذه الصفات الأولية هي سر قوتهما. ومن الجائز أن يوافق البعض على سياستهما أو لا يوافق. ولكن خصومهما لم يكونوا يأبون عليهما حقهما في الحكم.

وفي القناعة والنزاهة قوة للحاكم بأمره، فكم من صفقة رابحة تهيأت للجنرال بولانجيه خلال حياته العملية، ولكنه لم يكن في واحدة منها جديرًا بحظه.

وينبغي ألا يتعلق الرئيس إلا بشيء واحد هو عمله ومهنته، وعليه أن يُظهر التحفظ، ولا بأس من أن يحيط نفسه بشيء من الغموض، وأن تكون له أسطورته، ولست ألومه إذا ما تشبث بتنمية هذه الأسطورة، وفي هذه الحالة يكون للشخص الأسطوري الذي ينشأ إلى جوار شخصه الحقيقي من القوة في الناس والسلطان عليهم بقدر ما لهذا الشخص الحقيقي نفسه: يصف كپلنج رجلًا أفاقًا أراد أن يكون ملكًا، فتسلط بسمو أخلاقه على بعض القبائل الجبلية وأصبح ملكًا عليها، ولكنه أضاع مكانته وعرشه عندما تطرق الضعف إلى نفسه، فوقع في غرام إحدى بنات شعبه، واتضح لهذه المرأة أنه لم يكن إلا إنسانًا كباقي الناس. يقول نابليون: «كم من الرجال لم يجرموا إلا بسبب ضعفهم أمام امرأة». وهنا يجب أن نتكلم عن امرأة الرئيس، فإن مهمتها شاقة؛ عليها أن تحميه من الناس، وأن تجنبه المتاعب التي لا طائل تحتها، وأن تحذر من تحريضه، وأن تجعل من بيته مأوى هادئًا لا مملكة أخرى تفتقر إلى حكم آخر. إنها أكثر الممالك استعصاء على الحكم.

دارت المناقشة ذات يوم في مجلس وليم بت عن الصفات الأساسية اللازمة للرجل السياسي، فذكر بعضهم القدرة على العمل، وذكر آخر النشاط وذكر ثالث البلاغة الخطابية، فرد عليهم بت قائلًا: «كلا إنها الصبر»، وكان قوله حقًّا لا بالنسبة لرئيس وزارة فحسب، بل بالنسبة لكل من قدر له أن يقود جماعة من الناس.

إن الغباء عنصر هام له أثره في أحوال البشر، والرئيس المطبوع يتوقع مصادفته ويتهيأ لمقابلته بالصبر ما بقي في حدوده الطبيعية

المعقولة. وهو يعلم أن أحاديثه ستشوه، وأن أوامره سيساء تنفيذها، وأن عقارب الغيرة ستدب بين معاونيه، إنه يعلم ذلك فيحسب حساب كل هذه الظواهر المحتومة في تقديراته، فبدلًا من أن يصر على وجود منفذين خالين من العيوب (وهو لن يعثر بهم في أي مكان)، يبذل جهده في الحصول على أفضل النتائج ممن تحت يده من هؤلاء المنفذين، أي أنه يقود الناس كما هم لا كما يجب أن يكونوا.

وهناك لون آخر من ألوان الصبر وهو الثبات على الجهد، فالرئيس القدير لا يشعر بأنه متى أصاب غرضًا من الأغراض فإن شؤونه وشؤون بلده قد سويت مدى الدهر، فإن أمرًا من أمور هذه الدنيا لن يسوى أبدًا. وقد كان نابليون يقول: «إن أعظم الأخطار تهددنا في لحظة النصر»، وإن بستانًا نُعنى به أبلغ عناية لا تلبث إذا ما أغفلت شأنه بعض الوقت أن تغزوه الحشائش الضارة، وإن بلدًا توافرت له أسباب الغنى والقوة لن يلبث أن يصبح لقمة سائغة للخبثاء من أهله، ثم غنيمة باردة لجيرانه إذا ما أُهمل تنظيمه لبضع سنين. والرئيس الحصيف يعلم أن غرضًا من الأغراض لن يُدرك إدراكًا كاملًا أبدًا، وأن عليه لهذا أن يستأنف العمل في سبيله كل صباح.

وهناك فضيلة ليست أقل لزومًا للرئيس وهي كتمان السر. كان ريشليو يقول: «الكتمان روح الأعمال»، وقد أضاع شارل الأول ملك الإنجليز عرشه وطاح رأسه من جراء إفشاء سره، فإنه كان قد بيت النية للقبض على المحرضين على العصيان في ساحة البرلمان، ولكنه عاد فأفسد تدبيره بإفشاء سر خطته إلى ملكته الجميلة هنربيت دي فرانس،

وتحمست الملكة فأفضت بتفاصيل ما سيحدث لإحدى أمينات سرها من سيدات القصر، وكانت لهذه السيدة صلات بالفريق الآخر، فبادرت بتحذير أعضاء المجلس المهددين، وكانت النتيجة أن الملك حين أشرف على دار النيابة وجد العصافير قد طارت ورأى الغوغاء في هياج. والخلاصة أنه لا ينبغي أن يقول الإنسان إلا ما يلزم لمن يلزم عندما يلزم.

كتب الكولونيل ديجول: «إنه لا يُكسب الهيبة شيء كالصمت، فإن الكلام يوهن الفكرة»، ويخفف من حدتها فتتبدد الشخصية، بينما يتطلب العمل تركزها. وللصمت بعد إصدار الأمر وقعه وأثره، وعندما يريد القائد أن يدفع فرقته إلى العمل يهتف فيها: «خذ الحذر» ثم يصمت. ولما كان كل ما يصدر عن الرئيس تسري عدواه في محيطه، فإنه حبذا الصمت يخلق الهدوء والانتباه بشرط أن يظل صامتًا. في معركة روكروا وقد كان كونديه الشاب يركب جواده، وهو يتوقد حماسة قبل المعركة ويتعرف الميدان، ثم يمر بالصفوف وهو صامت. وكذلك كان الجنرال هوش الذي أنضجته ممارسة القيادة وهو بعد في مطالع العمر، قد تحول عن صولته الأولى وإشراقه فأصبح وجيزًا جافًّا. ثم أين من كان يضارع نابليون في صمته؟ لقد بلغ من صمته أن اقتدى به جنود الجيش الأعظم، فقد كتب فينبي يقول: «لقد عرفت ضباطًا أحاطوا أنفسهم بمثل صمت الرهبان، ولم تكن شفاههم تنفرج إلا عن النطق بالأوامر»، وقد كانت للويس الرابع عشر طلعة بالغة العظمة والجد تشيع الخوف والإجلال في نفوس الجماهير، وتحول بين من كان يحوطهم بالتبجيل وبين التبسط حتى في المجالس الخاصة. ولا

ريب أنه من العسير أن يوائم الرئيس بين التحفظ والرزانة اللازمين لحفظ مكانته، وبين التودد اللازم لتكوين شيعته، لكن هذه الصعوبة لا يلبث أن يذللها الإحساس الفطري لمن خلق لعظائم الأمور.

أضف إلى هذه الطائفة من الصفات الشجاعة الفطرية، وهي الفضيلة الوحيدة التي لا يصاحبها الرياء والخبث، ثم الصحة، فمن مقومات القوة للرئيس أن يكون سليمًا معافى حتى يكون الصبر والعمل والإرادة كلها ميسرة له. كانت للمارشال جوفر فضيلتان: نومه وشهيته، ونحن مدينون لهما بنتيجة معركة المارن، ففي اتزان الجسم انتظام عمل العقل. والبرود أعظم الصفات اللازمة لرجل أُعد للقيادة. يُروى أن جاليني في ساحة القتال كان متى انتهى من إصدار أوامره فتح كتابًا وأخذ يقرأ. وأن ليوتي وهو قومندان شاب أظهر تعجبه من ذلك فأجاب جاليني بقوله: «بما أني قمت بكل ما كنت أستطيع عمله فإني أنتظر حوادث جديدة، وفي أثناء هذا الانتظار أفكر في شيء آخر». فكانت هذه طريقة حسنة لجلاء ذهنه والاحتفاظ بهدوء نفسه. وقد نهج ليوتي بدوره نهج أستاذه فيما بعد، وعندما كان محاصرًا في مدينة فاس وظن أنه هالك، أمر أن يُقرأ له شيء من فينبي. وكان مونتيني يقول: يسرني أن أرى قائد الجيش يواجه ثغرة يعتزم أن يهاجمها بعد قليل، ويُقبل في نفس الوقت بكليته على حديث ودي مع أصحابه. وكان بروتس يختلس بضع ساعات من الليل أثناء نوبات تفتيشه ليقرأ خلالها بوليب، ويعلق عليه في طمأنينة تامة: النفوس التي تنوء بثقل الأعمال؛ لأنها لا تفهمها، فتتركها ثم تعود إليها، هي النفوس الصغيرة.

٣- ذكاء الرئيس

الخلق مقدم على الذكاء. ولكن الذكاء لا محالة لازم. ومن المرغوب فيه أن يكون الرئيس ذا ثقافة عامة مهندسًا كان أو ضابطًا أو سياسيًّا. فالشعر والتاريخ يعلمانه معرفة النزعات الإنسانية. وتتيح الثقافة لرجل العمل خلوة يستعيد فيها هدوءه وصفاء ذهنه من وقت لآخر، وتعرض عليه أمثلة من النظام والوضوح؛ فإن إعادة تنظيم بلد أو قيادة جيش إنما هو في الواقع عمل فني من بعض نواحيه، فمن اكتسب من دراساته الذوق والشعور بالجمال فاق غيره فيه. كتب المارشال فوش يقول: إذا كان من خصائص الدراسات العلمية أن تعوِّد العقل تحديد الأبعاد والأشكال ماديًّا، فإن من خصائص دراسة الآداب والفلسفة والتاريخ خلق الأفكار عن العالم الحي، وبالتالي إكساب الذهن مرونة وسعة أفق وحفظه في حيوية نشيطة خصبة إزاء مجال الحياة الفسيح، ولن يأتي المستقبل للضابط على الأخص إلا بما يعزز ضرورة الثقافة العامة بجانب معلومات مهنته، هذا ولا نزاع في أن المعلومات المهنية ضرورية كذلك. بينما كنت أنشر كتابي «محاورات عن القيادة» تلقيت في هذا الموضوع من المارشال فايول -وهو قائد ممتاز متواضع- خطابًا يقول فيه: «إن القائد القدير هو الذي يجمع إلى الخلق القويم سلامة الذوق وكثيرًا من التحصيل خاصة؛ لأن المعرفة لا تُكتسب إلا بالإطلاع الواسع. ولم يفطن الناس

إلا قليلًا إلى أن كثيرين من كبار قواد الجيش في الحرب الأخيرة كانوا من أساتذة المدرسة الحربية مثل: فوش وبيتان وأنا وغيرنا كثيرون، وقد شُوهد ذلك لأول مرة: أساتذة يصبحون قوادًا عظامًا في الجيش، والفضل في ذلك للنهج الواقعي المتبع للتعليم بالمدرسة الحربية؛ فكل شيء في طريقة التعليم مؤسس على التاريخ وتغير الأوضاع مع مجاراة ظروف العصر على الدوام: شتاء في الأعمال التحريرية وصيفًا في دراسات عملية في الميدان. وإخالك لا تجهل أن الأستاذ الذي ظل سنوات عديدة مع تلاميذه يقوم بحل مشاكل الحرب الكثيرة التنوع والاختلاف، لا يمكن أن تراه مرتبكًا في ساحة المعركة؛ إذ يخرج الحل من دماغه تام الإعداد، ويشترط لهذا أن تكون هناك عقول راجحة قد حرصت على حصر التعليم في مسالك العقل المستقيمة، مخصصة لكل قوة من القوى التي تتعامل في سير الحرب (المادية والعقلية والخلقية) نصيبها اللائق، مع الحذر من إهمال بعضها والاهتمام بالبعض الآخر، فكلها لازمة على السواء».

وينبغي أن يكون ذكاء الرئيس بسيطًا؛ لأن الآراء والخطط الكثيرة التعقيد ضارة بالعمل، حتى في الصناعة قد تكون المبالغة في التنظيم عيبًا تعادل الخسارة منه ما ينشأ عن عدم التنظيم من الخسارة؛ لأن تعدد الأجزاء التي تنقل القوة يستنفد جهد المحرك. ولهذا السبب نجد أن مشروعات صغيرة يدير كلًّا منها شخص بمفرده، تصل بلا عناء بجودة الصنف وتخفيض تكاليف الإنتاج إلى التغلب على مشروعات احتكارية واسعة النطاق.

فالرئيس يجب أن تكون له بضعة أراء بسيطة مكتسبة بالخبرة معززة بالعمل، وفي ظل هذا الدرع الحصين، تستقر المعارف الدقيقة التي هو في حاجة إليها لتناول عمل بذاته.

ويجب أن يكون ذكاء الرئيس مصحوبًا بالبشاشة وحسن اللقاء، كان ريشليو يقول: «أصغِ كثيرًا وتكلم قليلًا؛ حتى يحسن تصرفك في حكم الدولة»، غير أنه لا ينبغي الإصغاء إلا إلى من عرفوا بمعلوماتهم المدعمة وآرائهم الصائبة، وإذا كانت القدرة على السكوت خيرًا، فإن في إسكات الثرثارين نفعًا ليس دون ذلك الخير.

ويجب أن يكون ذكاء الرئيس سريعًا؛ فالوقت عامل أساسي في كل عمل. وفي كثير من الأحوال قد يكون مشروع ناقص ينجز في الوقت المناسب خيرًا من مشروع كامل لا يمكن إنجازه إلا بعد فوات الأوان. وتبلغ أهمية عامل الوقت أحيانًا درجة تجعله الغرض الأساسي في المسألة؛ فوزير الطيران لا يصح أن يتساءل: «في كم من الوقت أستطيع أن أبني خمسة آلاف طائرة بما عندي من الموظفين وبميزانية وزارتي مع حساب الوقت الذي ستتطلبه العوائق البرلمانية؟ بل بما أنه يلزمني خمسة آلاف طائرة لفصل الربيع، فما مبلغ الاعتماد المالي الذي يجب أن أتمسك به، وما هو مدى الجهد الذي أطالب به العاملين معي لتحقيق هذا الغرض؟».

ويكون البطء حائلًا في صناعة الأزياء وفي صناعات الحرب وفي إدارة مصرف أو في إدارة جريدة، فلا معدي من أن يفكر الرئيس في

سرعة، وأن يجمع حوله شركاء يعملون في سرعة. وأخيرًا يجب ألا يغفل ذكاء الرئيس العادات والتقاليد، بل يعتبر وجودها نعمة كبرى؛ إذ إن من بين العوامل التي يجب عليه أن يستخدمها لبناء المستقبل طائفة من أقوى الدعائم يستمدها من الماضي، وعليه أن يعيد نحتها وتشكيلها محاذرًا أن يرفضها، وقد أوضح كپلنج في قصة عجيبة كيف أن آلهة النهر عاقبت بنائي الجسور الذين تحدوا سنن العمل القديمة.

نحن معشر أهل القرن العشرين مزودون بأسلحة عجيبة لإخضاع الطبيعة، ولكن الطبيعة تثأر منا بقسوة مخيفة، ولا يسهل علينا دائمًا أن نتنبأ بنتائج أعمالنا، فقد يُخيَّل إلينا في أوقات الثورات أن الناس قد نجحوا في تحطيم القيود التقليدية، غير أنه يجب انتظار النتيجة للحكم عليهم. فقد انتهت الثورة الفرنسية بإعادة الملكية. فالرئيس العاقل لا ينسى أن صبي الساحر بعد أن نجح في تحريك المكنسة السحرية بتعاويذه لاقى مشقة عظيمة في إيقاف سيرها.

٤- فن القيادة

سواء أكان الرئيس وزيرًا أم ضابطًا أم مهندسًا أم مديرًا، فهو يتصل بمرؤوسيه بثلاث طرق؛ فبالأوامر التي يصدرها وبالتقارير التي يتلقاها وبالتفتيش الذي يقوم به.

وأول الصفات اللازمة للأمر الذي يصدره الرئيس أن يكون واضحًا، فمن الجائز جدًّا أن تكون فكرة من الأفكار غامضة، وأن يكون مشروع من المشاريع خياليًّا من بعض نواحيه، ولكن الأمر يجب

أن يكون صريحًا، فكل أمر عرضة لسوء الفهم، ولكن الأمر الغامض لا يُفهم مطلقًا، وقد كان الإمبراطور نابليون يقول: «إنك لا تجيد إلا ما تصنعه بنفسك». والرئيس الحذر يعرف أن الناس لن يفهموا شيئًا من لا شيء، وأن جميع الناس ينسون كل شيء، وعلى هذا فلا يكفي أن تصدر أمرًا، بل يجب أيضًا أن تتأكد من تنفيذه، ويهمك وأنت تعطي الأمر أن تحسب حساب كل ما من شأنه أن يبطل مفعوله. فالبلاهة وغدرات الحظ لا حد لها، وقد يقع دائمًا ما ليس في الحسبان. ويكون الرئيس الذي يحرص على إحباط ما قد تفاجئه به المقادير، والذي يعمد إلى نقطة الضعف من خططه، فيقومها ضد غباء الأغبياء أكثر توفيقًا من غيره في فرض إرادته.

ويبطل لزوم كل هذه الاحتياطات متى وفق الرئيس إلى تكوين زمرة من المساعدين، اقتنع بعد طول التجربة بأنه يستطيع أن يعتمد عليهم. فلكل وزير مجرب موظفو مكتبه، ولكل قائد عظيم هيئة أركان حربه الخاصة، وهذه الزمرة تعرف ميول الرئيس وعاداته، فتعرف كيف تخدمه وتفهم أوامره بالإشارة وتسهر على نقلها بالضبط، كما أن هناك غير هؤلاء عددًا قليلًا يمكن الاعتماد عليهم. قيل عن الرئيس ولسون إنه يثق بالإنسانية ولكنه يحترز من جميع الناس، والرئيس الحقيقي يحترز من الإنسانية ولكنه يولي ثقته بعض الناس.

وكيف يختار الرئيس هذا البعض من الناس؟ إن من وظائف الرئيس أن يعرف المساعدين الذين يختار منهم زمرته حق المعرفة. فقد كان من عوامل قوة المارشال بيتان عندما تولى قيادة الجيوش

الفرنسية أنه كان أستاذًا بمدرسة الحرب، فمرت بين يديه هناك أجيال كاملة من الضباط الشبان وعرفهم. وكان جمبتا يقوم بجولات في أنحاء فرنسا ليدرس أحوال مديري الأقاليم. والرجل الذي ينال شرف حكم بلاده يجب أن يحرص على اكتشاف أفضل الرجال ليعهد إليهم ولاية أمورها.

ولا تقتصر واجباته على استعمال العناصر الطيبة فحسب، بل إن واجبه ومصلحته معًا يقتضيان منه أن يخلق عناصر أخرى جديدة، وهذا ما تفعله بعض الأحزاب في البلاد الأخرى كحزب المحافظين في إنجلترا، فإنه يتتبع في الجامعات الكبرى أحوال الشبان الذين يتوسم فيهم الصلاحية لتولي مناصب الدولة في يوم ما، ويشرف الحزب على كلية خاصة لتكوين هؤلاء الشبان، فإذا ما أظهروا فيها مواهب ممتازة حقًّا بحث لهم عن دوائر انتخابية، فمتى صاروا نوابًا اجتهد رئيس الوزارة في تهيئة فرصة للعمل للمبرزين منهم بتعيينهم سكرتاريين برلمانيين ثم وكلاء وزارات. ومن مهام رئيس كل حزب أن يضمن انتقاء طبقة حاكمة، وكذلك كل من يدير صناعة من الصناعات، فإن عليه أن يعمل على إيجاد طبقة قادرة على إدارة العمل، فمصانع لوكروزو في فرنسا مثلًا لها مدارسها التي تُدار بحذق ومهارة وتجري فيها تصفيات نزيهة لإعداد كل شاب للوظيفة السامية التي هو جدير بها.

ومن العسير أن يسود التفاهم التام داخل الجماعة، فعلى الرئيس ألا يتسامح في أن يكون لكل إدارة نعرة طائفية أشبه ما تكون بوطنية محلية تجعلها في حرب مع الإدارات الأخرى. ففي إدارة السكك

الحديدية مثلًا سواء أفي قسم النقل أم في قسم الاستغلال، وفي هيئة أركان الحرب سواء أفي المكتب الأول أم في المكتب الثاني، يجب على الرئيس أن يُفهِم الجميع أن الجيش أو المصنع أو الدولة كل منها جسم حي واحد، وأن كل نضال بين عضو وسائر أعضاء هذا الجسم إنما هو انتحار لا أكثر ولا أقل.

يحدث غالبًا أن تدب عقارب الغيرة بين المرؤوسين مع حبهم جميعًا للرئيس وإخلاصهم في خدمته؛ فيتنازعون بعنف مفرط دلائلَ عطفه ورضاه؛ فعلى الرئيس أن يحذر هذه الميول الهدامة ويلطف من حدتها؛ كما ينبغي أن يعرف سائق السيارة المحنك من مجرد سماع صوت المحرك أن إحدى الأسطوانات لا تسير كما يجب. كذلك الرئيس المطبوع يحس بأن الزمرة لا تنتج كما يجب، ويبحث عن السبب وفي غالب الأحيان يكون هذا السبب تافهًا: ذرة من الرمل في ماسورة، أو هزة كتف لم تكن سوى رعدة ولكنها اعتبرت إهانة. كانت للمارشال ليوتي غريزة قادرة على فهم أمثال هذه الأشياء، فكان يقول مثلًا: «أرى فلانًا قد بعد عن متناول اليد»، ثم يشرع في الحال في إشعار العضو الجموح بوطأة الزمام في لطف وحزم.

وتصل المعلومات إلى الرئيس عن روح الزمرة وتصرفات المنفذين ونتائج الأوامر الصادرة عن طريق التقارير، ومن واجبه أن يرتاب دائمًا في هذه التقارير. عرفت أحد رجال الصناعة المحنكين فكنت أسمعه يقول: «إن جميع البيانات زائفة»، وكان على حق؛ إذ لم يكد يخلو موضوع من مبالغة أو تشويه أو حذف، فلكي لا يُخدع

الرئيس لا توجد سوى طريقة واحدة، هي أن يتنقل من حين لآخر ليرى بنفسه، فإن خوف المرؤوسين من هذه الزيارات تفعل العجائب، وإذا بالتقارير تصبح صحيحة. روى المارشال بيتان أنه في سنة ١٩١٥ -وهو قائد فرقة- تولى القيادة في أحد القطاعات التي كانت برئاسة الجيش تطلب منذ عدة أسابيع إلى القوة المرابطة فيه أن تقوم بهجوم، وكان البلاغ الحربي يعلن منذ عدة أسابيع حركات تقدم لا تتجاوز خمسين مترًا بخسائر فادحة، فما كان من الجنرال بيتان العاقل الحذر إلا أن قصد خط الدفاع الأول ومعه جنزير المساحة، ورسم خط الجبهة في تاريخ معين، وقاس الفرق بين هذا الخط والجبهة الحالية، فاكتشف أن البلاغات كانت مزورة إرضاء للقيادة العامة، وأن التقدم المزعوم خيال في خيال. تكون الإحصاءات المقدمة للرئيس في الغالب إما مزوقة أو مقدمة بصورة ترمي إلى تعزيز رأي الشخص الذي قام بإعدادها. والرئيس المتشدد أحب فعلًا إلى مرؤوسيه من الرئيس الضعيف أو القليل الاكتراث. والطريقة المُثلى لحمل المرؤوسين على قبول الشدة هي ألا يقرب الرئيس إلا من يقدرهم، فكل إنسان يحتمل النقد في سهولة متى كانت أخلاقه وذكاؤه بعيدة عن موضوع النقد. وإفصاح الرئيس فورًا أو في عنف عما في قلبه هو سياسة حكيمة. والتوبيخ السريع مهما كان قاسيًا لا يحدث في النفس من سوء الأثر ما يحدثه عدم الرضى المشوب بالعبوس وروح الكراهية. ويجب أن يعلم المرؤوسون أنهم إذا لم يقوموا بتنفيذ أوامر الرئيس، فإنه سيضحي بهم، كما ينبغي أن يكونوا على ثقة أيضًا من أنه إذا كان تنفيذ أوامره

سيؤدي بهم إلى كارثة فإنه يحميهم. فالرئيس الحقيقي يتحمل دائمًا مسؤولية أعماله كاملة. وكما أن الملك يجب أن يكون هو المدافع الطبيعي عن رعيته يحميهم من مطامع الكبراء، فكذلك الرئيس الأعلى يجب أن يسهر على معاملة معاونيه لجميع منفذي أوامره من العمال والجنود والبحارة بالعدل والشرف، وهذا أشق دور في مهمة الرئيس، حيث يكون واجبه في هذه الأحوال مزدوجًا، فلا هو يضعف من سلطة مساعديه، ولا هو يتسامح معهم في إساءة استعمالهم لهذه السلطة، وليست هناك بطبيعة الحال قاعدة معينة تملي عليه ما يفعله، فالإنسان هنا -كما هو في كل أمر- كمن يسير على الحبل المشدود يميل بعصاه تارة إلى اليمين وطورًا إلى اليسار حتى يحفظ توازنه. وقد كان بيتان في سنة ١٩١٧ مثالًا حسنًا لهذا التوازن، وهو يعمل على تهدئة العصيان بمزيج من الصراحة والعدل والوقار والمحبة.

ومن واجب الرئيس أن يستشعر الامتعاض قبل أن يظهر، فيعمل على رفع الحيف قبل وصول الشكوى. وللوصول إلى هذا الغرض يجب ألا ينقطع عن الاتصال بمحكوميه، وليُضحِ بشيء من راحته، وليذهب إلى الخنادق إن كان قائدًا أو إلى المصنع إن كان مديرًا لعمل وليدرس أحوال مرؤوسيه. ومن الضروري أن يكون للرئيس قوة التخيل، وأن يجتهد في تصور حياة الجميع ليجنب من هم تحت إمرته آلامًا أو مضايقات يمكن تلافيها. وسر محبة المرؤوسين لرئيسهم هو حب الرئيس لهم وزيادة معرفته للمهنة على معرفة الجميع لها، فالناس يحتملون الحكم، بل يرجونه متى حسنت قيادتهم.

٥- فن الحُكم

الحكم والقيادة في زمن السلم فنَّان مختلفان، فالقيادة هي أن يسير القائد بمجموعة من الجند خاضعين لنظام معين نحو غرض محدد، وقائد الجيش يعرف أنه -فيما عدا حالة العصيان النادرة- أن جنده سيطيعه، ويعرف هدفه بكل وضوح وهو الدفاع أو الغزو؛ أما مدير المشروع الكبير فيعلم أن عليه أن يخرج مقدارًا معينًا من المنتجات تُباع بسعر معين، وأنه إذا فشل في هذا آل أمره إلى البوار وانتهى أمر عماله إلى البطالة، وهو فيما عدا بعض ظروف التقلقل والجنون الاجتماعي حر في عمله في حدود القانون.

أما الديكتاتور فإنه على مثال قائد الجيش أميل إلى القيادة منه إلى الحكم.

غير أن مهمة رئيس الحكومة في دولة حرة هي أن يوجه نحو أهداف غير واضحة، أعمال مجموعة من الناس غير مكرهة على طاعته إلا بخوفها من الفوضى خوفًا يزول في عهود الأمن والهناءة، فهو لا يتحرك حركة إلا قوبل بالنقد من المعارضة، التي تشتد قسوتها كلما كبر أملها في أن تحل محل من تحكم عليه. أما الذين يلونه في مراتب الحكم فليسوا له مرؤوسين خاضعين، بل أندادًا يتوقعون أن يخلفوه على كراسي الحكم.

وفي الدول الديمقراطية يبدو منصب رئيس الوزارة للمراقب النزيه من أشق المناصب في العالم، وعندما يطالع الإنسان بعض عبارات اللوم والتأنيب الموجهة إليه، يهم بأن يتساءل كما قال «فيجارو» عن الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها رئيس الحكومة: «هل يعرف القارئ من الصحفيين كثيرين جديرين بمناصب الوزراء؟».

ما الفضائل التي نرجو أن نجدها في مَن نوليه ثقتنا ونعهد إليه إدارة شؤوننا؟ أن يتوفر فيه قبل كل شيء الإحساس بما هو ممكن؛ إذ لا طائل في عالم السياسة وراء التفكير في مشروعات سامية نبيلة إذا كانت هذه المشروعات متعذرة التنفيذ بسبب حالة البلاد وظروف الساعة. إن حركات الشعب الحر في كل لحظة هي عبارة عن مجموع القوى الكامنة في نفسه. والسياسي الكبير هو الذي يقدر هذه القوى بدقة، ويقول دون أن يقع في أخطاء جسيمة: «أستطيع أن أذهب إلى هذا الحد ولن أتعداه». والسياسي الكبير يتحاشى أن يحكم باسم طبقة بذاتها، ويقدر رد الفعل المنتظر من الطبقات التي يضحي بها، فمثله كمثل الطبيب الحذر الذي لا يفرض على مريضه دواء يجنبه بعض مضايقات وقتية، لكنه يسبب له مرضًا آخر لا يشفى، فالسياسي الأريب لا يعمل على تهدئة خواطر العمال بإغضاب طبقة البرجوازي، كما أنه لا يتملق البرجوازي على حساب العمال. ويعتبر الشعب جسمًا حيًّا تتساند جميع أعضائه، وهو يختبر حرارة الرأي العام يوميًّا، ويعمل على راحة البلاد كلما ارتفعت الحرارة.

ولكنه إذ يحسب حساب الرأي العام، يعلم أنه يسهل تحويل

هذا الرأي على رئيس قوي الإرادة يعمل بحذق ومهارة. وينبغي أن يكون الرجل السياسي قد لمس عدم اكتراث الجماهير، وذلك أن هذه الجماهير لها نوبات عنف واحتجاجات حارة قد تكون في جانب الحق، إذا كانت الحكومة قد ألقت بهم في حياة التعاسة أو حرمتهم حريتهم التقليدية، أو عملت على اضطراب حياتهم العائلية وكيانهم الوجداني بتصرفاتها الخرقاء. ولكن هذه الجماهير تسلم قيادها للرئيس الذي يعرف إلى أين هو ذاهب، والذي يبدي اهتمامًا واضحًا بالمصالح القومية فيبعث الثقة في نفوس الناس.

وليست حاسة إدراك الممكنات مقصورة على معرفة أي الأعمال ليس في حيز الإمكان (وهي فضيلة سلبية)، بل تشمل العلم بأن بعض الأعمال التي تبدو عسيرة في الظاهر لا تستعصي في الواقع على الرجل الشجاع، فالسياسي العظيم لا يناجي نفسه فيقول: «إن هذا الشعب ضعيف تشله أنظمته، وتقاليده، وتحول بينه وبين النهوض، ولكنه يقول إن هذا الشعب في سبات وسأوقظه من سباته، أما الأنظمة فهي من صنع البشر وسأغيرها عند الحاجة».

وليست الإدارة هي قولك أريد أن أعمل، بل هي العمل نفسه، والضعفاء من السياسيين هم الذين يقضون أزهى أوقاتهم في التحدث بالمشروعات، أو بشرح المبادئ والذين يتحدثون عن إصلاح النظم، ويفكرون في وضع مبادئ اجتماعية خالية من الشوائب وفي تقرير مبادئ للسلام الأبدي. وقد قلنا فيما سبق عند الكلام على فن التفكير: إن المشروع لا يعد عملًا، فالناس في المقاهي العامة يتحدثون

ولكنهم لا يحكمون. ورجل الدولة البصير يعرف عند الحاجة كيف يقدم تحيات مهذبة في خطبه العامة إلى المذاهب المختلفة، ويعرف كيف يهدئ ثائرة سدنة المعابد السياسية بكلام يقوله بلغة شعائرهم المألوفة، بينما هو في الواقع مشتغل بتحديد حاجات أمته الحقيقية فيقول مثلًا: «في عام ١٩٣٩ هذا يجب على فرنسا قبل كل شيء أن تحافظ على السلم، وأن تضمن تعزيز وسائل دفاعها الجوي، وأن تزيد إنتاجها، وأن تعيد أخيرًا تنظيم ماليتها»، ثم يتجه نحو هذه الأهداف المحددة سالكًا أقرب السبيل، فإذا ما أغلق دونه طريق لم يعدم الحيلة للحيد عنه إلى طريق آخر. إن الزهو والغرور الفكري وروح التمسك بأسلوب معين، كل هذه عراقيل غير مأمونة العاقبة في العمل السياسي. وقد ترى بعض رؤساء الأحزاب مستعدين لتضحية مصلحة بلادهم في سبيل عقيدة أو مبدأ معين، فليرد الرئيس الخبير عليهم بقوله: «فلتذهب المبادئ ولتبقَ الأمة»، فهل ينتقص هذا من عمله؟ وهل تبقى المظالم بعد ذلك؟ علم ذلك عند الله وعنده. فلكل عمل مركب نواح من النقص. ذكر جورج برنانوس في كتابه القيم «يوميات خوري القرية» كيف أن خوريًّا مسنًّا حاول أن يقنع قسيسًا شابًّا بأنه لن يستطيع أحد ولو كان قديسًا أن يصنع من كنيسة قرية صغيرة بيعة كبرى أو مجمعًا لكبار رجال الدين، وأراد أن يوضح له فكرته بمثال، فروى له قصة حارسة بلجيكية أرادت أن تجعل كنيسة القرية تضارع في نظافتها ولمعانها قاعة الاستقبال في أحد الأديرة، فقال: «لقد كانت مجتهدة نشيطة هذه العجوز الصغيرة الشيطانة، كانت تعمد إلى الطلاء

بالشمع والحك والتلميع، ولكنها كانت تجد في كل صباح -بطبيعة الحال- طبقة جديدة من التراب على المقاعد وبعض الفطر على بساط المحراب وشيئًا من خيوط العناكب على الحوائط، خيوط تكفي يا صغيري لصنع ملابس عرس! ولكن الخادم العجوز لا تيأس؛ فهي تكنس وترش ويبدأ الفطر يتسلق العمد، وتأتي أيام الآحاد فتتسخ الكنيسة، ثم تكون أيام الأعياد فتأتي على ما بقي للأخت الطيبة من رمق»، وختم العميد قصته بقوله: «إن هذه الخادمة تعتبر من بعض النواحي من الشهداء، ولا يستطيع أحد أن ينكر فضلها، وهي لم تكن مخطئة في محاربة الأقذار من غير شك، ولكن خطأها هو أنها أرادت أن تقضي عليها كما لو كان ذلك ممكنًا؛ لأن كنيسة في قرية هي مكان قذر بالطبيعة».

فما ظنك بقارة بأسرها! هذا مكان أكثر قذرًا، سيما لو كانت قارة قديمة كأوروبا يغزوها الفطر والنمل منذ قرون، وتغشاها الضغائن والأحقاد. وما كان أشبه الرئيس ولسن بتلك القيمة البلجيكية! لقد كان يزعم أنه يستطيع أن يصنع من هذا الكوكب المترب اتحادًا من فقهاء في القانون. كان هذا معقولًا، ومعقولًا جدًّا بلا ريب، غير أنه لم يكن ممكنًا. لم يكن ممكنًا آنئذ أكثر مما هو ممكن اليوم أن يكون من المستطاع تنظيم كل شيء والتنبؤ بكل شيء وتنظيف أوروبا لآخر مرة. إن السياسي الأريب يعرف كما تعرف ربة البيت أن التنظيف عملية تُعمل كل صباح، فإذا نشب عراك عمل على إزالته بصبر وأناة، ويفكر وهو يباشر هذا العمل أن خلافًا جديدًا سينشأ بمجرد فض الخلاف

الحالي، وأن هذا الخلاف المقبل بدوره يقبل التسوية ولو كانت ناقصة أو مؤقتة؛ لأنه يعلم أن كل أمور الناس ناقصة مؤقتة، وأن السلام لا يكسب إلا فترة بين حين وحين: عشر سنوات أو عشرون سنة ثم تنتهي مهمة هذا الجيل، وعلى الجيل الجديد أن يعيش يومًا بيوم.

٦- حقوق الرئيس وواجباته

من حق الرئيس الذي يثبت أنه جدير برئاسته أن يطاع. وكل جماعة لا تستطيع بذل الطاعة لمن اتخذتهم من الرؤساء هي جماعة مقضي عليها؛ لأنها تصبح عاجزة عن العمل. ولا شك في أن لكل جماعة إنسانية أن تؤثر نظامًا للطبقات على غيره، ففي وقت الحرب مثلًا يحل السلَّم العسكري محل السلَّم المدني، ومتى وقع الاختيار وجب أن يكون كل فرد أمينًا في مركزه، ففقدان النظام في المصانع هو الإفلاس، كما أن فقدان النظام في الجيش هو الهزيمة. ومما يسيء إلى كيان الجماعة أن تتدخل في شؤونها هيئتان بينهما خصومة، فما أقبح أن يتجاذب العمال نظام رؤساء العمل والنظام النقابي. والواجب أن يتحدد مدى سلطة رئيس العمل ومدى سلطة النقابة، ومتى تم وضع هذا التحديد منح كل منهما النفوذ التام في منطقة اختصاصه. وقد اتضح من تجارب إنجلترا والبلاد الاسكندينافية إمكان ذلك.

ومن حقوق الرئيس البقاء في منصبه؛ إذ كيف يستطيع أن يحصل على نتائج عظيمة إذا لم يُمنح الوقت الكافي؟ وقبل أن نعهد إلى رجل في إصلاح مستعمرة أو تنظيم بناء الطائرات، يلزمنا بداهة أن نجمع كل

المعلومات اللازمة، وأن نتأكد أن الرجل المختار هو أصلح الرجال، ومتى تم هذا الاختيار ينبغي أن نمنحه الوقت الكافي للحصول على قسط من التجربة، وأن نؤيده، إلا إذا دل الاختبار بصفة لا تقبل الشك أننا أخطأنا في اختياره وأن الرجل غير جدير بثقتنا، فإن بقاء الرجل في منصبه من شأنه أن يعقد من الروابط ويخلق من الصلات ما يسهل له توطيد سلطته. كان ليوتي إذا سُئل عن سر نجاحه في مراكش أجاب: «لقد بقيت بها ثلاثة عشر عامًا». ولكن كيف يمكن التوفيق بين البقاء وتوطيد النظام من جهة وبين حق الانتقاد من جهة أخرى؟ ألا يصح أن يصبح الرئيس الذي لا يحد من سلطته شيء ظالمًا مجنونًا؟

وكان قلدس هكسلي قد اخترع فيما مضى ما سمَّاه «لعبة القياصرة»، وهي أن يتساءل في شأن كل واحد من أصحابه فيقول: «ترى بأي القياصرة يكون هذا أشبه إذا ما مُنح السلطة المطلقة غدًا؟»، وقد وجد أنه قل من كانت أخلاقه تثبت لهذا الاختبار، لا ريب في أن النقد لازم ولكن في أي الحدود؟ أما في الجيش بصفة خاصة، وفي كل عمل مباشر بصفة عامة، فالطاعة واجبة من غير تحفظ، ولا يمكن أن يأتي النقد إلا من السلطات العليا، وعلى العكس من ذلك في الحياة العادية لبلد حر، يكون النقد من حق الجميع، ولكن ألا يصح أن يخضع النقد لبعض قواعد تعلمناها بالتجربة؟ من الخير أن يكون في الإمكان تغيير الرئيس من حين إلى حين إذا أعربت الأمة عن رغبتها في استبداله بطريقة واضحة، ولكن ما أقبح أن يُشهَّر بالرئيس أو يتوالى العزل والإبدال، كما أنه من غير المستساغ أن يدعي رجل الشارع حق فرض القوانين.

إن الحرية الصحيحة نعمة كبرى، والأنظمة الحرة لا تكفي لإقامة هذه الحرية على أسس سليمة، بل يجب أن تستند هذه الأنظمة إلى تربية خلقية متينة، ولن نكون جديرين باسم الأمة الحرة إلا بقدر ما يروض كل فرد منا نفسه على طاعة الرئيس الشرعي، وبقدر ما يتعلم كيف يحتمل وجود المعارضة، وبقدر ما يصغي إلى حجج خصمه، وأخيرًا بقدر ما يضع مصلحة بلاده فوق شهواته الحزبية وفوق مصالحه الخاصة، فما أكثر ما قيل: «ليست الحرية حقًّا أبديًّا لا يمكن فسخه، إنما هي غنيمة مرجوة، وينبغي أن يعاود الإنسان غزوها واغتنامها كل يوم».

وهذه التربية الخلقية ألزم لمن تقع على عواتقهم مهمة القيادة، وينبغي أن يشعر الرئيس شعورًا عميقًا بواجباته، بغض النظر عن كل رقابة أو نقد، ولا يستطيع الرئيس الاحتفاظ بالحكم إلا إذا عرف كيف يظهر في كل يوم أنه جدير بسلطته. وكل من ترأس فريقًا أو مشروعًا ولم يسعَ إلا لخدمة مصالحه الشخصية لا يكون رئيسًا، وكل من قبل تولي قيادة وكان تفكيره في ملذاته دون مسؤولياته لا يكون رئيسًا، وكل من تولى توجيه فريق من الناس ثم أسلم نفسه للغضب والحقد أو للمحاباة والمحسوبية لا يكون رئيسًا. فمهمة القادة هي التوجيه، أي الإرشاد إلى سبيل الشرف والجد في العمل، وليست الرئاسة امتيازًا وإنما هي تشريف وتكليف.

فن الشيخوخة

قليلون هم الذين يعرفون كيف يشيخون.

«لاروشفوكو».

تأتي المسرة الكاملة مع المساء،

إلى ذلك الذي عرف كيف يقضي يومه فيما ينفع.

«كورنيي».

حقًّا أن الشيخوخة شيء غريب، غريب إلى درجة أنه يعسر علينا في غالب الأحيان أن نصدق أن الشيخوخة قد تدركنا كما أدركت غيرنا. فقد أبدع بروست في قصة «العثور على الوقت الضائع»؛ حين وصف ما يتولانا من الفزع عندما تجمعنا الصدفة بغتة بعد ثلاثين أو أربعين عامًا بطائفة من الرجال والنساء الذين عرفناهم يوم كانوا مثلنا في سن المراهقة، يقول بروست: «في اللحظة الأولى لم أكن أدرك لِمَ أنا متردد في تعرف رب الدار والمدعوين، ولم يبدو كل منهم وكأنه قد اتخذ شَعرًا مستعارًا غشاه بالمسحوق الأبيض فغيرتهم هذه الشعور تغييرًا تامًّا... كان الأمير يبدو وكأنه أخضع نفسه إلى العرف الذي فرضه على مدعويه، لقد تنكر بلحية بيضاء وجعل يجرّ ساقيه كأنما أثقلهما

نعلان من الرصاص، وكان شارباه أبيضين فكأنما غطيا بشيء من ثلج الغابة كما في قصة «عقلة الإصبع»، فكانا يبدوان وكأنهما قد ثقلا على فمه المتصلب، وخُيِّل إليَّ أنه سيخلعهما إذا ما انتهى التمثيل». ثم عثر بروست بواحد من أصدقاء الشباب فقال: «لقد عرفته في مطلع الحياة، كان لي ندًّا مراهقًا، وكنت أقيس شبابه بما كنت أنتحله لنفسي من سن الشباب، غير مصدق أني كنت أقطع مراحل العمر منذ تلك اللحظة. ثم سمعتهم يقولون إن ملامحه تطابق سنه. وأدهشني أن لاحظت على وجهه بعض سمات هي من مميزات الشيوخ، وأدركت أن السبب هو أنه قد أسن بالفعل، وعرفت أن الحياة تصنع شيوخًا من أولئك الشبان الذين يعيشون من العمر عددًا وافيًا من السنين».

حقًّا أننا إذا قسنا آثار الزمن في رجال أو نساء من سننا، رأينا أنفسنا وكأننا ننظر في مرآة، وبدا لنا ما هو حادث في وجوهنا وفي قلوبنا؛ وذلك لأننا نظل شبانًا نحتفظ بمياه الشباب وآمال الشباب في نظر أنفسنا؛ لأننا ننظر بعيوبنا التي صاحبتنا في تنقلنا على مر الزمن، ولا نتصور المرتبة التي يعينها لنا الشباب في سلم الأجيال، فقد يخاطبنا أديب شاب بقوله: «أستاذي العزيز» ونعتقد نحن أننا من معاصريه أو من زملائه تقريبًا.

وتجربة أخرى أشد إيلامًا. نسمعهم يتحدثون عن فتاة فيقولون: إنها مجنونة؛ فقد تزوجت بشيخ في الخامسة والخمسين أبيض الشعر. ونذكر أننا في سن الخامسة والخمسين ولنا شعور بيضاء وقلب لا يريد أن يشيخ.

١ - خط الظل

متى تبدأ الشيخوخة؟

نظل أمدًا طويلًا نعتقد أننا نفلت منها؛ لأن العقل يظل نشيطًا، ولأن قوانا تبدو سليمة، وقد يبدو لنا أن نختبر الأمر فنتساءل: «هل أستطيع أن أرقى هذا المنحدر بنفس السرعة التي كنت أرقاه بها طيلة أيام شبابي؟ نعم إنني ألهث قليلًا عند وصولي إلى القمة، ولكني استغرقت في قطع هذا الشوط ما كنت أستغرقه من الوقت فيما مضى، ومع ذلك، ألم أكن ألهث وأنا شاب؟».

تحدث بين المراهقة والشيخوخة تحولات بطيئة لا يدركها الشخص الذي يتحول، وهذا ما يحدث حينما يعقب الخريف الصيف وعندما يعقب الشتاء الخريف، يتم ذلك التعاقب بتحولات تدريجية لا تدركها الملاحظة اليومية؛ ففي ذات صباح من شهر نوفمبر يهب إعصار فينتزع القناع الذهبي، وإذا بهيكل الشتاء الهزيل يبدو من تحته، فأوراق الشجر التي كنا نحسب أنها ما زالت في غضاضتها كانت قد جفت، ولم يكن يمسكها على أغصانها سوى بعض ألياف رفيعة، فكشفت العاصفة عن الداء ولكنها لم تحدثه.

والأمراض هي عواصف الغابات الآدمية، يبدو لنا أن فلانًا أو فلانة ما زال في دور الشباب بالرغم من سنه، فنقول: «إنها مدهشة حقًّا،

أو إنه إحدى المعجزات»، ونحن نعجب بنشاطهما وحدة ذكائهما وعنفوان أحاديثهما. وفي صبيحة يوم ارتكبا في أمسه لونًا من الإفراط لا يكلف الشاب أكثر من صداع خفيف أو زكام بسيط، إذا بهما قد اختطفا من بيننا بعاصفة من الاحتقان أو الالتهاب الرئوي، وفي أيام قلائل تذبل القسمات ويتقوس الظهر وتخمد النظرة. لحظة واحدة تصنع منا شيوخًا، ذلك أننا كنا في طريق الهرم منذ مدة طويلة دون أن نشعر أو نعرف.

ما تاريخ هذا الاعتدال الخريفي بالنسبة للآدميين؟ كان كونراد يقول: «عند بلوغ الأربعين يرى الإنسان أمامه خطًّا من الظل فيجتازه في رعدة، ويفكر في أنه قد خلف وراءه مناطق الشباب الفاتنة»، وهي ملاحظة صادقة، إلا أن خط الظل انتقل اليوم إلى قرب الخمسين وذلك لا يقلل شيئًا من وجوده، والذين يجتازونه ما زالوا يعرفون تلك الرعدة الخفيفة وتلك الأزمة القصيرة من اليأس، مهما اتفق لهم من خفة الحركة وصلابة العود.

كتب ستندال على منطقة سرواله: «أوشكت أن أبلغ الخمسين»، وكان عجيبًا منه أن يختار هذه اللحظة بالذات ليسجل ذلك الإحساس. وفي نفس اليوم أخذ يحرر قائمة بأسماء من وقع في غرامهن من النساء، وبالرغم مما أسبغه عليهن في قصصه من درر «التبلور»، فإن واحدة منهن لم تكن لها في الواقع قيمة كبيرة. وكان في سن العشرين قد تخيل لحياته الغرامية ألوانًا من المصادقات الرفيعة، وكان في الواقع جديرًا بهذه المواقف السامية، حسب ما أبداه في دراسة الحب من

الذكاء وما أعطاه للمشاعر من الأهمية، ولكن البطلات اللاتي تمنى أن يقع في غرامهن، لم يقابلهن إلا في الكتب حيث قام هو بخلقهن. فعندما اجتاز خط الظل كان يبكي أولئك العشيقات اللاتي لم يوفق في الحصول عليهن ولن يعثر عليهن بعد ذلك أبدًا.

قال الكاتب في نفسه: «لقد دنوت من الخمسين»، فبدا له أن يتساءل ماذا صنع... وأفصح؟ فاتضح له أن كل شيء باق لم يقله، وأنه لم يكد يستشف الكتب التي يجب أن يكتبها، ولكن، كم سنة بقيت له للعمل؟ لقد بدأ خفقان قلبه يسوء، وأخذت عيناه تتعصيان على القراءة ليلًا، وكم بقي له من العمر؟ أهي عشر سنوات أم خمس عشرة سنة؟

«ما أطول الفن وما أقصر الحياة؟»، هذه القالة طالما أقر بها من قبل، ولكنها كانت تبدو له مبتذلة فأصبحت في نظره الآن مليئة بالمعاني: أيتاح له من الفراغ ما أُتيح لبروست لينطلق «باحثًا عن الوقت الضائع»؟

ليست الشيخوخة في الشعور البيضاء وتجاعيد الوجه فحسب، وإنما هي فوق ذلك الإحساس بأن الوقت قد فات، وأن اللعبة قد لُعبت، وأن المسرح قد أصبح ملكًا لجيل آخر. وليست آفة الشيخوخة في ضعف الجسم، وإنما في قلة اكتراث النفس وعدم مبالاتها، وليست القدرة هي التي تختفي عند اجتياز خط الظل، بل الرغبة في العمل هي التي تختفي. تلك الحمية العجيبة التي تلازم الشباب وتلك الحاجة

الملحة إلى معرفة كل شيء وفهم كل شيء، وذلك الأمل العريض الذي يبعثه في نفس الشباب كشف كل بيئة جديدة، وتلك القدرة على الحب بغير تحفظ، وذلك الاعتقاد الراسخ بأن الذكاء والطيبة يصاحبان الجمال بالبداهة، وذلك الإيمان بتنزيه العقل عن الخطأ. تلك هي صفات الشباب المميزة، فهل من الممكن الاحتفاظ بها بعد قضاء خمسين عامًا من العمر في التجارب وخيبة الآمال؟ متى تجاوزنا خط الظل، دخلت عقولنا في منطقة من الضوء السوي المخيف لا تعود العين فيه تتعرض إلى بهر الرغبات، فنرى الناس والأشياء على الحقيقة، وكيف نعود فنؤمن بالكمال الأخلاقي للنساء الجميلات بعد أن وقعنا في غرام واحدة منهن! بل كيف نؤمن بالتقدم؟ وقد ثبت لدينا بعد حياة طويلة عسيرة، أن كل تغيير مصحوب بالعنف لا ينقلب على الطبيعة البشرية، وأن العادات العتيقة وحدها والشعائر القديمة هي التي تهيئ للإنسانية ذلك المأوى السريع العطب من المدنية.

وإن الشيخ ليتساءل دائمًا: وما الفائدة؟ وربما كان هذا أخطر سؤال على كيانه؛ إذ إنه بعد أن يقول «ما فائدة النضال؟» يأتي يوم يقول فيه: «وما فائدة خروجي من بيتي؟»، ثم «وما فائدة مغادرتي لحجرتي؟»، ثم «وما فائدة نزولي من سريري؟»، وأخيرًا «ولأي شيء أعيش؟». وهذا هو السؤال الذي يفتح أمامه أبواب الفناء.

من هنا نستشف أن فن الشيخوخة هو فن الاحتفاظ ببعض الرجاء، غير أننا قبل أن نبين إمكان ذلك، يجب أن نأتي على وصف الشيخوخة في الطبيعة.

٢- الشرط الطبيعي للشيخوخة

يدخل كل كائن حي دور الشيخوخة في مستهل سن تختلف باختلاف نوعه، فلا يشذ عن ذلك إلا الكائنات البسيطة التي تتفادى الفناء بالانقسام إلى فردين جديدين. وكيف نستطيع أن نفسر كيف لا توهب لبعض أنواع الفَراش سوى ساعتين من العمر يقضيها في صيد غرامي، بينما قد تعمر السلحفاة والببغاء قرنين كاملين؟ ولِمَ تُمنح بعض أنواع السمك حياة مقدارها ثلاثمائة عام، بينما توهب ثلاثون عامًا لكل من بيرون وموزارت؟ من ذا الذي يستطيع أن يسبر أغوار حكمة الباري جل شأنه؟

كان متوسط عمر الإنسان منذ قرن حوالي أربعين سنة، أما اليوم فإن هذا المتوسط يقرب من الستين في أرقى البلاد مدنية، وهذا تطور سريع يجعلنا نفكر في أنه إذا لم تنشب حروب أو ثورات توقف تقدم علم الصحة، فسيكون الوصول إلى سن المائة بعد قرن من الزمان أمرًا طبيعيًّا، وإن كان الواقع أن هذا التقدم لن يغير شيئًا على الإطلاق.

وكلما اقتربت الكائنات الحية من حالة الفطرة قست في معاملة الشيوخ، فالذئب المسن تبقى له مكانته بين الذئاب ما بقيت له القدرة على إدراك الفريسة وقتلها، أما إذا خانته قواه فقد ضاعت هيبته. وصف كپلنج في كتاب «الأدغال» كيف اهتاج الغضب صغار الذئاب لأن ذئبًا تقدمت به السن وفقد قواه بعد أن كان يقودها إلى القتال، ثم قال بعد ذلك: «والويل لهذا الذئب الهرم يوم يخطئ فريسته، فإن واحدًا من الشباب يتقدم نحو هذا الأثرم المنزوي ويجهز عليه».

وتسلك الشعوب البدائية نفس المسلك حيال الشيوخ. وقد وصف أحد رواد القارة الأفريقية حالة شيخ قبيلة هرم ملكه الرعب، فأقبل يرجوه في توسل ويقول: «هبني شيئًا من الصباغ لشعري، فإنهم سيقتلونني إذا رأوا شيبي»، وقد جرت عادة بعض أمم البحار الجنوبية أن يرفع أفراد الأسرة شيوخها إلى قمم شجر النارجيل (جوز الهند) ثم يهزون الشجرة، فإذا بقي الشيخ متشبثًا بالشجرة -رغم هزها بعنف- كان من حقه أن يعيش، وإذا سقط كان سقوطه حكمًا عليه بالإعدام وتنفيذًا للحكم في الحال.

تبدو لنا هذه الطريقة وحشية، ولكننا نحن أيضًا لنا أشجار نارجيلنا التي نحكم بها على شيوخنا؛ فالخطابة والتدريس والتمثيل هي اختبارات لمن يقومون بها، فقد يقول الجمهور بعد سماع خطبة أو محاضرة أو مشهد تمثيلي عن الرجل السياسي أو الأستاذ أو الممثل «لقد انتهى»، وفي كثير من الأحيان يكون هذا القول بمثابة حكم عليه بالموت؛ إما لأن الانسحاب من الميدان يتبعه البؤس، وإما لأن اليأس

يتبعه المرض. والحرب هي شجر النارجيل للقواد، والنساء الشابات هن شجرة النارجيل ومزلقة الفجرة من الرجال المسنين. ورئيس الدولة الذي يحمل وزراءه على المروق من خلال أطواق مشتعلة ليتأكد من لدونة مفاصلهم، يطبق هو أيضًا سياسة شجرة النارجيل.

وأما عند الأمم الأقل بداوة فلا يُقتل الشيوخ، ولكنهم يُعَامَلون بالقسوة أحيانًا. ويقص علينا مونتيني في هذا الباب قصصًا مروعة كقصة الابن الذي رآه أبوه وهو يصنع قصعة من الخشب المجوف ولما سأله في ذلك أجاب: «هي لأجلك يا أبي عندما تصير في سن جدي»، وقصة الابن الذي كان يجر أباه الشيخ من شعره حتى الباب فسمعه بغتة يصيح: «قف فإني لم أكن أسحب أبي إلا إلى هنا».

ولما كان الفلاحون أقرب إلى الطبيعة، فإن القوة تكون عندهم في كثير من الحالات هي الأساس الذي تنظم بمقتضاه العلاقات بين جيل وجيل، أما عند أهل المدن فيختلف الأمر باختلاف أعمار الجماعات وقربها أو بعدها من حالة البداوة. وفي أزمنة الثورات والانقلابات السريعة تتحقق الغلبة للشبان؛ لقدرتهم على التكيف وسرعة استجابة أعصابهم، ففي عهد الثورة الفرنسية تنبه الشباب إلى قيمة حرب الطبقات، بينما كان الجيل القديم ما زال مصرًّا على أن الحرب لا تقوم إلا على أكتاف الجنود المحترفين، ويقود الشبان اليوم الطائرات كما كانوا يقودون السيارات بالأمس. وأما في الأزمنة الحالية المليئة بالأزمات الخطيرة، فإن الشبان لا يجدون أمامهم ما كان يجده أندادهم بالأمس في المدنيات المستقرة من المراكز المكتسبة وسطوة السن

وصولة المال وما إلى ذلك مما يثبت قيم الحياة في نظرهم، فهم يرون أنهم وحدهم يمثلون القوة، فيؤيدون دعاة يلوحون لهم بأهداف مغرية ويفتحون أمامهم أبوابًا فسيحة صادقة من الآمال. أما الجماعات العتيقة الغنية فهي على عكس ذلك، أميل إلى حكومات الشيوخ حيث يتولى المسنون الفصل في المسائل في مجالس الدولة وفي هيئة أركان الحرب؛ لأن الدولة التي تبقى طويلًا -من غير أن يطرأ عليها تغيير- تعتز بالتجربة وتعتبرها ذخرًا نفيسًا، ففي بلد كإنجلترا يحرصون على القياس على السوابق، ويحكمون بما جرت به التقاليد، ويعد تقدم السن في نظرهم فضيلة.

وفي دولة الصين القديمة كان الشيوخ موضع محبة تضارع عبادة البطولة، فكان الصينيون يقولون: «ينبغي ألا يرى الرجل ذو الشعر الأشيب وهو يحمل حملًا في الطريق»، وكانت رغبة الصيني في البر بأهله هي أعز أمانيه، وإذا لم يتح للرجل أن يحضر وفاة والديه أو الأقربين من أهله عدّ ذلك مصيبة كبرى، وكان حق الكلام في المجالس مقصورًا على الشيوخ، وكان الشيوخ يعيشون في كنف أولادهم وهم موضع التجلة والاحترام، فكان من الطبيعي أن يتدخلوا في شؤون الأزواج من الشبان. ونحن نقرأ في كتاب ذائع يُدرَّس في كافة المدارس الصينية: «يجب أن يكون كل واحد بجانب أبويه في أشهر الصيف يحمل مروحة ليدفع عنهما الحر والذباب والبعوض، وفي الشتاء يجب أن يتعهد الابن أغطية الفراش حتى تكون دافئة بدرجة كافية، وينبغي أن يقوم على رعاية المدفأة ويمدها بالوقود وأن

يراقب شقوق الجدران وفُرَج الأبواب، حتى يكون الوالدان بمنأى عن تيارات الهواء مستريحين هانئين طيلة اليوم».

وقد أخذ هذا الشعور وهذه الرعاية في الزوال في الصين الحديثة وفي كل نظام حديث العهد، يقدر الناس القوة بأكثر مما يقدرون حكمة الجدود. غير أنه لما كان نظام مصيره إلى الهرم، فإن النظام متى شاخ برز احترام الرجال الناضجين وتبعه إجلال الشيوخ. ولا يلبث الرئيس الذي استمد رسالته من روح الشباب أن يولي عنه الشباب، ويصبح هو شيخًا ويصير مثله كمثل ذلك الذئب المسن يظل طويلًا يحاول أن يداري ما يحسه من الانصراف عنه، فيحرص على الاحتفاظ بمظهر جسماني حسن، فيصطنع بعض مظاهر جسارة الشباب وإفراطهم ويتظاهر بعنف لم يعد يعتقد فيه. ولكن الزمن يجعل منه بعد وقت طال أو قصر عضوًا في مجلس الشيوخ ثم جثة هامدة.

وهكذا تتعاقب حكومات الشبان وحكومات الشيوخ في نسق طبيعي. فماذا عسانا أن نريد؟ إن كل رجاء باطل، والظروف وحدها تفرض الحل؛ لأن انقلابات سريعة تطرأ فتأتي بابتكارات عجيبة، وتكون الغلبة للشباب من جديد. ثم يأتي الاستقرار تصحبه تقاليد ثابتة، فتعود المكانة للشيوخ. وربما كان أفضل سياسة تتخذها الأجيال المتعاقبة هي السياسة التي كان يجري عليها المحاربون في أساطير هوميروس وهي:

ليكن بعض الشبان الأبطال لقيادة الجيوش، وليكن بجانبهم نستور الحكيم وزيرًا للدولة.

٣- أمراض الشيخوخة

تلك هي الناحية الاجتماعية للمسألة، أما ناحيتها الفردية فمسألة أكثر تعقيدًا، فإن الشيخوخة تُقبل على الإنسان محفوفة بالمتاعب، فهل هذه المتاعب لا تقهر؟ لا أظن ذلك. ومن رأيي أننا إذا أردنا أن نتغلب عليها، وجب أن نواجهها في شجاعة. وعلى هذا فسنورد قائمة حالكة السواد لجميع المتاعب التي تصاحب الشيخوخة، وأطلب إليكم ألا تستسلموا للخوف أثناء عرض هذه القائمة، وليكن مثلنا مثلَ الطبيب الذي إذا وجد مريضه مصابًا بمرض خطير يوجب الحيطة، قال له: «إليك ما سيحدث لك إذا لم تعالج حالتك»، ثم يسرد على سمعه أشياء قد تحدث له بعضها أفظع من بعض، ثم يقول له: «هذا كله لن يقع إذا اتخذت كذا وكذا من ضروب الحيطة الوقائية».

وإليكم ما عسى أن تأتي به الشيخوخة من الأمراض، والتي لن تكون من نصيبكم إذا عرفتم كيف تتقونها: «إذا استثنينا بضعة كائنات استطعنا أن نقول إن الجسم الآخذ في الشيخوخة يشبه محركًا متعبًا، ولو أننا عنينا به وتفقدناه وأصلحناه في الوقت المناسب، لاستطاع أن

يعاود عمله ويؤدي لنا بعض الخدمات. ولكنه لن يعود كما كان، فلا ينبغي أن نطالبه بمجهودات عنيفة؛ إذ إنه ابتداء من سن معينة يصبح العمل أشق والشغل اليدوي أحيانًا مستحيلًا والشغل العقلي مختلف النوع والقيمة. ومن الفنانين من يبقى إلى النهاية مسيطرًا على مواهبه، فقد كتب فولتير «كانديد» وهو في الخامسة والستين، ونظم فكتور هوجو في شيخوخته شِعرًا في غاية الإبداع، وأكمل جيته الجزء الثاني من فاوست، وأتم فاجنر «بارسيفال» في التاسعة والستين، وفي أيامنا هذه نقح بول كلوديل في الحادية والسبعين كتابه «إعلان البشرى لمريم» الذي وضعه في سن الخامسة والعشرين. وفي حالات أخرى ينضب معين الإلهام قبل الأوان، وهي في الأغلب حالات أولئك الذين نبعت عبقرياتهم من عواطف شباب تقضي في أحضان الألم. وكانوا منصرفين عن العالم الخارجي انصرافًا تامًّا. فعند هذا الفريق من الناس يؤدي صمت القلب إلى صمت العمل. قال لاروشفوكو: «الهرم سلطان جائر يحرَّم كل لذائذ الشباب ويعاقب المخالفين بالموت. وأعنف هذه اللذائذ وأنكرها تحريمًا هي لذائذ الحب؛ فالرجل المسن والمرأة المسنة لا يستطيعان بحال أن يوقعا كائنًا شابًّا في غرامهما. فمهما بلغ الشيخ من شباب القلب ونضارة الوجه وقوة البدن، فمن العسير –ولا أقول من المحال– أن يكون الائتلاف بين القرينين تامًّا كما يكون بين كائنين متقاربين في السن. نعم قد نعثر على بعض الأمثلة المجيدة كمثل جيته وبتينا، ولكن جيته لم يكن عشيقًا لبتينا، ثم إننا ينبغي أن نتساءل: كم يكون نصيب الإجلال والإعجاب، وإنكار الذات في هذه

الألوان من الحب؟ ولعلكم تذكرون أبيات بودلير العجيبة القاسية:

أيهذا الملاك الفائق الحسن! هل تعرف الغضون؟

وأوار المشيب والعذاب البشع!

في مطالعة وعدة الحب الخفية

في أعينٍ طالما شربت منها أعيننا العطشى

أيهذا الملاك الفائق الحسن! هل تعرف الغضون؟

وكثيرًا ما وصف بلزاك مآسي الشيوخ المتيمين؛ إذ لا يستطيع الشيخ أن يدرك ولو جانبًا من حرارة الترحيب إلا بالهدايا والألطاف المتوالية المتجددة. وقد كان يدرك ذلك فيما مضى بشخصه مجردًا، ولهذا يجر الشيخ على نفسه الخراب في سبيل كل كاعب ماهرة تعرف كيف تمنحه بعض الآمال الجامحة. وهو حين يستجدي شيئًا من العطف يسير كالبارون هيلو بخطى واسعة في طريق الخزي والانحطاط. ترك شاتو بريان بعد أن غص بمثل هذه الآلام مخطوطًا رهيبًا بعنوان «الحب والشيخوخة»، هذا الكتاب هو شكوى مرة وصرخة ألم أرسلها عاشق هرم لا يعرف كيف يهرم: «إن عقاب أولئك الذين أسرفوا في حب النساء هو ألا يبرؤوا من حبهن مدى الحياة. في حين أن عقاب أولئك اللاتي أفرطن في حب الرجال أن يسمعن الشبان في طريقهن يهمسون في دهشة صادقة»: يلوح أنها كانت جميلة يومًا ما».

ويهرم القلب عند البعض؛ لأن جفافًا غريبًا يأتي مع الشيخوخة. ولعل سبب ذلك هو أن رغبة الجسد متى خمدت حُرمت الشهوات

سندها ودافعها الطبيعي القوي. ولعل الشعور بقصر البقية من العمر يأتي فيخمد الرغبة والحب.

قضى أفيل حياته مع أونيس؛ صار عشيقها وهو في السابعة والعشرين من عمره فأغراها بترك زوجها، ولم يتزوج منها؛ إذ كان متزوجًا، فضحَّت من أجله بأسرتها وأولادها وسمعتها وأصدقائها، وحاطته بكل عناية في مهنته وفي عمله وفي لهوه، وأعقبت رباطهما الغرامي محبة طويلة الأمد، ولما بلغ الثمانين وكانت هي في السبعين، لم يكن ينقضي يوم لا يتقابلان فيه، وأخيرًا ماتت فكان كل معارفهما يرثون لأفيل ويقولون: «إنه سيموت من أجلها» ولكنه لم يمت، بل بدا للناس وكأن الشباب يعود إليه بغتة، ذلك أنه كان قد هرم إلى درجة لم يعد يستطيع معها الحب، بل لم يعد يستطيع معها الألم أيضًا.

هذه الأثرة التي تلازم الشيخوخة تحرم الشيوخ من كثير من الأصدقاء. فأما من كانوا أصغر سنًّا فلا يجدون عند الشيخ الأناني تلك الحرارة المصحوبة بالتجربة التي يصح أن تجذبهم. والبخل آفة من آفات الشيوخ، ومن بعض أسبابه خشية الحاجة، فالشيخ يعلم أن الكسب قد أصبح عسيرًا والعمل العنيف شاقًّا، وهو يتشبث بما يملك ويحسب حساب النوازل بكافة أنواعها فيتخذ المخابئ العديدة والاحتياطات الأكيدة. ولا يتولد البخل من الخوف وحده، بل قد يكون مرده أن إنسانًا يفتقر إلى شيء يتحمس له، ونزعة البخل تظهر في كل سن وتحدث لصاحبها لذائذ حادة، فعكوف البخيل على ماله يقلبه ويحصيه ويتتبع أسعار القراطيس المالية وأثمان الأحجار

الكريمة، يجعله يحتفظ ببعض السلطة، بالرغم مما يتمشى في جسمه من الضعف.

ومن ملاهي البخلاء أن يعمدوا إلى أسباب النفقة فيستبعدونها الواحد بعد الآخر، ويدرك هؤلاء المتشبثون من ذلك فتنة عجيبة تذهل عقولهم، وتستطيع أن تجد هذا مفصَّلًا في قصة أوجيني جراندیه لبلزاك.

كتب لابروبير يقول: «ليس ما يخشاه البخلاء من الحاجة إلى المال يومًا هي التي تدفعهم إلى البخل؛ لأن منهم من تكدست لديهم الأموال حتى لم يبق محل لهذا القلق، وكيف يخشون الافتقار إلى رفاهات الحياة وهم يحرمون أنفسهم منها بمحض إرادتهم، إرضاء لشحهم؟ إن هذه الرذيلة هي بالأحرى نتيجة السن، ومردها إلى طبيعة الشيوخ الذين يستسلمون لنزعات الشيخوخة بطبعهم كما كانوا يستسلمون لشهوات الشباب في شبابهم، وكما كانوا يستسلمون لأطماعهم في كهولتهم؛ لأن البخل شهوة لا تتطلب قوة أو شبابًا أو صحة، بل يحقق الإنسان مطلبه منها بأن يضع ماله في الخزائن، ويحرم نفسه من كل شيء. وهذا أمر يوافق أمزجة الشيوخ الذين لا بد لهم من شهوة لأنهم بشر كغيرهم، ثم إن عيوب العقل تزداد كما تزداد عيوب الوجه مع الشيخوخة؛ لأن الشيخ يصبح عاجزًا عن هضم الأفكار الحديثة؛ إذ تنقصه القدرة على مضغها فيتمسك بأوهام سن النضج في عناد وشراسة. وهو إذ يستند إلى عكازة تجاربه يحسب نفسه قادرًا على الهيمنة على كثير من الأمور، ومن ثم تثير كل مخالفة يلقاها غضبه لأنه يرى فيها انتقاصًا لما يجب له من الاحترام، ويبدو منه تشبث

الأطفال وغضباتهم ويقول: «لم يكن يسمح للشبان بمخالفة من هم أكبر سنًّا في أيام شبابي». وينسى أن هذه العبارة بعينها كانت تُوجَّه له من جده في أيام شبابه. وهو لعجزه عن الاهتمام بما يجري حوله وعن أن يتجدد مجاراة للظروف، تراه لا ينفك يقص عليك نفس القصص التي فتنته في شبابه، ويتكرر ذلك مرارًا عديدة، وينتهي الأمر بأن يسأمها الأعقاب فترى الشبان وهم يصغون إليه يتثاءبون، ثم يتبادلون الابتسامات ثم لا يلبثون أن ينفضوا من حوله. ومن هنا تكون الوحدة وهي آفة الشيخوخة الكبرى. يفقد المرء رفقاء حياته واحدًا بعد الآخر ويعجز عن الاستعاضة عنهم بغيرهم، فتمتد البيداء رويدًا حول الشيخ حتى يتمنى الموت إذا لم يكن يخشاه كلما تراءى له قريبًا متوعدًا.

أتى تولستوي -وهو مصور حاذق في هذا الموضوع كما في غيره- في آخر كتابه «الحرب والسلم» بصورة أخاذة لعجوز ساءت شيخوختها فقال: «كانت منذ مات ابنها وزوجها من بعده تشعر بأنها كائن لا هدف له ولا معنى، ترك منسيًّا في هذا العالم بمحض المصادفة، فكانت تأكل وتشرب وتنام وتسهر ولكنها لا تعيش. لم يكن للحياة في نفسها أي معنى ولم تكن تبغي منها شيئًا غير السكينة، ولم تكن لتستطيع أن تجد هذه السكينة إلا في الموت، وكان عليها أن تعيش في انتظار أجلها، أي أن تنفق قواها الحيوية. كان يلاحظ عليها في أعلى درجة ما يلاحظ على الأطفال الرضع أو من بلغوا غاية الهرم، وهو أن الإنسان لا يستبين لحياتها أي غرض خارجي. وكل ما يلاحظ هو قدرتها على استعمال مختلف وظائفها وقابلياتها. إنها في حاجة

إلى أن تطعم وأن تنام وأن تفكر وأن تبكي وأن تتحدث وأن تشتغل وأن تغضب... إلخ، لا لسبب سوى أن لها معدة ولها مخ ولها عضلات ولها أعصاب ولها كبد.

كانت تفعل كل ذلك بغير أن تكون مدفوعة إليه بدافع خارجي، كانت تفعله على نحو يخالف نحو الناس فيه وهم في عنفوان الحياة، عندما يصرفهم الغرض الذي يهدفون إليه عن ملاحظة أي غرض آخر يصرفون فيه قواهم، كانت تتكلم لأنها بفطرتها في حاجة إلى تحريك رئتيها ولسانها، وكانت تبكي كالطفل لأنها كانت تريد أن تمخط. ففي الصباح -وخاصة إذا كانت قد تناولت في مساء الأمس شيئًا من الأطعمة الدسمة- كانت في حاجة إلى الغضب ولهذا كانت تتذرع لذلك بصمم مدام بييلوفا. وكانت تلجأ إلى حجة أخرى وهي التعلل أن سعوطها جاف تارة، رطب لم يحسنوا فركه تارة أخرى. وعلى إثر هذه المشاحنات كانت الصفراء تنتشر في وجهها، وكانت الخادمات يعرفن بدلائل مؤكدة متى يعود الصمم إلى مدام بييلوفا، ومتى يكون السعوط رطبًا، ومتى يصفر وجه سيدتهن. وكما أنها كانت تحتاج إلى تحريك مرارتها لتفرز الصفراء، فقد كانت تلجأ أحيانًا إلى استعمال ملكة التفكير التي بقيت لها، فكانت تجد بغيتها في لعبة «الصبر» بالورق، فإذا احتاجت إلى البكاء ذكرت المرحوم الكونت، وإذا شعرت بحاجة إلى القلق فذريعتها نيقولا وصمته، وإذا لزمها أن تعذب إنسانًا فلتكن ضحيتها الكونتة ماري، وإذا أرادت أن تجلو صوتها -ويكون ذلك عادة حوالي الساعة السابعة مساء عقب

الهضم- كانت ذريعتها دائمًا نفس القصة تحكيها لنفس المستمعين.

وكان جميع من يعيشون معها يفهمون حالتها، رغم أن أحدًا منهم لم يكن يذكرها، وكان الكل يبذلون أقصى جهودهم في إرضاء رغباتها، ولم يكن إفصاح بعضهم لبعض عن إلمامهم بحالتها يظهر إلا في نظرات نادرة، بعضها باسم وبعضها حزين متبادلة بين نيقولا وبطرس وناتاشا والكونتة ماري.

ولكن هذه النظرات كان معناها شيء آخر أيضًا؛ كانوا يريدون أن يقولوا إنها انتهت من أداء واجبها في هذه الدنيا، وإنهم صائرون إلى حيث صارت، وإن طاعة هذا المخلوق وضبط النفس معه لون من السرور؛ إذ كان عزيزًا فيما مضى وكان ممتلئًا حياة وقد انتهى أمره إلى هذا الشقاء. كانوا يريدون أن يقولوا: «اذكروا الموت»، ولم يكن من بين أهل البيت من لا يفهمها ويبتعد عنها إلا الخبثاء والحمقى والأطفال».

والآن فنلخص أخطار الشيخوخة: إنها تضعفنا، وتحرم علينا لذائذ الحياة واحدة بعد الأخرى، وتجفف القلب كما تجفف البدن، وتباعد بيننا وبين المغامرات، وتفقدنا الأصدقاء، ثم تقبل فكرة الموت فتغشى الشيخوخة بظل قاتم. يا لها من صورة سوداء.

٤- أيستطيع المرء ألا يشيخ؟

فن الشيخوخة هو فن مكافحة هذه الآفات ومحاولة تحويل أخريات أيامنا على رغمها إلى عهد هنيء.

هل يستطيع الإنسان مكافحة أمراضه... إذا كانت هذه الأمراض تصيب الجسم؟ أليست الشيخوخة عبارة عن تغيرات فسيولوجية طبيعية يجب أن نسلم بحدوثها؟ لقد شبهناها بطور شيخوخة أوراق الشجر التي هي الخريف. أليس من المناسب أن نذكر هنا أسطورة الشجرة التي أرادت أن تحتفظ بأوراقها؟ إنها تحاول أن تضم أوراقها إليها وأن تلصقها بجسمها، أو أن تخيطها عليه ولكن على غير جدوى، فإن عواصف الشتاء ستصنع منها في الساعة المحتومة ما تصنعه بجاراتها: هيكلًا أسود. بيد أن الناس قد تعلموا من حضارتهم وتجاربهم وسائل مكافحة مظاهر الشيخوخة على الأقل لا الشيخوخة نفسها، وهنا يكون لوظيفة التجمل النصيب الأوفر، فترى العجائز يعلقن على أثوابهن وحليهن أهمية تفوق ما تعلقه عليها الشابات وهو أمر طبيعي. فالجواهر البراقة من شأنها أن تجتذب الأنظار وتحيد بها عن مواضع النقص، والكريات الصدفية التي تحاكي الأقمار منظومة في قلادة لؤلؤية تنسيك تلك الأخاديد الهزيلة في الجيد الذي يتحلى بها، وتألق الخواتم يخفي شيخوخة الأيدي، وبريق الأساور يداري هزال المعصم، والتيجان والأقراط تبهر المتحدث فيغفل عن غضون

الجبين، ولا يلاحظ التجاعيد التي تشبه تجاعيد رجل الإوزة، وهذا يشبه ما يلجأ إليه أهل القبائل البدوية من الوشم لنفس الغرض.

وكل ما يرمي إلى جعل الشباب والشيخوخة شيئين يصعب التفريق بينهما هو عمل من عمل المدنية، فالقرن السابع عشر -أكثر القرون تأدبًا وظرفًا- استنبط الشعور المستعارة، فكانت هذه الشعور المستعارة بمثابة احترام للصلع، ثم جاءت المساحيق وأحمر الشفاه فقاربت بين الغواني وجداتهن وبين المرضى والأصحاء. واتجهت همة الخياطات ومعاهد التجميل إلى خلق النمط الذي يحتفظ للعجائز بشيء من الأمل، وفن اللباس بعد سن معينة هو فن إخفاء الإنسان لما لا يرتاح إليه النظر من أجزاء جسمه، وهو أيضًا لون من ألوان الأدب. والخمار الخفيف هو ابتكار عجيب يحول دون وضوح الصورة، ويخلع على جميع النساء حسنًا كاذبًا، فكل زينة هي خمار خفيف يحسن أو يسيء ستر ما أفسده الدهر. هل يستطيع العلم يومًا أن يمنع الشيخوخة من أن تبري أجسادنا وتهدمها؟ هل يستطيع أن يفجر لنا عينًا حقيقية كعين جوفنس؟ يقولون إن سن كل آدمي ليست هي السن التي تقررها شهادة ميلاده، ولكنه يكون في سن شرايينه ومفاصله، فقد يبدو صاحب الخمسين أسن من صاحب السبعين. وعلى هذا فلا بد أن يكون من المستطاع إعادة الصبا إلى الجسم بإعادة خلاياه إلى حالة فسيولوجية أصغر سنًّا. وقد أجرى علماء البيولوجيا هذه التجربة على بعض مخلوقات بسيطة التركيب. خذ كائنًا بسيط التركيب كبعض الحيوانات المائية التي تعيش في الأطلنطي، وضعه

في كمية صغيرة من ماء البحر، واتركه يتسمم بإفرازاته تجده يشيخ بسرعة. جدد ماءه كل يوم تقف عملية الشيخوخة، فمن الجائز على هذا أن نرد شيخوخة خلايانا إلى تراكم نفايات الجسم فيها، وربما كان من الممكن الوصول إلى إطالة أعمارنا بغسل هذه الخلايا في فترات مناسبة. وقد جربوا أيضًا إعادة الشباب إلى بعض الحيوان وإلى الإنسان نفسه بتطعيم بعض الأعضاء أو الحقن ببعض الهرمونات، ولما عولجت بعض الجرذان بهذه الطريقة عادت إليها نضارتها وجاذبيتها ونشاطها وميلها الجنسي ودام مفعول العلاج حوالي شهر، وقد أمكن إعادة هذه العملية أربع مرات، فوجد أن عمر الجرذ قد أُطيل بقدر النصف، وأن حياته أصبحت أهنأ، إلا أن مفعول العلاج كان في كل مرة أقصر منه في سابقتها وكانت أعراض الهرم أسرع. وتجارب الدكتور فورونوف على الكباش معروفة للجميع. أما بالنسبة للآدميين فالنتائج أقل ثباتًا، ولكن يلوح أن كل هذا لا يهم، فالإنسان في مقدوره اليوم أن يصل إلى الثمانين أو ما بعدها بمجرد اتباع نظام صحي حسن. فهل بعد هذا مطمع؟

في مدى ثمانين عامًا يكون المرء قد رأى كل شيء: الحب وخاتمته، والطمع وزهوه، ولونين أو ثلاثة من ألوان الجنون الأساسية والشفاء منها، وبعد هذا لا تكون رهبة الموت بالغة من الحدة مبلغًا عظيمًا، فقد ذهب كل من كان عزيزًا علينا من الناس، وقد انقضى كل ما كان يهمنا من الحوادث. كان جيته يقول: «عندما أقعد وحدي أخالني شخصًا خرافيًّا».

وفي دور السينما التي يكون العرض فيها مستمرًّا بلا انقطاع كلما انتهت الرواية بدأت من جديد، يكون للمتفرج الحق من الوجهة النظرية في أن يبقى ليشهد الفيلم مرات من الصباح إلى المساء، ولكن الواقع أن السأم يصرفه عن مقصده متى بدأت الصور التي رآها من قبل تظهر أمامه من جديد. والحياة مشهد مستمر معاد، فالأحداث الشاقة تعود فتجري كل ثلاثين سنة فنسأم من تكرارها، ومن أجل ذلك ينهض النظارة الواحد بعد الآخر وينصرفون.

عندما احتفل الكتاب الإنجليز بالعيد السبعيني للكاتب هـ. ج. ولز، ألقى ولز خطبة قال فيها: إن هذه الحفلة تعيد إلى ذهنه ذكر بعض ما كان يحسه وهو صغير عندما كانت مرضعته تقول له: «قد حان وقت نومك يا مستر هنري»، ومتى حان وقت النوم يبدي الطفل شيئًا من المعارضة، وهو يشعر فيما بينه وبين نفسه أن النوم يأخذ برأسه، وأن الراحة المنشودة ستكون في الفراش. ويمضي ويلز فيقول: كذلك الموت هو مرضع حنون متشددة تجيء متى حان الوقت وتقول لنا: «هذا أوان نومك يا مستر هنري»، فنعارض قليلًا، ونحن نعلم أن ساعة الراحة قد دنت وفي خاطرنا أن هذه الراحة هي مطلبنا.

٥- هل نستطيع أن نحسن الشيخوخة

إذا سلمنا دون جزع بفكرة أن الحياة محدودة، وأن أيام العمر معدودة، فلا أقل من أن نرجو الوصول إلى نهاية الشوط سليمي الجسم والعقل. أهذا ممكن؟ نعم ممكن تمامًا.

ليس صحيحًا أنه من المحتم أن يصحب الشيخوخة موكب الأمراض التي سبق وصفها، انظروا إلى الحيوان، فكثير منه ينتقل من الحياة إلى الموت دون أن يتغير كثيرًا، والجسم المدرب تدريبًا حسنًا يستطيع أن يحتفظ بمرونته ونضارته، والسر كل السر ألا تنسى نفسك، فما صنعته بالأمس تستطيع أن تصنعه اليوم، وما انقطعت عن عمله ولّى إلى غير رجعة، والرياضة والمثابرة عليها يفعلان العجب. فكثيرون في سن السبعين يزاولون اللعب بالشيش ويمارسون التنس والسباحة أو الملاكمة يوميًّا. إنما الحكمة هي أن تمرن جسمك باستمرار إلى النهاية لا عن نزوة أو في تقطع. من المحال أن توقف الشيخوخة إذا بدأت، ولكن من السهل ومن المأمول أن تمنعها من غشيان بدنك، ولقد كان مونتيني يقول: من البلاهة أن يتعجل الإنسان متاعب الحياة أو يطيل أمدها، ولهذا فأنا أفضل أن تطول شيخوختي عن أن أشيخ قبل الأوان.

فلنجتنب إذَنْ تقاعد الجسم قبل الأوان، ولنجتنب تقاعد العواطف، فللقلب -كما للبدن- حاجته إلى التمرين. لن يكون ذلك بالطبع بتعمد خلق العواطف. ولكن كيف يحرم الإنسان نفسه مما يشعر به من العواطف بالفعل لمجرد أنه شيخ؟ ألأن الناس يسخرون من الشيوخ إذا أحبوا؟ كلا إن الناس لن يسخروا منهم إلا إذا تناسوا أنهم شيوخ.

وليس ثمة سخرية من زوجين مسنين كلاهما كلف بصاحبه يرى منه ما كان يحبه أيام الشباب، كلاهما يجد عند صاحبه ما عهده من

الرعاية والحنو والمحبة والإعجاب، ولكنه لا يلحظ السن. ثم إنه يحدث كثيرًا -عندما يولي عهد العواطف- أن ألوانًا من الحب التي كانت ناقصة غير موفقة في عهد الشباب تتخذ بمضي السنين مذاقًا خالصًا فيه زهد وفيه حلاوة، فالخلافات الحسية تختفي بخمود اللذائذ الحسية، والغيرة تموت مع الشباب، وتنطفئ جذوة العنف مع همود القوة.

ومن حطام شبابين عاصفين يمكن أن تنشأ شيخوختان جميلتان، وتذكرنا حياة زوجين من هذا الطراز بتلك النهيرات التي تكون في أولها سيولًا خطرة متوثبة عند المنبع، ثم تصبح بالقرب من المصب جداول جميلة صافية هادئة، تنعكس على مرآتها الصافية صور الأشجار المظللة، ونجوم الليل.

قد يبلغ حب الشيوخ ما يبلغه حب الشبان من عمق العاطفة والإخلاص، وفي عواطف الشيوخ صفاء الود ووساوس الحب الحارة الحنون. وصف فيكتور هوجو مبلغ تأثره من رؤية مدام ريكامييه، وقد كف بصرها بالقرب من شاتو بريان المشلول فقال: «في الساعة الثالثة بعد ظهر كل يوم كانوا يحملون المسيو شاتو بريان إلى جانب سرير مدام ريكامييه، وكان ذلك أمرًا يؤثر في النفس؛ إذ كانت المرأة التي لم تعد تبصر تبحث عن الرجل الذي لم يعد يحس، وكانت يداهما تتقابلان، ثم تسمع أحدهما يقول: «الحمد لله: لقد اقتربنا من المنية وما زلنا حبيبين». إن الإخلاص يتحدى الهرم. كان دزرائيلي يتحامل على نفسه كل مساء ليرى ليدي براد فورد، وكان يضع رسل الدولة في

خدمة سيدته ويقول لها: «يستطيعون الانتظار عندك طول النهار فهم عبيد إرادتك»، صحيح إن ليدي براد فورد سببت له شيئًا من الألم، ولكنها كانت الحلم الأخير الذي تعلل به رجل مشبوب العاطفة مثله لا يستطيع أن يحيا من دون رواية.

ومهمة النساء في مثل هذه الحالة هي أنهن يوقظن شواغل الشيوخ بدلالهن، ويقدنهم بلطف إلى الموت في شيء من أوهام الشباب الساذجة، فكم رأينا أناسًا كانت حياتهم زاخرة بالعواطف ولاح أنها انطفأت إلى الأبد، وإذا بها تتألق بشعلة عجيبة كنيران الخشب التي تحسبها خامدة، وإذا هي فجأة تندلع مزغردة.

على أن الحياة العاطفية لا تقتصر على الأحاسيس الغرامية وحدها، فتعلق الشيخ بأولاده وأحفاده يكفي غالبًا لملء فراغ حياته. وفي تتبع الابن أو الابنة وهم يقطعون بدورهم مراحل الحياة شيء غير قليل من اللذة والمتعة، تسعدنا سعادتهم وتؤلنا آلامهم، ونستمد من حبهم حبًّا ونشاركهم في كفاحهم. وكيف نشعر بأننا بعيدين عن ميدان اللعب ما داموا حاضرين ليلعبوا بدلًا منا. وكيف نظن أننا محرومون من المسرات ما دام في إمكانهم أن يتذوقوا شيئًا منها؟ إن فرحة الذهاب إلى الملعب لأول مرة لفرحة عظيمة، وفرحة اصطحاب أولادنا إليه لأول مرة تليها في القوة، وبعد السعادة التي نشعر بها عندما نكتشف بأنفسنا الشعراء الذين نحبهم. أليست أعظم سعادة هي أن نرقب في وجوه أولادنا علامات الإعجاب والسرور بمطالعة الكتب التي تخيرناها لهم؟ وفي الوقت الذي يأبى علينا الحظ فيه أن يمنحنا

مسرات تحرمها علينا السن، أيمكن أن ندرك لذة أقوى من أن ندخل على أولادنا مسرات تبرق لها أعينهم؟

يحدث أن صلة أقوى من صلة الأبوة تربط الجد أو الجدة بالأحفاد؛ لأن الشيخ بسبب ابتعاده عن الأعمال تعود إليه خفة الأطفال وفراغهم، ولهذا يبدو منه الاستعداد للعب ولحكاية الحكايات، وللإصغاء إلى مناجاة الأطفال، بل إن قوى الطفل نفسه مكيفة على نحو يناسب قوة الشيخ؛ لأنه إذا لم يستطع العدو مع أولاده، استطاع أن يترنح مع أحفاده. إن خطوات الإنسان الأولى وخطواته الأخيرة ذات وقع واحد، وخطوات الإنسان الأولى وخطواته الأخيرة يربطها محيط دائرة واحدة.

وليس صحيحًا أن الشيخ لا مندوحة له عن الوحدة، لن تكون له مندوحة عنها إلا إذا كان محبًّا لذاته، بخيلًا، متسلطًا، خَرقًا. ولكنه إذا انتبه إلى عيوب نفسه التي تلازم الشيخوخة عادة وكافحها وخنقها في مهدها، وفرض على نفسه أن يظل كريمًا متواضعًا ودودًا، رأى الشبان ينشدون محبته ويستعينون بتجاربه، وقد يصعب على الشيخ أن ينقل إلى الشبان تجاربه الخالية من الوهم البعيدة عن الخطأ على الأقل، دون أن يمس حميتهم الطبيعية.

ثم إن التجربة لا تؤكد أن كل حمية سخافة، ولكنها تعلمنا أن نترقب النتائج العظيمة، لا الخطب الطنانة والألفاظ الخلابة، وأن العبرة بجلائل الأعمال وكريم الخصال، فهي تضم إلى هذا التعاليم

التي يتقبلها الشباب من ذوي البصر والحكمة الجديرين بالمشورة. كان من اللطيف أن نرى زمرة من الشبان المخلصين يلتفون حول ليوتي -وهو في الثمانين من عمره- يلتمسون عند الشيخ دوافع وأسبابًا للإيمان والرجاء. وكم أمد مثل هذا اللقاء زوار ميريديث ومالارميه وبرجسون ببعض الأفكار البارعة النبيلة. إن شيخًا لا يسبب لغيره متاعب لا يعدم الأصدقاء.

حوالي منتصف شهر ديسمبر من كل سنة أسلك طريق كورنيش لاتوريي العالي، وأتجه نحو بيت صغير في هيئة بيوت فلاحي الرومان يسكنه المسيو جبرييل هانوتو، وتلقاني على حافة الطريق المنحني زيتونة عمرت نحو ألفين من السنين تذكرني بفرجيل، وفي ظل أشجار البرتقال أجد صاحب البستان -بالرغم من سن الخامسة والثمانين- يرقى المرتفع الصعب بأسرع مما يفعل الشباب، وهو يقول بصوت عذب: «إني أتكلم فرنسية عصر لويس الخامس عشر، أخذتها عن جدتي وأخذتها هي بدورها عن جدتها».

وذهن المسيو هانوتو -كنطقه- قديم. شاب في نفس الوقت -قال لي: سأرشدك إلى بعض قواعد تستذكرها كلما افتقرت إلى العون- حق إنها نصائح بسيطة عظيمة الأثر، فهاك هي: «كل شيء يحدث، وكل شيء يُنسى، وكل شيء يُصْلح، إن أحدًا من البشر لن يفقه شيئًا من لا شيء. لو درى كل الناس بما يقوله كل الناس عن كل الناس ما خاطب أحد أحدًا»، أعجبتني هذه الموعظة الأخيرة، وكانت لي منها سلوى عن كثير من الإشاعات التي كانت تنتشر عني. وكان

يقول: «وعلى الأخص لا تستسلم للخوف أبدًا، فالعدو الذي يحملك على التقهقر يشعر بالخوف منك في نفس اللحظة».

هذا شيخ لم يخرج من دراسة التاريخ وكيد الحياة الطويلة باليأس وعدم الاكتراث، ولكنها علمته هدوء النفس وصفاء الذهن والثقة؛ فقد كان في الخامسة والثمانين من عمره يضع ألف مشروع، ويفكر في رحلات طويلة ويبني ويزرع. وشبيه بهذا ما قاله لي المارشال ليوتي عندما انتهى معرض المستعمرات: «وماذا أنا صانع الآن؟». قلت: «يا سيدي المارشال، إن الحكومة بلا ريب سوف توفق إلى طريقة للانتفاع بمواهبك»، فصاح: «سوف تجد؟ سوف؟ هذا جميل جدًّا! أنا على أبواب الحادية والثمانين، فإذا كنت أريد أن أتخذ لنفسي عملًا للحياة وجب أن أبدأ؟ وهذا ما ينبغي أن يكون، فقد سبق أن قلنا: «إن الشيخوخة هي الإحساس بأن الوقت قد فات، وأن الرواية قد تمت فصولًا وانتهت، وأن المسرح أصبح من الآن ملكًا لجيل جديد»، وإن آفة الشيخوخة ليست في ضعف الجسم، ولكنها في قلة اكتراث النفس. إن واجبنا هو أن نكافح عدم الاكتراث هذا ونحن نستطيع أن نكافحه، فأبطأ المسنين إلى الشيخوخة هم أولئك الذين احتفظوا بدوافع الحياة. قد يظن الناس أن حياة كلها اضطراب وانفعالات ونضال أو دراسة وأبحاث تنهك الفرد وتبريه، لكن يلوح أن العكس هو الصحيح في الوقع، فإن كليمنصو وجلادستون كان كل منهما رئيسًا لمجلس الوزراء بعد الثمانين، فأدهشا العالم ببأسهما وسطوتهما، وليست الشيخوخة سوى عادة قبيحة لا يجد الرجل المشغول وقتًا لاعتيادها.

لكن كيف يظل الإنسان مشغولًا؟ أليست الأعمال بعيدة عن متناول الشيوخ؟ ثم هل تتحقق المصلحة بالاحتفاظ بشيخ في رئاسة بلد أو مشروع؟ الجواب هو أنه في كثير من الأحوال تكون قيادة الشيوخ أفضل من قيادة الشبان؛ فالشيخ فابيوس هو الذي أنقذ روما، وفي حرب سنة ١٩١٤ احتل المكانة السامية رؤساء مسنون من الجانبين. وكان أجاممنون يفضل لو كان له عشرة رفقاء شيوخ كنستور لا شبابًا مثل أجاكس، ولم يكن يشك في أنه لو ظفر بهم لما سقطت طروادة. فالسياسي المسن، والطبيب المسن تتوافر لهما التجربة والحكمة؛ إذ إنهما تخلصا من شهوات الشباب، فهما ينظران في القضايا والمذاهب بإحكام وهدوء نفس. قال شيشرون: «لا تتم عظائم الأمور بقوة الجسم أو خفة الحركة، ولكنها تتم بالرأي والنصيحة والنفوذ ونضج السن».

٦- طريقتان مختلفتان لقضاء شيخوخة طيبة

يخلص مما تقدم من الكلام أن هناك طريقتين لقضاء شيخوخة طيبة:

الأولى: وقد سبق وصفها، وهي ألا نشيخ، وهي طريقة أولئك الذين تفادوا الشيخوخة بالعمل، وهذا هو المغزى الذي تنطوي عليه أسطورة فاوست كما قال جيته في آخر قصيدته: فقد عادت إلى فاوست الشيخ كل مظاهر الشباب: «الحب واللذة والطمع، فكان ذلك كله عبثًا، وخانته هذه المظاهر كلها ولم ينقذه إلا العمل. فقد فرض على نفسه -وهو مكفوف خائر القوى- القيام بتجفيف غدير موبوء

بالطاعون، وقرر أن يجعل مكان المستنقعات النتنة منطقة صالحة يطيب فيها العيش للناس والدواب، وقال فاوست: «نعم، لقد حبست نفسي على هذه الفكرة. إن الإنسان الجدير بالحرية وبالحياة دون سواه، هو ذلك الذي يعرف كيف يغزوهما كل يوم...

إني متى استطعت في لحظة ما أن أبذل نشاطًا حرًّا على أرض حرة بين قوم أحرار، قلت لتلك اللحظة: قفي: فما أجملك؟ فإذا ما شعرت بهذه الغبطة السامية، فقد ذقت حلاوة ساعة تجل عن الوصف»، وفي تلك اللحظة يقع فاوست ميتًا، لقد انتهى كل شيء. وها هو ميفستو فيليس يتهيأ لينقل إلى جحيمه هذه الروح التي ابتاعها، ولكن سرعان ما يهبط الملائكة ويرفعون إلى السماء تلك البضعة الخالدة من فاوست، وهي التي ظل أملها معقودًا على العمل دائمًا أبدًا، فكان أمله هذا سبب خلاصه.

الثانية: هي أن نقبل الشيخوخة، ومن الممكن أن يكون عهدها عهد زهد وهدوء وبالتالي عهد غبطة وسعادة؛ إذ إن زمن الكفاح يكون قد انتهى وقد لُعبت اللعبة، أضحى الموت وشيكًا ولم يعد للمصائب علينا سلطان. عندما سُئل سوفوكل الشيخ عما إذا كان ما زال يتذوق ملذات الحب، قال: «لتحفظني الآلهة من شرها، لقد تحررت منها كما يتحرر الإنسان من سلطان وحش هائج».

لقد قابلت بعض شيوخ جديرين بكل إعجاب يشبهون حكماء أحلامنا، إنهم لم يتخلصوا من ثورة الحب فحسب، بل تحرروا من

تبعات مستقبل طويل، إنهم لا يحسدون الشباب، بل تراهم مشفقين عليه من عبور بحر الحياة المضطرب. فإذا كان هؤلاء الشيوخ قد حُرموا بعض لذائذهم غير آسفين، فهم ما زالوا يتذوقون في حرارة ما أبقته لهم الأيام من ملذات. إنهم يعلمون أن النصائح شيء لا غناء فيه وكل إنسان ينبغي أن يحيا حياته الخاصة، ونحن نصغي بارتياح إلى ذكرياتهم؛ لأنهم يريدون بكتابتها أن ينصحونا دون أن يوجهوا إلينا لومًا. وقد يحدث أنه عندما تتعسر الأمور نطلب منهم أن يعودوا إلى تسلم الزمام، وتَبَوُّء تلك المراكز التي يزداد ارتياح الناس إلى عرضها عليهم كلما عرفوا زهدهم فيها.

أما قضاء الشيخوخة بحالة سيئة، فله أكثر من طريقتين، وأسوأ الأساليب هو أن تتشبث بما هو عنك مدبر، فكم رأينا من رجال الأعمال المسنين من يرفضون التخلي عن سيادتهم، ويبقون أولادهم في شبه رق شرس، ولو كان لهم من الحكمة ما يجعلهم يشركون أولادهم في سلطتهم، لأحبهم أولئك الأولاد وأخلصوا لهم، وكم عرفنا من الأقارب الأشحاء من يتركون الابن أو الابنة تعيش عيشة الهوان؛ ليحفظوا بين أيديهم المرتعشة وسائل ملذات أصبحت فوق متناولهم، وكم رأينا من شيوخ جشعين، لم تعد لهم في الحياة إلا أيام معدودة، يسممون فيها ما بقي لهم من ساعات العمر بسموم الغيرة والندم.

إن فن الشيخوخة هو فن الظهور أمام الأعقاب بمظهر السند لا العقبة، والصديق الموثوق فيه لا المنافس.

أما التقاعد فالقول فيه ذو سعة. إنه يقتل بعض الناس، أولئك هم الذين لم يعرفوا كيف يستعدون له، إن سنوات التقاعد هي أمتع سنوات الحياة لمن يحتفظ بروح التطلع سليمة، فما الذي يلزم للوصول إلى عهد تقاعد هنيء؟

هو أن يكون الإنسان –وقد استبان أن المجد هباء لا غناء فيه– قد مال إلى سكون العزلة مع الاستمساك بالرغبة في التعلم والتفقه، فهو يحتفظ في قريته أو بيته أو بستانه بنوع من النشاط الشخصي المحدود، والعاقل من إذا فرغ من إنفاق زهرة عمره في الأعمال العامة لا يعود يخصص منه شيئًا إلا لشخصه ولثقافته. وما أيسر ذلك على من عرف كيف يحتفظ خلال أيام التبعات الجسام بالصلة بالأدب أو الفن أو الطبيعة. وأنا شخصيًّا لا أتخيل نهاية لحياتي أجمل من أن أنسحب إلى بعض جهات الريف غير بعيد عن المدينة، وهناك أعيد قراءة بعض الكتب التي أحببتها كثيرًا وأعلق عليها. قال مونتيني: «يجب أن يزهر العقل على الشيخوخة كما تتفتح على البلوط الميت زهرته». ولنا فيمن مضوا أصدقاء لا يستطيع الموت أن يفصل بينهم وبيننا، فكبار الكتاب رفقاء خالدون يزينون شيخوختنا، كما أيقظوا شبابنا وسحروه، والموسيقى هي أيضًا صديق وفي عجيب، يمنح أولئك الذين لم يعودوا يؤمنون بكمال العواطف الإنسانية مأوى في عوالم رائعة متجددة على مر الأيام.

كنت منذ بضعة أيام في الأوبرا أستمع إلى عزف رفيع للسيمفونية السابعة لبيتهوفن، وكنت أنظر إلى وجوه من حولي، فرأيتهم جميعًا

-شبانًا وشيبًا- قد غمرتهم موجة من النشوة والغبطة، لقد كانت هناك بعض نفوس ساخطة زائغة ضجرة، ولكن أصحابها كانوا مسرورين كغيرهم؛ فقد طوتهم أمواج النغم وهدهدتهم الألحان المطربة، وانتشلتهم حرارة عبقرية الملحن، فاستسلموا لنوع من السعادة الأبدية لا تعبأ بالسن ولا تعرف الأسى، فما إن شاركتهم في تذوق هذا النعيم الإلهي حتى اقتربت بنفسي من نفوس أولئك العظماء الذين كانوا استراحوا إلى الموت على نغمات موسيقى كانوا يعشقونها. قال بسكال: «ما أسعد الحياة تبدأ بالحب وتنتهي بالطموح»، ولكن أسعد من ذلك أن تنتهي الحياة بالعافية والهدوء بعد أن يكون صاحبها قد نال ما طمحت إليه نفسه أو تجاوزه. فبعد أن يتخطى الإنسان خط الظل في الخمسين بعشر سنوات أو عشرين سنة يعبر خطًّا جديدًا من النور. ومتى أدركت الإنسان طلائع الشيخوخة وجم لها وتألم في أول الأمر؛ إذ يرى أن زمنًا كان يحسبه زمنه قد تعلق بأفكار جديدة وسادة جدد. ثم يتغير الموقف ولا يلبث أن يتذوق حلاوة سعادة هادئة في أن يبقى مشاهدًا يقظًا لعهد لم تعد له به صلة، ويترجم وجهه الهادئ ونظرته الوضاءة الصريحة عن سكينة نفسه المطمئنة...

ليس إذَنْ صحيحًا أن الشيخوخة جحيم يجب أن يكتب على بابه: «أيها الداخل تخلَ عن كل أمل».

ها نحن قد فرغنا من تحليل جميع أسباب اليأس التي يتعلل بها الشيوخ، وأوضحنا أنه ما من واحد منها إلا وله علاجه.

فإذا قلنا إن القوة حرمت على الشيوخ، ذكرنا أن القوة مسألة صحة أكثر منها مسألة سن، ففي الشيوخ أسداء كما في الشبان الرخو الجبان.

وإذا زعمنا أن المسرة حرمت على الشيوخ، ذكرنا أن للشيخ مسراته الخاصة يتعلق بها ويستلذها أكثر مما يستلذ ما فاته ومضى من بين يديه.

وإذا ذهبنا إلى أن النشاط محرم على الشيوخ، ذكرنا أننا كثيرًا ما رأينا الشيوخ يعملون ويتولون القيادة أو الحكم، بأحسن مما يفعل الشبان.

وإذا ظننا أن الشيوخ محرومون من الأصدقاء، رأيناهم على العكس من ذلك محاطين بالأصدقاء، متى كانوا جديرين بهؤلاء الأصدقاء..

وأخيرًا لا نستطيع أن نقول إن الشيخوخة تخشى الموت؛ لأن الخوف يتولى الإيمان والفلسفة علاجه على أحسن وجه.

* * *

٧- فن الموت

نحن لا نعلم آلموت خير هو أم شر؟
ولكننا نعلم أن الحياة على الأقل ليست خيرًا.
سيظل الناس يقفون حزانى كما نحن واقفون.
ينظرون إلى نفس الحقول ونفس السماء ونفس البحر.
كما نحن فاعلون.

«سوينبورن».

هناك طريقتان للوصول إلى ميتة طيبة:

طريقة الإبيقوري الذي يعتقد أن الموت لا شيء، وطريقة المسيحي الذي يعتقد أن الموت كل شيء؛ فيقول إبيقور: «رض نفسك على أن الموت بالنسبة لنا لا شيء؛ لأن الخير والشر لا وجود لهما إلا في إدراكنا لهما. والموت هو الحرمان من كل إدراك، فاقتناعك بأن الموت لا شيء مصدر مسرة لك في حياتك الفانية؛ لأنه ليس في الحياة شيء يرهبه من اعتقد ألا شيء بعد الحياة، والموت لا وجود له؛ لأننا ما دمنا أحياء فلا موت، ومتى جاء الموت نكون قد فارقنا الحياة»، أما الفيلسوف المسيحي فإنه لا يخشى الموت؛ لأن الموت بالنسبة له هو طريق يلتقي في نهايته بمن أحبهم، وينعم بحياة أجمل كثيرًا من الحياة الدنيا.

لا غرابة في أن يموت القديس أو البطل ميتة طيبة. غير أنه لا حاجة بنا إلى تكليف أنفسنا مشقة الصعود إلى هذه المنازل السامية؛ لأن المخلصين في أداء واجباتهم يموتون في كرامة ونبل وهم عاكفون على أعمالهم إلى النهاية. وللميتات المهنية عظمتها، فما زلنا نذكر كيف مات بلزاك وبروست تحوم حولهما أشباح الأشخاص الذين خلقاهم في قصصهما؛ كان الأول يردد اسم الطبيب بيانشون، والثاني يخط اسم فورشفيل. وهل تعرف آخر جملة نطق بها الأب بوهور النحوي؟: «أنا مشرف على الموت أو أني سأموت.. كلا القولين صحيح». وشارل الثاني ملك إنجلترا يموت ميتة ملك وجنتلمان؛ إذ يقول: «لقد قضيت في النزع وقتًا لا يُصدق طوله، فأرجو أن تعذروني». ومات ريشليو ميتة وزير؛ إذ قال: «أتصفحون عن أعدائكم؟ لم يكن لي أعداء غير أعداء الدولة». ومات كورو ميتة مصور، حيث قال: «أرجو من كل قلبي أن يكون في الإمكان التصوير في السماء». ومات شوبان ميتة موسيقار، فقال: «اعزفوا ألحان موزارت في ذكراي»، ومات نابليون ميتة رئيس دولة؛ إذ كانت كلماته الأخيرة: «فرنسا... الجيش... رأس الجيش...». ومات كوفييه ميتة عالم في التشريح، حيث قال: «لقد بدأ الرأس يصارع الموت». ومات لاسيبيد ميتة عالم في التاريخ الطبيعي، فقال: «سألحق ببيفون». وماتت مدام لويز ميتة ابنة ملك، فقالت: «إلى الجنة... أسرعوا، أسرعوا امضوا بنا ركضًا».

استولت المهنة أحيانًا على بعض الرجال، وغاصت في نفوسهم إلى أبعد الأغوار، حتى خُيِّل أنها تلازمهم حتى بعد الموت. ومن ذلك

أن الطبيب الفيلسوف هال كان يتحسس نبضه إلى آخر لحظة، وقال لأحد زملائه: «يا صديقي لقد توقف الشريان عن النبض»، وكانت هي آخر كلماته. ورقد العالم الرياضي لايني رقدة الموت، وهو الذي نشر في أوائل القرن الثامن عشر طريقته الجديدة المختصرة لاستخراج الجذور التربيعية والجذور التكعيبية، فلما كان في غيبوبته لم يعد يعرف أصدقاءه، وبدا أنه قد فارقه الوعي، فمال عليه أحد الحاضرين وقال له: «يا لايني ما مربع ١٢؟»، فأجابه لايني: «١٤٤»، وكان قد فارق الحياة.

كتب مونتيني يقول: «لو كنت ممن يؤلفون الكتب، لوضعت سجلًّا لأقوال المحتضرين على اختلاف مهنهم وطبائعهم»، وقد قام كاتبان إنجليزيان بتأليف ذلك الكتاب الذي تمناه مونتيني.

يشعر قارئ هذا الكتاب بعد الفراغ من مطالعته، بشعور الاحترام للشجاعة الإنسانية، حيث لا يصادف سوى القليل من حالات الفرَق والجبن في هذه الأقاصيص.. «موت فنوم ولا أكثر... ولكن ترى أي أحلام في هذا السبات؟».

إذا كان سؤال هاملت الرهيب قد بقي بلا جواب، فإنه لأمر ذو مغزى عظيم أن نعلم أن كثيرين من الملوك والفنانين، وحتى من الصعاليك قد تساءلوا هذا السؤال ساعة الموت دون أن يدركهم الخوف.

٨- خطاب لبعض الشبان

هنا بسمة لأولئك الذين يحبونني،
وزفرة لأولئك الذين يكرهونني،
و كيفما كانت السماء التي تظللني،
فإن بين جنبي قلبًا متأهبًا لملاقاة كل حظ.

«بيرون»،

إنكم أيها الشبان تبدأون حياتكم في أوقات عصيبة، ففي التاريخ موجات من المد ترفع أضعف السباحين إلى مراتب الفوز. ولكن جيلكم يسبح ضد التيار في بحر متلاطم الأمواج، وهذا شيء عسير، فإنكم في الدقائق الأولى ستشعرون بالاختناق، وسيدرككم اليأس من الوصول إلى الشاطئ، ألا فلتطمئنوا؛ فقد صادف كثيرون قبلكم أمواجًا شاهقة كهذه، ولم يبتلعهم اليم، مستصمدون بالحذق والشجاعة حتى تسكن الريح.

أيها المنتصرون.. لا تنسوا أن الانتصارات الإنسانية ليست سوى انتصارات جزئية زائلة، وأن لا شيء من أمور هذه الدنيا يمكن أن ينظم تنظيمًا باقيًا على الدهر، وأن أي نصر -مهما عظم- لا يحدد المستقبل البعيد، وأي معاهدة -مهما أحكم وضعها- لن تستقر بها العلاقات بين الدول أو تعين الحدود بين الممالك لزمن طويل، وأن أي ثورة مهما امتدت لا تمنح السعادة الأبدية إلى الشعب أو الجماعة، إياكم أن تستسلموا إلى

الأماني فتطغوا، تظنون أن رجلًا بعينه أو جيلًا من الناس متى فرغوا من أداء ما فرض عليهم أصبح لهم الحق في الكسل والنعيم المقيم. إن مرحلة الحياة لا تنتهي إلا في الساعة التي يغشانا فيها ظلام الليل.

لا تتعجلوا، فالثروات وأسباب الشهرة التي تأتي في لحظة تذهب في لحظة. إنني أتمنى لكم العقبات ومواقف الكفاح، فبالمعارك يصلب عودكم، ومتى وصلتم إلى سن الخمسين أو الستين، بدا عليكم ما يبدو على الصخور التي تعرضت للأمواج والعواصف من دلائل الصلابة وآثار الكفاح، وتكون الدنيا المعادية قد شقت في أجسامكم الأخاديد. سيكون كل منكم كيانًا أخلاقيًّا؛ لأنه ستكون لكم أخلاق متينة فتضحكون من أمواج الآراء المتضاربة. عندما يكون الإنسان شابًّا تستولي عليه الرهبة من كل شيء، وتبدو العقبات الأولى كأنها إهانات ويبدو له الخبث الإنساني مفزعًا، فحققوا لأنفسكم ملاذًا باطنيًّا يعصمكم من قسوة الناس والأشياء. فكل امرئ في مقدوره أن يبني لنفسه في أغوار تفكيره ملاذًا يتحدى به أثقل المقذوفات وأحاديث الناس المسمومة بمهارة، وماذا عسى أن تخشى النفس المطمئنة؟ لا الاضطهادات ولا الوشايات تستطيع أن تضعف من الأدلة التي تقدمها هذه النفس القوية إلى عقل صاحبها.

انظروا إلى الحب نظرة جد لا نظرة خوف وحزن. سيدهشكم في شبابكم طيش النساء وتدللهن وأكاذيبهن وقسوتهن، قولوا لأنفسكم إن هذه المظاهر المستمدة من طبائعهن كلها مظاهر سطحية، ولو أنها واقعية، وإذا أخذتم في ملاحظتهن فاذكروا البحر الذي لا ينقطع سطحه عن التماوج والتقلب، ولكنه يصبح صديقًا وفيًّا لمن يتعلقون

به ويعرفون كيف يفهمونه. ابحثوا وراء الصفوف المتزاحمة من النساء المتسرعات اللواتي يكشفن في كرم عن نفوس عفيفة تتردد في إظهار وداعتها ومنح ثقتها، وأقسموا يمين الإخلاص من أعماق قلوبكم إلى من ترونها جديرة بحبكم. لا تحسدوا دون جوان، فقد عرفته، لقد كان أتعس مخلوق، وكان أضعف الناس نفسًا وأكثرهم وساوس.

عليكم بالاستقرار والثبات؛ فإني أعلم أنه متى بدأت الأمور تسوء هم الإنسان بأن يرفع اليد بعد أن يلقي بالفأس، وأن يبدأ الحياة من جديد مع امرأة ثانية وأصدقاء آخرين، وأن يعيش في بلاد غير البلاد. لا تسلموا قيادكم إلى هذه السهولة الخداعة. حقًّا إن بعض الحالات القصوى قد تحدث كوارث لا يمكن احتمالها، وتجعل من الضروري على الإنسان أن يبدأ حياة ثانية، ولكن الأفضل لأغلبية الناس أن يفيدوا مما في أيديهم، فإن من الحظوظ السعيدة أن يشيخ الإنسان ويموت بين أولئك الذين درج وشب وكافح معهم.

وأخيرًا عليكم بالتواضع والإقدام، فإن الحب والتفكير والعمل والحكم، كلها أمور عسيرة لن تصلوا منها في هذه الحياة الدنيا إلى درجة الكمال التي كنتم تحلمون بها في شبابكم، ولكن مهما بدا لكم فيها من العسر فهي ليست مستحيلة؛ فقد قامت بها الأجيال العديدة من الناس قبلكم فأحسنت مرة وأساءت مرة، ثم وصلت آخر الأمر إلى طريق الحياة الضيق المنير، بعد أن ساروا طويلًا بين صحراوين مظلمتين. فماذا تخشون. إن المهمة قصيرة ومصير الكل للفناء.

انتهى الكتب بحمد الله

معجم الأعلام

إبيقور Epicure- (٣٤١ -٢٧٠ ق. م): فيلسوف يوناني أسس مدرسة في أثينا وسط حديقة، وكان يعلِّم فيها الفلسفة، وكان يرى ألا خير إلا اللذة ولا شر إلا الألم، وأن الفضيلة إنما تُقصد لما فيها من اللذة، والرذيلة إنما تُجتنب لما فيها من الألم، ولم يقصر قوله على اللذات الجسمية كما فهم بعض الناس من مذهبه.

أجاكس Ajax: يطلق هذا الاسم على اثنين من أبطال حرب طروادة.

أجاممنون Agamemnon: في الأساطير اليونانية إنه كان ملكًا على مدينتي ميسين وأرجوس، وإنه كان قائد الأبطال الذين حاصروا مدينة طروادة.

أرسطو Aristote، أو أرسطوطاليس (٣٨٤ -٣٢٢ ق. م): أعظم فلاسفة اليونان الأقدمين، رحل إلى أثينا ولازم أفلاطون يأخذ عنه العلم حتى مات أفلاطون. وأسس بأثينا مذهبًا يُسمَّى أتباعه بالمشائين؛ لأنه كان يعلِّم وهو سائر في مماشٍ مظللة، ويلقب بالمعلم الأول لأنه أول من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه، وقد دعاه فيلبس لتعليم ابنه

الإسكندر المقدوني، فعلمه نحو ثلاث سنوات، وله كتب كثيرة في فروع العلم المختلفة.

أفلاطون Platon- (٤٢٩ -٣٤٧ ق. م): من أشهر فلاسفة اليونان، وهو تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو، وهو صاحب حوار: «كريتون وفيدون» و«فيدر وجورجياس» والوليمة وكتاب الجمهورية الشهير وفي كل منها يجعل أفلاطون سقراط يتكلم ويحاور.

آلان Alain: هو إميل شاريتيه الذي جاء ذكره في ترجمة المؤلف وهو أستاذه في الفلسفة. وُلد سنة ١٨٦٨ ينظر إلى مشاهد الحياة بعين ساخرة بعيدة الغور، وله مؤلفات كثيرة نشرها بعنوان أحاديث من ١٩٠٥ إلى ١٩٢٥: «أحاديث عن التربية» و«عن السعادة» وعن الدين المسيحي، ورسائل عن «العقل والشهوات»، و«الحكم على الحرب» و«المواطن والسلطات».

أوفيد Ovide- (٤٣ ق. م -١٦ ب. م): شاعر لاتيني صاحب كتاب «التحولات **Metamorphoses**» و«فن الحب»، امتاز شعره بالسهولة والظرف أكثر مما امتاز بالإلهام، كان صديقًا لفرجيل وهوارس، ونال حظوة عند الإمبراطور أغسطس، ونُفي سنة ٩ ميلادية لسبب خفي ومات في منفاه.

أوليس Ulysse: من أشهر شخصيات الأساطير اليونانية، وهو أحد أبطال حصار مدينة طروادة من ملاحم الإلياذة، امتاز بحذره ومكره، وهو أبو كليماك وزوج بينيلوب، وكانت عودته إلى وطنه موضوع الأوديسة.

باتمور (كوفنتري) **Coventry Patmore**- (١٨٢٣ -١٨٩٦): شاعر إنجليزي اتصل برسكن وبمصوري ذلك العصر، كما اتصل أيضًا بالشاعر تنيسون. تَغْلُب على شِعره النزعة الصوفية، ويؤخذ عليه في شعره أنه كثيرًا ما يهبط من الجليل إلى التافه، ولكن شِعره لا يخلو من جمال.

باريس (موريس) **Maurice Barrès**- (١٩٦٢ ١٩٢٣): محلل نفساني دقيق وكاتب عاطفي راق، انتقل من تقديس الذات إلى عبادة الأرض والموتى، وله عدا ذلك كتب قيمة في الوطنية، وكان عضوًا في الأكاديمية الفرنسية.

باستور Pasteur- (١٨٢٢ -١٨٩٥): عالم كيميائي فرنسي اشتهر بأبحاثه في التخمرات وفي أمراض دودة الحرير والأمراض المعدية بوجه عام، وعلى الأخص الوقاية من مرض الكلب وعلاجه، وكانت أبحاث باستور في التلوث بجراثيم الأمراض فاتحة عصر جديد في طرق الوقاية والعلاج.

بت (وليم) **William Pitt**- الصغير ابن وليم بت الكبير (١٧٥٩ -١٨٠٦): عدو الثورة الفرنسية اللدود، تحالف ثلاث مرات مع دول أوروبا ضد نابليون، ولكنه لم يستطع أن يمنع انتصاراته، ولم يتمكن من الحيلولة دون كساد التجارة البريطانية المؤقت.

بتلر (صمويل) **Samuel Butler**- (١٨٣٥ -١٩٠٢): كاتب إنجليزي.

برتييه Berthier- (١٧٥٣ -١٨١٥): مارشال فرنسا. رئيس أركان حرب نابليون وكان موضع ثقته، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يوقع في سنة ١٨١٤ على وثيقة الاعتراف بهزيمة نابليون. زعموا أنه انتحر، ولعله قُتل بمدينة بامبرج من أعمال بافاريا.

برجسون Bergson- (١٨٥٩- ١٩٤١): فيلسوف فرنسي تخصص بادئ الأمر في الرياضة والطبيعة، ولكن موهبته التحليلية مالت به إلى دراسة الفلسفة، وضع كتاب «الزمن والإرادة الحرة» وكتاب «المادة والذاكرة» وكتاب «التطور المبدع»، وأصبح أشهر رجال الفلسفة في العالم في عصره.

برسيفال Parsifal: دراما موسيقية ذات ثلاثة فصول لڤاجنر، وهي آخر مؤلفاته ومن أبدعها.

برنانوس (جورج) **Georges Bernanos**: كاتب فرنسي وُلد سنة ١٨٨٨، ملكي من أشهر أعضاء حزب «الأكسيون فرانسيز» ومحرري جريدته، صديق ليون دوديه، انضم إلى فريق الفاشيست الفرنسيين سنة ١٩٣٦، ولكنه بعد أن تتبع الحرب الأهلية الإسبانية انقلب معارضًا لرجال الدين، غير أنه بقي مخلصًا للكثلكة، كتب قصصًا ومقالات سياسية ورسائل أخلاقية، وهو خصم عنيف، بليغ وأشهر كتبه «يوميات قسيس في الأرياف» -التي أشار إليها المؤلف- نال بها جائزة الأكاديمية الفرنسية.

بروتس Brutus- (٨٦ ق. م -٤٢ ق. م): من مشاهير الرومان،

نقم على يوليوس قيصر فاشترك في قتله، بالرغم من أنهم زعموا أنه ابنه، تعقبه أنطونيوس وأكتافيوس حتى هزموه هو وشيعته، فانتحر بأن ألقى بنفسه على سيف مدّه له أحد أعوانه.

بروست Marcel Proust- (١٨٧١ -١٩٢٢): قصصي فرنسي سيكولوجي طريف، أشهر كتبه: «البحث عن الوقت الضائع».

بسكال Blaise Pascal- (١٦٢٣ - ١٦٦٢): عالم رياضي طبيعي وفيلسوف وكاتب فرنسي من كتاب الطبقة الأولى، كتب وهو في الثامنة عشرة رسالة في القطاعات المخروطية، ثم اخترع آلة حاسبة، وإلى أبحاثه يرجع الفضل في كشف قوانين ثقل الهواء وتوازن السوائل وحساب الاحتمالات والمكبس الهيدروليكي، وفي أواخر حياته القصيرة عكف على الزهد والتقشف، وشرع في وضع كتاب في تمجيد الدين المسيحي لم يتمه ونشرت منه مقطوعات بعنوان «أفكار باسكال».

بلزاك Honoré de Balzac- (١٧٩٩ -١٨٥٠): قصصي فرنسي خصب، ترك مجموعة من القصص بعنوان الكوميديا الإنسانية وصف فيها أنواعًا متعددة من الناس رجالًا ونساء، وحلل أخلاقهم وطبائعهم.

بلوم Léon Blum: سياسي فرنسي وُلد سنة ١٨٧٢، جره اهتمامه بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية إلى الاشتغال بالسياسة، فكان أحد أعضاء كتلة اليسار وزعيمًا للحزب الاشتراكي. رأس الوزارة من

١٩٣٦ إلى ١٩٣٧ ثم في ١٩٣٨ مرة أخرى، له مؤلفات كثيرة في الاجتماع والنقد الأدبي ومن أشهرها كتابه «في الزواج».

بوانكاريه Raymond Poincaré- (١٨٦٠ -١٩٣٤): محام وسياسي فرنسي تولى رئاسة الجمهورية من ١٩١٣ إلى ١٩٢٠ ورئاسة مجلس الوزراء سنة ١٩١٢ ثم من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤ ثم من ١٩٢٦ -١٩٢٩، وهو ابن عم هنري بوانكاريه العالم الرياضي الشهير.

بودلير Charles Baudelaire- (١٨٢١ -١٨٦٧): شاعر فرنسي صاحب ديوان «أزهار الشر»، يعد بالرغم من حساسيته المريضة في مقدمة الشعراء الملهمين بروعة الصور وقوة الأداء والتعبير الموسيقي.

بوشيه Pouchet- (١٨٠٠ -١٨٧٢): من علماء التاريخ الطبيعي الفرنسيين ومن معارضي باستور.

بولانجيه (جورج) Boulanger- (١٨٣٧ -١٨٩١): قائد فرنسي تولى وزارة الحرب سنة ١٨٨٦، كان زعيمًا لفريق الناسيونالست، ودبر مؤامرة لقلب الحكم فلم تنجح فانتحر.

بولدوين Baldwin: وُلد سنة ١٨٦٧ وهو محافظ، اشتهر بصفاء الذهن وقوة العزيمة في التنفيذ والنزاهة.

بوليب Polybe: مؤرخ يوناني وُلد بين سنتي ٢١٠، ٢٠٥ ق.م وتوفي حوالي سنة ١٢٥ ق.م، أُخذ رهينة وأُرسل إلى روما سنة ١٦٨ ق.م وبقي بها ١٦ سنة. ألف تاريخًا عامًّا لزمنه لم يبق منه سوى خمسة أجزاء كاملة، وامتاز هذا التاريخ بعمق البحث وشمول

الحوادث مع الإيجاز.

بونار Abel Bonnard: كاتب فرنسي وُلد سنة ١٨٨٣، عضو الأكاديمية الفرنسية. أديب أخلاقي وشاعر.

بيتان Pétain: مارشال فرنسا، وُلد سنة ١٨٥٦، كان في سنة ١٩١٧ قائدًا عامًّا لجيشي الشمال والشمال الشرقي وتولى وزارة الحرب (١٩٣٤) ورئاسة الدولة الفرنسية من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤، وحوكم بتهمة التعاون مع الألمان وحكم عليه سنة ١٩٤٥ بالإعدام، ثم خفف الحكم إلى السجن المؤبد لكبر سنه.

بيتهوفن Beethoven- (١٧٧٠ -١٨٢٧): مؤلف موسيقي ألماني شهير امتازت ألحانه التي لا تُبارى بعمق الشعور وقوة الأداء، قضى معظم سني حياته في ضنك وأصيب بالصمم في أواخر أيامه.

بيجوي Péguy-(١٨٧٣ -١٩١٤): أديب فرنسي، تولى رئاسة تحرير نشرة «الكراسات نصف الشهرية (**Cahiers de la quinzaine**، من سنة ١٩٠٠)، جُمعت أعماله في ١٥ مجلدًا من الشعر والنثر، وقضى نحبه في الحرب العالمية الأولى.

بيرون (لورد) **Byron**- (١٧٨٨ -١٨٢٤): شاعر إنجليزي شهير جاء شعره عارمًا عنيفًا يكشف عن مزاجه وحياته التعسة، وامتاز بسخرية لاذعة لا مثيل لها. هجر وطنه وتطوع في حرب استقلال اليونان ومات بمدينة موسولونجي.

بيفون Buffon- (١٧٠٧ -١٧٨٨): عالم فرنسي في التاريخ

الطبيعي واسع الأفق خصب الإنتاج، له كتاب قيم في التاريخ الطبيعي، وهو في الوقت نفسه كاتب نبيل جليل القدر كان عضوًا بالأكاديمية.

بيكون (فرنسيس) **Francis Bacon**- (١٥٦١ -١٦٢٦): فيلسوف إنجليزي لم يقنع بفلسفة أرسطو ولم يرضَ عن فلسفة القرون الوسطى، فوجّه همته نحو المسائل العملية؛ فهو مؤسس الفلسفة التجريبية. عينته الملكة إليصابات وكيلًا للدعاوى في ديوانها سنة ١٥٨٨ ثم مدعيًّا عموميًّا ثم جُعل لوردًا. وفي سنة ١٦٢١ اتُّهم بالرشوة وحكم عليه بغرامة وبالعزل والحبس، ثم عفى عنه الملك.

تاسيت -Tacite (٥٥ ق. م- ١٢٠ ب. م بالتقريب): مؤرخ لاتيني متشائم عنيف، ولكنه متعمق شيق العبارة مبتكر الإنشاء.

طروادة Troie: من مدن آسيا الصغرى اشتهرت بالصمود لحصار اليونان عشر سنوات، وخلد هوميروس ذكرها في الإلياذة.

تشمبرلين Neville Chamberlain- (١٨٦٩ -١٩٤٠): تولى رئاسة الوزارة الإنجليزية سنة ١٩٣٧، وهو ابن جوزيف تشمبرلين السياسي الإنجليزي، ومن أقطاب الإمبرياليزم أي المذهب الاستعماري. حاول أن يترضى ألمانيا ليحول دون وقوع الحرب العالمية الثانية فلم يوفق.

تولستوي Léon. Comte Tolstoï- (١٨٢٨ -١٩١٠): قصصي روسي شهير، أبدع في تصوير الحياة الروسية وأخلاق الروس وعاداتهم، يتجه في الناحية الدينية والأخلاقية إلى التقرب من المسيحية الأولى.

أشهر قصصه: «الحرب والسلم» و«أنا كارينينا» و«البعث».

تيريز (القديسة) **Sainte Therèse**– (١٥١٥ –١٥٨٢): مُصلِحة كرملية وُلدت في إسبانيا، واشتهرت برؤاها وتصوفها وتعد كتاباتها من روائع اللغة القشتلانية.

جار (مارتان ده) **Martin du Gard**: كاتب فرنسي شهير وُلد سنة ١٨٨١، أولع بالأبحاث التاريخية ومن أشهر كتبه قصة «حياة أسرة تيبو» في ستة مجلدات صور فيها تطور الأوضاع الاجتماعية وتمزق نسيج الأوضاع القديمة، وقد رفعته هذه القصة هي وثلاث درامات إلى أعلى مراتب النبوغ، ومُنح جائزة نوبل في الأدب. حواره يجمع بين السيولة والدقة. صور الحياة العصرية أكمل تصوير وأبرز أعنف فصولها. اسمه الأصلي جان باروا.

جالييني Gallieni– (١٨٤٩ –١٩١٦): قائد وحاكم فرنسي ظهرت كفاءته في السودان الفرنسي وفي السنغال وفي التونكين، ثم عين حاكمًا عامًّا لجزيرة مدغشقر فنظم حكومتها، وفي سنة ١٩١٤ عين حاكمًا عسكريًّا لمدينة باريس، فساهم في انتصار فرنسا في معركة المارن ثم تولى وزارة الحرب من ١٩١٥ –١٩١٦ ومُنح لقب مارشال بعد وفاته اعترافًا بفضله.

جراندیه Grandet– الأب جراندیه: هو من أبرز أشخاص قصة أوجيني جراندیه لبلزاك، مثال البخل، أما ابنته أوجيني فتمثل المحبة البنوية في أروع مظاهرها.

جلادستون Gladstone- (١٨٠٩ -١٨٩٨): سياسي إنجليزي، زعيم حزب الأحرار، تولى رئاسة الوزارة أربع مرات.

جمبتا Gambetta- (١٨٣٨ -١٨٨٢): محام وسياسي فرنسي تميز بمقدرته الخطابية. انتُخب نائبًا عن مدينة باريس سنة ١٨٦٩، ثم عضوًا في حكومة الدفاع الوطني في حرب السبعين، حيث اشتهر بتنظيم المقاومة في الأقاليم، وبعد انتهاء الحرب السبعينية جعلته فصاحته وحميته الوطنية أقوى رجل الحزب الجمهوري نفوذًا، فتولى رئاسة مجلس النواب سنة ١٨٧٩، ثم رئاسة الوزارة الفرنسية سنة ١٨٨١.

جوبيتير Jupiter: رب الأرباب في الميثولوجيا المدرسية (الكلاسيك) يقابل زوس في الميثولوجيا اليونانية.

جوردان (مسيو) **Monsieur Jourdain**: بطل الميزانتروب إحدى كوميديات موليير، يمثل أحد رجال الطبقة المتوسطة الذي يريد التشبه بالأشراف، فيسرع في تعلم الأدب والرقص والموسيقى وكل ما هو من مستلزمات حياة النبلاء.

جوفر Joffre- (١٨٥٢ -١٩٣١): مارشال فرنسا، ظهرت مواهبه في التونكين وفي السودان الفرنسي وفي مدغشقر، كان قائدًا عامًّا للجيوش الفرنسية من ١٩١٤ إلى ١٩١٦، وكسب معركة المارن الأولى في سبتمبر ١٩١٤.

جوفنسي Jouvence: حورية من حوريات الأساطير القديمة، حولها الإله جوبيتير إلى غدير ووهب ماءه خاصة لإعادة الشباب إلى

كل من اغتسل فيه.

جيته Goethe- (١٧٤٩ -١٨٣٢): أشهر كتاب ألمانيا، مؤلف روايات: «فاوست»، «فرتر»، و«هرمان ودوروتيه»، «افيجيني»، وبعض درامات وقصائد كثيرة من الشعر الغنائي، نال إعجاب وصداقة أمبرفيمار وصار مستشاره ثم وزيرًا لخارجيته. يمتاز أسلوبه بالصفاء والأناقة وينم عن خيال رحب وتفكير عميق. وكان مع هذا من أعظم العلماء قدرًا.

دزرائيلي Disraeli- (١٨٠٤ -١٨٨١): هو اللورد بيكونسفيلد تبن إسحاق دزرائيلي الكاتب الإنجليزي اليهودي. قصصي وسياسي إنجليزي، تزعم مذهب حماية التجارة، وتولى رئاسة الوزارة الإنجليزية سنة ١٨٦٨، وكان رئيسًا لحزب المحافظين يتناوب رئاسة الوزارة مع جلادستون زعيم حزب الأحرار.

دلادييه Daladier: سياسي فرنسي وُلد سنة ١٨٨٤، وتولى وزارة المستعمرات سنة ١٩٢٤، ثم تولى رئاسة الوزارة ثلاث مرات: ١٩٣٢ ثم ١٩٣٤ ثم من ١٩٣٨ إلى ١٩٤٠.

دناييه Danaé: في الأساطير اليونانية أنها ابنة ملك أرجوس وأم برسيه من جوبيتر الذي دخل عليها البرج النحاسي، حيث سجنها أبوها وذلك بأن سَحَرَ جوبيتر نفسه مطرًا من الذهب.

دومينيك Dominique: قصة فرنسية لأوجين فرومانتان وهي من بدائع التحليل السيكولوجي الرفيع.

دون جوان Don Juan: شخص خرافي من أصل إسباني يمثل رجل البلاط الزنديق الفاجر الذي لا هم له إلا إغراء النساء.

دوهاميل Georges Duhamel: شاعر وقصصي ومؤلف مسرحي فرنسي، وُلد سنة ١٨٨٤، عضو الأكاديمية الفرنسية، تخرج طبيبًا ثم مال بكليته إلى الأدب فصار من ألمع رجال فرنسا.

ديجول charles de Gaulle: قائد فرنسي وُلد سنة ١٨٩٠- رئيس الحكومة الفرنسية المؤقتة سنة ١٩٤٤.

ديكارت Descartes- (١٥٩٦ -١٦٥٠): فيلسوف ورياضي فرنسي يعد مؤسس الفلسفة الحديثة. لم يرضَ عن فلسفة أرسطو التي كانت شائعة في عصره. كان يؤمن بالله وبخلود الروح، وقد أثارت تعاليمه رجال الدين فحاربوه، وله استكشافات قيمة في الطبيعة والرياضة.

ديكاز Décazes- (١٧٨٠ -١٨٦٠): سياسي فرنسي، تولى رياسة الوزارة في عهد لويس الثامن عشر، وامتاز حكمه بالسير على المبادئ الحرة.

راسين Jean racine- (١٦٣٩ -١٦٩٩): شاعر تراجيدي فرنسي، كان معاصرًا وصديقًا لبوالو ولافونتين وموليير، خالف كورنيي في طريقته؛ فبينما كان كورنيي ينشد المواقف المعقدة التي تضطرب فيها شخصيات لها صفات فوق صفات البشر، كان راسين يميل إلى الحادث البسيط الواضح تحركه شهوات يبدع راسين في

وصفها وصفًا يطابق الواقع.

رتز (كروينال) **Cardinal de Retz**- (١٦١٣ -١٦٧٩): سياسي وكاتب فرنسي، قام بدور هام في الحرب الأهلية التي نشبت في فرنسا بين أنصار لويس الرابع عشر (وكان لا يزال قاصرًا) وبين البرلمان. سُجن في الباستيل ولكنه فر من سجنه ثم تصالح مع الملك. صاحب مغامرات ودسائس، ترك سيرة «مؤامرة فيسك» كما ترك مذكرات شخصية قيمة.

رسل Bertrand Russel: رياضي بارع وفيلسوف إنساني اشتراكي معاصر سليل أسرة «رسل» وهي من أعرق الأسر في إنجلترا. أبى إلا أن يكسب قوته بعمله لأنه ينكر نظام الوراثة، كان أستاذًا بجامعة كامبريدج، ولكن الجامعة تبينت فيه ثورة نفسية على ميول أمته؛ فهو يحب السلام وأمته تتسلح لتغامر في الحروب ففصلته عن عمله، فأخذ يجوب الأقطار متخذًا من العالم جامعة يلقي فيها تعاليمه وآراءه.

روزفلت Franklin Roosvelt- (١٨٨٢ -١٩٤٥): انتُخب رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٣٣، وأعيد انتخابه سنة ٣٦، ثم سنة ٤٠، ثم سنة ٤٤.

روكروا Rocroi: عاصمة مقاطعة الأردن بفرنسا، اشتهرت بموقعة حربية هزم فيها كونديه الفرسان الإسبان سنة ١٦٤٣.

رومان Jules Romains: شاعر فرنسي معاصر وُلد سنة ١٨٨٥،

وله غير شعره قصص ومسرحيات، وأروع تحفه الفنية هي مسرحياته. زار أكثر بلاد العالم وقابل أعلام المعاصرين، فوصف ما رآه وما سمعه في ١٦ مجلدًا تعد ملحمة متصلة لحياة مشاهير القرن العشرين في العالم.

ريشليو (كروينال) Cardinal de Richelieu- (١٥٨٥ -١٦٤٢): وزير لويس الثالث عشر ومن أعظم رجال الدولة الذين أنجبتهم فرنسا. وطد سلطة العرش المطلقة، وامتاز حكمه بإصلاحات شاملة في المالية والجيش والتشريع وكان محبًّا ونصيرًا للآداب فأسس الأكاديمية الفرنسية.

ريكامييه (مدام) Mme Récamier- (١٧٧٧ -١٨٤٩): من سيدات فرنسا الأديبات اشتهرت بذكائها وجمالها وصالونها الذي جمعت فيه في عهد إعادة الملكية ألمع رجالات فرنسا، وكانت صديقة وفية لشاتو بريان.

رينال (مدام) Mme Renal: بطلة قصة «الأحمر والأسود» لستندال (اطلبه في حرف السين).

رينان Ernest Renan- (١٨٢٣ -١٨٩٢): كاتب فرنسي وفيلسوف ذو مهارة عجيبة، غير أنه جريء في افتراضاته، يعتنق مذهب المثالية العلمية، تربى تربية دينية ودرس الفلسفة واللاهوت وتاريخ الأديان واللغات القديمة، وعدل بعد بحثه العلمي عن الانخراط في سلك رجال الدين، وألف كتاب «مستقبل العلم» وكتاب «ابن رشد ومبادؤه»، وأشهر كتبه تاريخ الديانة المسيحية ومنه قسم في تاريخ

المسيح تُرجم إلى اللغة العربية. وكان يرى أن المسيح إنسان راق لا إله، فقام عليه رجال الدين وحرموه من الكنيسة ولعنوا من يقرأ كتبه.

سالسبري Salisbury- (١٨٣٠ -١٩٠٣): دبلوماسي وسياسي إنجليزي بقي رئيسًا لحزب المحافظين زمنًا طويلًا.

سان سيمون Saint –Simon- (١٧٦٠ -١٨٢٥): فيلسوف فرنسي، إمام مذهب سياسي اشتراكي سُمِّي أتباعه السانسيمونيين، وهم يدعون إلى توزيع أكثر عدالة للثروة بين أفراد الشعب بحسب حاجاتهم وكفاياتهم.

سترافنسكي Strawinsky: موسيقي روسي وُلد سنة ١٨٨٢، وضع عدة أوبرات وتأثر بفنه كثيرون من معاصريه.

ستندال Stendhal- (١٧٨٣ -١٨٤٢): قصصي فرنسي، سيكولوجي نير له روح روائية متوثبة، صاحب قصة «دير بارم»، وقد تُرجمت أخيرًا إلى العربية، وقصة «الأحمر والأسود».

سيليمين Célimène: مثال الشابة الحسناء المتدللة المغتابة في كوميديا الميزانتروب لموليير.

سانت بوف Sainte Beuve- (١٨٠٤ -١٨٦٩): ناقد أدبي فرنسي شهير، بدأ بقرض الشعر، ثم وضع قصة سماها «لذة»، ثم عكف على النقد الأدبي، وله فيه مجموعة ممتعة عنوانها «أحاديث يوم الإثنين».

سوريل Julien Sorel: بطل قصة «الأحمر والأسود» لستندال وعشيق مدام رينال.

سوفوكل Sophocle- (٤٩٥ -٤٠٦ ق. م): شاعر وروائي من أشهر الروائيين اليونانيين. كتب أكثر من مائة كتاب أكثرها روايات تمثيلية من نوع التراجيدي.

سوينبورن Swinburne- (١٧٣٧ -١٩٠٩): شاعر إنجليزي شهير.

شاتو بريان Chateau Briand -(١٧٦٨ -١٨٤٨): فيكونت ده -كاتب فرنسي عظيم القدر يمتاز إنشاؤه بالإشراق والخيال الحافل والحساسية والبلاغة وقوة الوصف. كان لكتاباته أثر عظيم في ازدهار الأدب الرومانتيكي. ساح في أمريكا ثم عاد إلى وطنه في إبان الثورة الفرنسية، ثم اضطر إلى الهجرة ثم عاد مرة أخرى إلى وطنه، وعندما أُعيدت الملكية عُين سفيرًا في لندن ثم وزيرًا لخارجية فرنسا (١٨٢٢ -١٨٢٤).

شوبان Chopin- (١٨١٠ -١٨٤٩): موسيقي بولوني من أصل فرنسي. لألحانه طابع رومانتيكي عميق التأثير يغلب عليه النغم الحزين.

شيشرون Cicéron: أخطب خطباء الرومان، وُلد سنة ١٠٦ ق.م. ليس له نظير في الخطابة القضائية ولكنه دون ديموستين في الخطابة السياسية، ترك رسائل شرح فيها فنه الخطابي، كما ترك رسائل أخرى فلسفية وأسلوبه مثال للكتابة الكلاسيكية.

فابيوس Fabius: قنصل روماني كان حاكمًا بأمره مرتين. ندبه

مجلس السناتو لقيادة الجيوش لصد هجمات أنيبال، فهزمه في عدة مواقع بين سنتي ٢١٧، ٢٠٣ ق. م بصبره ومُصابرته فلُقِّب بالصبور.

فاليري (پول) **Paul Valéry**- شاعر فرنسي، وُلِدَ سنة ١٨٧١. عضو الأكاديمية الفرنسية.

فاليريان Mont Valerien: أعلى الآكام المحيطة بمدينة باريس، ارتفاعه ١٣٦ مترًا. محصن.

فاوست **Faust**: دراما ألمانية شهيرة لجيته اقتُبست منها أوبرات كثيرة في عدة لغات.

فايول Fayolle- (١٨٥٢ -١٩٢٨): مارشال فرنسي كان قائدًا للجيش السادس على نهر السوم سنة ١٩١٦، ثم قائدًا لجيش إيطاليا سنة ١٩١٧، ثم لمجموعة الجيوش التي زحزحت العدو إلى نهر الراين سنة ١٩١٨.

فاجنر Wagner- (١٨١٣ -١٨٨٣): مؤلف موسيقي ألماني عبقري، كتب بنفسه قصائده التي لحنها، وكان يستمد موضوعاتها في أغلب الأحيان من الأساطير الشعبية الجرمانية.

فرنك Franck- (١٨٢٢ -١٨٩٠): مؤلف موسيقي فرنسي مجدد في الفن الفرنسي.

فرونسكي Wronsky: بطل قصة أنا كارينينا لتولستوي، ضابط في الحرس الروسي وعشيق أنا كارينينا البطلة.

فليل Villèle- (١٧٧٣ -١٨٥٤): كونت. سياسي فرنسي تولى

رئاسة وزارة فرنسا في عهد إعادة الملكية من ١٨٢١ إلى ١٨٢٨، رئيس الحزب الملكي المتطرف، لم يرضَ عنه الشعب لإصداره بعض قوانينه تعسفية.

فوريه Fauré- (١٨٤٥ -١٩٢٤): موسيقي فرنسي له ألحان رقيقة نفاذة ساحرة.

فوش Foch- (١٨٥١ -١٩٢٩): مارشال فرنسا كان في الحرب العالمية الأولى قائدًا للجيش التاسع فقائدًا لمجموعة جيوش الشمال، وفي سنة ١٩١٨ تولى القيادة العامة لجيوش الحلفاء في فرنسا حتى النصر.

فولتير Voltaire- (١٦٩٤ -١٧٧٨): كاتب وفيلسوف وشاعر فرنسي، امتاز بالجرأة وحب الاستطلاع والمرونة. زار إنجلترا وبروسيا حيث بقي ضيفًا معززًا في بلاط فردريك الثاني، وقضى أمجد سني حياته في فرني بالقرب من جنيف. تناول معظم فروع الأدب: التراجيدي والتاريخ والقصة والنقد والملحمة والشعر الغنائي والترسل. كان له تأثير أدبي واجتماعي ضخم لشدته خصوصًا ضد تعصب رجال الدين ولدفاعه عن الحرية الشخصية وإيمانه بالتقدم. لم يَفُقْه كاتب آخر في تمثيل الذكاء الفرنسي وفي صفاء أسلوبه ورشاقته وميوله الإنسانية وسخريته العميقة اللاذعة.

فيجارو Le Figaro: جريدة فرنسية هجائية أسست سنة ١٨٥٤، ثم أصبحت منذ ١٨٦٦ سياسية يومية أدبية.

فرجيل Virgile– (٧١ –١٩ ق. م): أشهر شعراء الرومان، يتخير موضوعاته من كل ما هو رقيق ونبيل، ويمتاز بذكائه وحبه للطبيعة وكمال إنشائه وانسجام ألفاظه.

فيني Alfred de Vigny– (١٧٩٧ –١٨٦٣): شاعر وقصصي وروائي فرنسي، بدأ حياته ضابطًا في الجيش على عادة أولاد النبلاء، لم يترك مؤلفات كثيرة ولكنها كلها أمثلة للسمو الأخلاقي النادر. أشهر مؤلفاته «عبودية العسكرية وعظمتها» و«سان مار» عدا شعره ودراماته.

كانط (عمانويل) **Emmanuel Kant**– (١٧٢٤ –١٨٠٤): من أشهر فلاسفة الألمان ومؤسس فلسفة النقد، وكان أستاذًا للفلسفة في جامعة كونجزبرج، وكان يعيش عيشة غاية في دقة النظام حتى إن أهل قريته كانوا يضبطون ساعاتهم على وقت خروجه من بيته.

كايافيه (مدام ده) **Mme de Caillavet**: صديقة أناتول فرنسي، وقد أثرت في اتجاه ميوله الأدبية.

كايو (جوزيف) **Joseph Caillaux**: سياسي فرنسي شهير، وُلد سنة ١٨٦٣، تولى وزارة المالية في وزارة والدك روسو، ثم في وزارة كليمنصو، وعلى إثر حادثة أغا دبر ١٩١١، وضع أسس اتفاقية مع ألمانيا رفضها مجلس الشيوخ فاستقال وعاد للحكم ١٩١٣ في وزارة دومرج، ولما وقع حادث قتل مدام كايو للصحفي كالميت؛ لحملاته العنيفة على زوجها، اضطر كايو إلى الاستقالة سنة ١٩١٤، ولما كان

معروفًا بميله للاتفاق مع ألمانيا، فقد قُبض عليه سنة ١٩١٧ وحكم عليه بالسجن سنوات ومصادرة أملاكه، ولما صدر الأمر بالعفو عن الجرائم السياسية ١٩٢٤، رُدّ إليه اعتباره وكُلف بالسفر إلى واشنطن لتسوية ديون فرنسا، ثم اعتزل السياسة سنة ١٩٢٥.

كبلنج Rudyard Kipling- (١٨٦٥ -١٩٣٦): شاعر وقصصي إنجليزي، صاحب «كتاب الأدغال» وغيره، وهو لسان حال صادق للإمبرياليزم الإنجليزي السكسوني.

كرومول Oliver Cromwell- (١٥٩٩ -١٦٥٨): حامي جمهورية إنجلترا، عضو البرلمان الإنجليزي، دبر الثورة ضد الملكية وهزم جيش الملك، وألف مجلس العدل الذي حكم على شارل الأول بالإعدام. أخضع إيرلندا وإيقوسية وحل البرلمان وحكم المملكة حكمًا ديكتاتوريًّا.

كلود برنار Claude Bernard- (١٨١٣ -١٨٧٨): عالم فسيولوجي فرنسي. أثبت علاقة البنكرياس بهضم المواد النشوية وعلاقة الكبد بهضم المواد الدسمة، كما أثبت وجود مجموع عصبي مستقل غير المجموعة العصبية المخية الشوكية، ويعد كتابه المدخل إلى دراسة الطب تحفة علمية.

كلوديل Paul Claudel: دبلوماسي وأديب فرنسي، وُلد سنة ١٨٦٨، صاحب قصة «الرهيبة» وقصة «الإخطار الموجه إلى مريم» وغيرها.

كلوفيس Clovis: رابع الأمراء الميروفنجيين الذين حكموا بلاد الغول (فرنسا القديمة) في القرن الخامس الميلادي بعد الاحتلال الروماني، هزم الرومانيين في سواسون، كما هزم بعدهم الألمان والبرجنديين في وقائع أخرى، وأسس مملكة الفرنجة وحكم بلاد الغال بأجمعها، ودافع عن الكثلكة، وعمد في مدينة رنس، وبعد موته عادت المملكة فقسمت بين أبنائه كما كانت عادة سكان الغول.

كليمنصو (جورج) Georges Clemenceau- (١٨٤١ -١٩٢٩): سياسي فرنسي تولى رئاسة الوزارة مع وزارة الحرب سنة ١٩١٧، فأعد جيوش النصر للحلفاء، فاضطرت ألمانيا إلى التسليم سنة ١٩١٨، وتولى المفاوضة عن فرنسا حتى تم وضع معاهدة فرساي.

كورنيي (پيير) Pierre Corneille- (١٦٠٦ -١٦٨٤): أبو التراجيديا الفرنسية. كان والده قد أعده للمحاماة ولكنه انصرف عنها ومال إلى التأليف للمسرح، ونال تعضيد رشليو في أول الأمر، ثم صار خالق الفن الدراماتيكي في فرنسا؛ إذ ابتدع التمثيل التحليلي السيكولوجي، فأشخاص رواياته أبطال إنسانيون تحركهم أسمى العواطف، فيتغلبون بقوة إرادتهم على شهواتهم التي تدفع غيرهم إلى الشر. يمتاز شعره بالقوة وفي كثير من المواضع بالسمو.

كوفييه Cuvier- (١٧٦٩ -١٨٣٢): عالم فرنسي في التاريخ الطبيعي واضع أسس علم التشريخ المقارن وعلم الحفريات الجيولوجية.

كونديه (الأمير) **Prince de Condé**- (١٦٢١ -١٦٨٦) -الملقب بكونديه الكبير. اشتهر وهو شاب بانتصاراته في موقعة روكروا. وفريبورج وغيرهما، ثم اشترك في حرب الفروند في جانب النبلاء ضد الملك، ولكنه أعيد بعد حين إلى مرتبته من القيادة، فكتب له الفخر في انتصارات جيوش فرنسا في حرب الفلاندر وهولندا.

كونراد (جوزيف) **Joseph Conrad**- (١٨٥٧ -١٩٢٤): قصصي إنجليزي من أصل بولندي، قضى شطرًا من حياته بحارًا ولم يكن يعرف اللغة الإنجليزية إلى سن العشرين تقريبًا، ثم أصبح باجتهاده من مشاهير كتابها. أَلَّف قصصًا كثيرة منها طائفة عن سياحاته في البحار.

كونستان (بنچامان) **Benjamin Constant** (١٧٦٧-١٨٣٠): سياسي وأديب فرنسي، كانت له مكانة عظيمة في حزب الأحرار في عهد إعادة الملكية، ذو مواهب سامية وذكاء متوقد يشوبه كثير من التشكك. أشهر مؤلفاته قصة تحليلية تُسمَّى «أدولف».

لا برويير **La Bruyère**- (١٦٤٥ -١٦٩٦): كاتب أخلاقي فرنسي، قضى حياته مع حفيد كونديه الكبير مؤدبًا ثم سكرتيرًا له. ترجم أوصاف طباع الناس لتيوفراست اليوناني، وأضاف إليها تصوير طباع أهل عصره، في أسلوب حي يتألف من جمل قصيرة حاسمة، وانتُخب عضو بالأكاديمية الفرنسية.

لا توربي **Las Turbie**: مشتى في مقاطعة نيس بفرنسا.

لاربو (ڤاليري) **Valery Larbaud**: شاعر وقصصي فرنسي معاصر، وُلد سنة ١٨٨١. كتبه سلسلة متصلة مستورة لتاريخ حياته ووصف رحلاته الطويلة.

لا روشفوكو La Rochefoucauld –(دوق ده) [١٦١٣ –١٦٨٠]: أشهر أعضاء أسرة لاروشفوكو العريقة. لعب دورًا هامًّا في الحرب الأهلية بين النبلاء والعرش المسماه بحرب «الفروند»، واشترك في القتال الذي دار في ضاحية سانت أنطوان، فأصابه عيار ناري أفقده البصر مدة، فقضى بقية حياته في البلاط وكتب «مواعظه» في تلك الحقبة.

ليبنتز Leibnitz– (١٦٤٦ –١٧١٦): فيلسوف ألماني درس الفلسفة والرياضيات والقانون، ثم اشتغل بالأمور السياسية، واخترع الآلة العادّة، وله مذهب في الفلسفة وفي تكوين العالم، وكان له الفضل على العلماء الذين أتوا بعده بطريقته العلمية وبتوجيه النظر إلى علم النفس.

لينين Lenine– (١٨٧٠ –١٩٢٤): اسمه الأصلي فلاديمير أوليانوف. رئيس مجلس قوميسيري الشعب للاتحاد السوفيتي الروسي. أسقط حكومة كيرنسكي المؤقتة، وأقام بمعاونة تروتسكي النظام البلشفي في روسيا.

ليوتي Lyautey– (١٨٥٤ –١٩٣٤): مارشال فرنسا. اشتهر في الهند الصينية ومدغشقر والجزائر، ونظم حكم الحماية الفرنسية في

مراكش من سنة ١٩١٢، وحافظ فيها على سلطة فرنسا في الحرب العالمية الأولى، وتولى وزارة الحرب من ١٩١٦ إلى ١٩١٧.

مارت (القديسة) **Sainte Marthe**: أخت السيدة مريم العذراء أم المسيح عليه السلام.

ماريفو Marivaux- (١٦٨٨ -١٧٦٣): مؤلف مسرحي فرنسي شهير، كتب مسرحيات كثيرة مؤسسة على أبحاث نفسية صحيحة، قلمه رشيق ولغته سهلة يتكلف الأناقة فيها أحيانًا.

مالارميه Mallarmé- (١٨٤٢ -١٨٩٨): شاعر فرنسي شهير أحد طلائع المذهب الرمزي الذين منهم بودلير وفرلين.

موريس (وليم) **Willeam Morris**- (١٨٣٨ -١٨٩٦): شاعر ومصور وكاتب إنجليزي اشترك بنصيب كبير في نهضة الفن الزخرفي.

موزارت Mozart- (١٧٥٦ -١٧٩١): مؤلف موسيقي نمساوي شهير، ترك من روائع فنه «عرش فيجارو» و«دون جوان» عدا ألحانه الدينية وترنيماته البيتية. براه السل فمات في الخامسة والثلاثين بمدينة فينا.

موسيه (ألفريد ده) **Alfred de Musset**- (١٨١٠ -١٨٥٧): شاعر فرنسي شهير تكشف أشعاره عن نفس روحانية ساخرة شهوانية حزينة. يصف في كتابه «اعترافات أحد أبناء العصر» لون الشر الذي تألم منه أبناء جيله. كوميدياته وأمثاله تواليف مسرحية غاية في الرقة كثيرة البدوات مليئة بالسحر.

موليير Molière- (١٦٢٢ -١٦٧٣): إمام الكوميديا الفرنسية، كان مؤلفًا وممثلًا ومديرًا لفرقته في وقت واحد. خاض الفن الكوميدي من أدناه إلى أقصاه، من التهريج والدعابة إلى أسمى درجات الكوميديا. لا يُبارى في إبراز الشخصيات والابتكار والانسجام المسرحي وتوقد الخيال وسلامة الذوق والبعد عن التكلف، ابتدع شخصيات خالدة وأغنى لغة قومه بما وضعه من الألفاظ والمصلطحات والأبيات التي جرت مجرى الأمثال. نهض برسالته فذلل ما اعترضه من العوائق وانتصر على أعدائه بتعضيد لويس الرابع عشر.

مونترلان (Henre Comte de) Montherlant: شاعر وقصصي ومؤرخ، وُلد سنة ١٨٩٣، تأثر بشاتو بريان وموريس باريس، يدين بالسلطة التقليدية والمذهب الكلاسيكي والناسيوناليزم، وعندما قويت جبهة الأمة ارتد ضد طبقته. يعد مؤرخ طبقة النبلاء الفرنسيين ومعارضًا للاستعمار الفرنسي.

مونتيني -Montaigne (١٥٣٣ -١٥٩٢): أخلاقي فرنسي من النبلاء، اشتهر بمقالاته (Essais) التي وصف فيها نفسه ووصف الإنسانية معه، وهو إبيقوري تغذى بالحكمة القديمة، وكان متسامحًا يحض على التربية الحرة.

ميريديث Mérédith- (١٨٢٨ -١٩-٩): شاعر وقصصي إنجليزي، كان سيكولوجيًّا متعمقًا وأشهر قصصه: «الأناني».

نستور Nestor: أسن الأمراء الذين شهدوا حصار طروادة، تُعزى

إليه الأسطورة الحكمة والخطب الطويلة التي ألقاها في اجتماعات الرؤساء، وقد ورد ذكره في الإلياذة والأوديسة.

نواي (مدام ده) **Mme de Noailles**– (١٨٧٦ –١٩٣٣): شاعرة وقصصية فرنسية ثانية اثنتين هما أشهر شهيرات شاعرات فرنسا في القرن التاسع عشر.

هانوتو (جبرييل) **Gabriel Hanoteau**: مؤرخ فرنسي شهير، عضو الأكاديمية، وُلد سنة ١٨٥٣، ألَّف كتابًا في تاريخ الكاردينال ريشليو، وأشرف على وضع كتاب تاريخ الأمة الفرنسية وآخر في تاريخ المستعمرات الفرنسية.

هكسلي (أولدس) **Aldous Huxley**: كاتب إنجليزي، وُلد سنة ١٨٩٤ كان من محرري مجلة الاثينيم، ثم كان الناقد المسرحي لجريدة الوستمنستر جازيت، وله مؤلفات كثيرة تُرجم منها أخيرًا إلى العربية: «الوسائل والغايات».

هوش Hoche– (١٧٦٨ –١٧٩٧): قائد فرنسي تولى قيادة جيش الموزيل أثناء الثورة الفرنسية فحالفه النصر، وفي عهد الإرهاب اشتُبه في أمره وسُجن، ثم أُفرج عنه وكُلِّف إخماد ثورة الفانديه، ثم تولى قيادة الحملة الموجهة إلى إيرلندا فتوفي في السنة نفسها، وهو من أعظم شخصيات الثورة وأطهرهم ذيلًا.

هيلو (بارون) **Baron Hulo**: شخصية الشيخ الداعر وصفها بلزاك في قصة «الأهل الفقراء».

هوميروس Homère: شاعر يوناني يُروى أنه عاش في القرن التاسع قبل الميلاد، ويُنسب إليه الرواة «الإلياذة» و«الأوديسة» ويمثلونه شيخًا مكفوف البصر يتنقل بين المدن يتغنى بأشعار هاتين الملحمتين.

هيلانة Hélène: أميرة يونانية بارعة الحسن اختطفها باريس، فكان ذلك سببًا في تجريد حملة على مدينة طروادة؛ لتخليص هيلانة كما يقول الرواة.

وسلر James Whistler- (١٨٣٤ -١٩٠٣): مصور أمريكي شهير، صاحب صور إنسانية ولوحات أخرى اشتهر بانسجام ألوانه. عاش في فرنسا فترة من الزمن، ثم استقر به المقام في لندن، وفي أخريات حياته عاش في باريس.

ولز (هـ. ج) H. G. Wells- (١٨٦٦ -١٩٤٦): قصصي إنجليزي من ألمع كتاب القرن العشرين، اعتنق الاشتراكية واندفع بكل قوته في طلب إصلاح المجتمع، فألَّف كتبًا علمية كما ألف في الأخلاق والاجتماع فله: «آلة الزمان»، «الاشتراكية والزواج»، «عالم جديد مكان عالم قديم»، «يوتوبيا حديثة» وغيرها كثير.

ولسن Woodrow Wilson- (١٨٥٦ -١٩٢٤): انتُخب رئيسًا لجمهورية الولايات المتحدة سنة ١٩١٢، وقرر انضمام بلاده إلى صفوف الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وساهم في وضع معاهدة فرساي.

ولنجتون Due of Welligton- (١٧٦٩ -١٨٥٢): قائد إنجليزي

شهير، تولى قيادة الجيوش الإنجليزية في البرتغال وفي إسبانيا ضد الفرنسيين وانتصر عليهم في بعض الوقائع. وأخيرًا تولى قيادة الجيوش المتحالفة التي هزمت نابليون في موقعة واترلو سنة ١٨١٥. اشتهر بقوته البدنية وعزيمته التي لا تلين فلقب بالدوق الحديدي.

ويجان Weygand: قائد فرنسي، وُلد سنة ١٨٦٧. عاون المارشال فوش في حرب ١٩١٤، ثم وجه إلى بولونيا سنة ١٩٢٠ فساهم في كسر الهجوم البلشفي، وعُيِّن مندوبًا ساميًا في سوريا سنة ١٩٢٣، ثم وكيلًا لمجلس الحرب الأعلى (١٩٣١ -١٩٣٥) وهو عضو الأكاديمي.

* * *